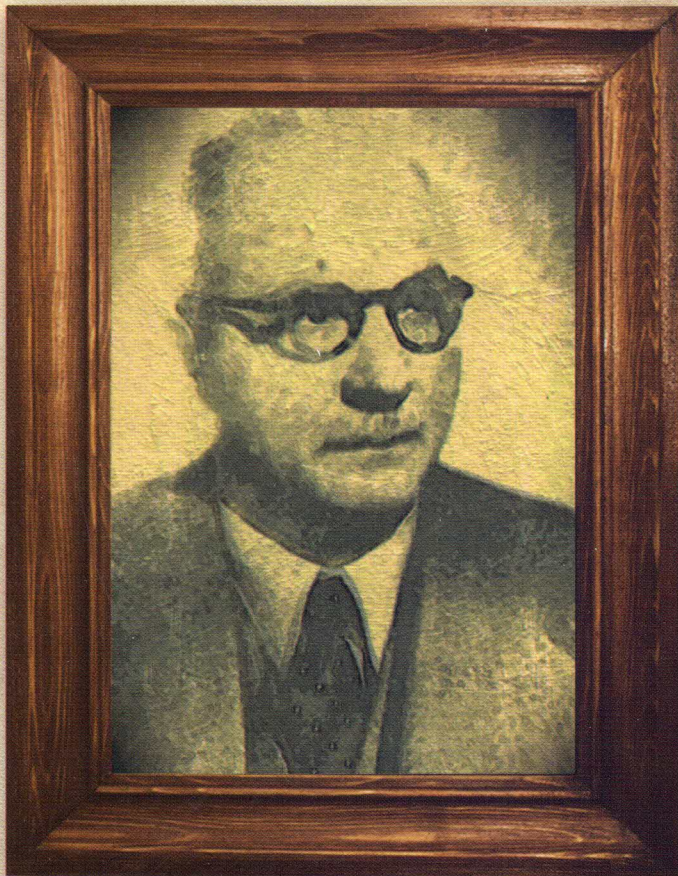


محمد شفيق غزال

أستاذ جليل وصاحب مدرسة نارمجة

تصدير

أ.د. عادل حسن غنيم



مكتبة (البحري للنشر والتوزيع)

هذه الكتب

رأى معظم المؤرخين أن محمد شفيق غربال هو مؤسس مدرسة التاريخ المصري الحديث. ولم يكن ذلك باعتباره أحد الرواد الذين خاضوا معركة تمصير الوظائف في الجامعة المصرية وأول مصري تولى وظيفة أستاذ التاريخ الحديث بالجامعة وأنه المؤسس الحقيقي للجمعية المصرية التاريخية، بل يرجع إلى أنه علم وثقف واستخدام المنهج العلمي في الكتابة التاريخية، ونبّه إلى أهمية استخدام الوثائق ليس في كتابة التاريخ السياسي فقط بل أيضًا في التاريخ الاجتماعي. كان مؤرخًا موسوعيًا من طراز فريد، مزج بين الحقب التاريخية المختلفة، وحطّم الحواجز التي تُفرّق بين تخصصات التاريخ، وأحسن الاستفادة من العلوم المساعدة للتاريخ من أدب واجتماع وعلم نفس وفلسفة وجغرافيا وغيرها. ونظرًا لأن تراث غربال يستحق مزيدًا من الدراسة والبحث والتعمق فقد حرصت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية على انتهاز فرصة مرور خمسين عامًا على رحيل غربال لإقامة ندوة عنه إحياء لدوره الرائد في النهوض بالدراسات التاريخية وإنشاء الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ورعايتها حتى وفاته. ويسرّ الجمعية أن تنشر بحوث هذه الندوة مع دراسات أخرى وذلك في كتاب خاص تقديرًا لتراث هذا العالم الرائد في مجال الدراسات التاريخية واعتزازًا بذكره المتجددة إن شاء الله. والله المستعان.

القاهرة : الأزهر - ٧ حارة الصوافة أمام جامعة الأزهر

تليفون و فاكس: ٢٥٩٢٠٠٧٨ (+٢٠٢) FB/Emambokhary.com

Email : Info@Emambokhary.com

جوال: ٠١٢٢٣٦٧٦٩٧

www.Emambokhary.com





« الْإِتْقَانُ لَا حَدَّ لَهُ »

مُحَمَّدُ شَفِيقُ عُرَيْدِي

أَسَازُ جَيْلٍ وَصَاحِبُ مَنَازِلَةِ نَارِ مِجَنَّةٍ

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محاضر شفيق غزال

أستاذ جليل وصاحب مدرسة تاريخية

تصدير

أ.د. عادل حسن غنيم

القاهرة

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

مكتبة الهمام البخاري للنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ - ٢٠١٣م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢١٣٤٩ / ٢٠١٣م

ISBN

٩٧٨ ٩٧٧ ٤٨١ ١٠٠ ٥

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر - إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق المصرية
إدارة الشؤون الفنية

محمد شفيق غربال أستاذ جيل وصاحب مدرسة تاريخية / تصدير عادل
غنيم : القاهرة : مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع ، ٢٠١٣ .
٢٤٨ ص ٢٤٨ سم .

تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٨١ ١١٠ ٥

١- المؤرخون المصريون

٢- شفيق غربال - محمد شفيق غربال ، ١٨٩٤-١٩٦١

أ- غنيم ، عادل (مُصَدَّر)

ديوي ٩٠٧،٢٠٢

مكتبة الإمام البخاري

الإنبياء عيسى عليه السلام شارع الجمهورية .. الثلاثيني .. بعد الاستقلال



تليفون ٩٢٣٣٦٧٦٧٩٧

المحتويات

٧	تصدير
	أ.د. عادل غنيم
١١	كلمة مقرر الندوة
	أ.د. عبد المنعم الجميعي
١٣	محمد شفيق غربال : سيرة ونحية
	أ.د. عبد المنعم الجميعي
٢٩	العطاء العلمي للمؤرخ محمد شفيق غربال (محاولة بيليوغرافية وقراءة بيليوغرافية)
	د. حسام أحمد عبد الظاهر
٧٩	محمد شفيق غربال أستاذ جيل وصاحب مدرسة
	أ.د. أحمد عزت عبد الكريم
٨٧	محمد شفيق غربال مؤرخًا
	أ.د. أحمد عبد الرحيم مصطفى
١١١	الأستاذ الكبير محمد شفيق غربال وتلاميذه (حديث الذكريات)
	أ.د. محمد محمود السروجي
١٢٩	لماذا شفيق غربال من شوامخ المؤرخين؟
	أ.د. رأفت غنيمي الشيخ
١٤٧	شفيق غربال ومدرسة التاريخ الوطني
	أ.د. علي بركات
١٦١	محمد شفيق غربال من رواد المدرسة الأكاديمية الوطنية
	أ.د. أحمد زكريا الشلق
١٧١	غربال و تكوين مصر (مدخل إلى فلسفة التاريخ)
	أ. فايز علي
٢٠٧	من قضايا التاريخ الإسلامي في كتابات محمد شفيق غربال
	د. حسام أحمد عبد الظاهر



الأستاذ الكبير محمد شفيق غربال

تصدير

أ.د. عادل غنيم

كان من نتائج الكفاح الوطني خلال النصف الأول من القرن العشرين بشكل خاص أن شهدت مصر رُؤادًا عديدين في مختلف التخصصات أثروا الحياة السياسية والأدبية والثقافية والفنية وكانوا بدايةً لنهضة حقيقية.

ففي مجال السياسة كان هناك على سبيل المثال: أحمد لطفي السيد، وسعد زغلول. وفي مجال الشعر كان هناك أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم. وفي مجال القصة القصيرة كان هناك محمد حسين هيكل، ومحمي حقي. وفي مجال الموسيقى والغناء كان هناك سيد درويش، ومحمد عبد الوهاب. وفي مجال المسرح كان هناك توفيق الحكيم. وفي مجال الأدب نجد طه حسين، وعباس العقاد. وفي مجال الفن نجد محمود مختار. وفي مجال الرواية نجد نجيب محفوظ. وفي مجال النقد الأدبي نجد سيد قطب، ومحمد مندور. وفي مجال التأريخ والدراسات التاريخية كان هناك محمد شفيق غربال ومعه رفيقاه محمد رفعت، ومحمد صبري.

وقد رأى معظم المؤرخين أن محمد شفيق غربال هو مؤسس مدرسة التاريخ المصري الحديث. ولم يكن ذلك باعتباره أحد الرواد الذين خاضوا معركة تصير الوظائف في الجامعة المصرية وأول مصري تولى وظيفة أستاذ التاريخ الحديث بالجامعة وأنه المؤسس الحقيقي للجمعية المصرية التاريخية، بل يرجع إلى أنه علّم وثقّف واستخدام المنهج العلمي في الكتابة التاريخية، ونَبّه إلى أهمية استخدام الوثائق ليس في كتابة التاريخ السياسي فقط بل أيضًا في التاريخ الاجتماعي.

كان محمد شفيق غربال مؤرخًا موسوعيًا من طراز فريد. مرّج بين الحقب التاريخية المختلفة، وحطّم الحواجز التي تُفَرِّق بين تخصصات التاريخ، وأحسن الاستفادة من العلوم المساعدة للتاريخ من أدب واجتماع وعلم نفس وفلسفة وجغرافيا وغيرها.

كان يملك رؤية خاصة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، ويتمتع بقُدرة علمية كبيرة على النقد والتحليل والتفسير. ويجمع بين جمال العرض وحُسن استخدام التعبيرات والمصطلحات وبين

فلسفة التاريخ وإبراز عبقرية المكان، ولعل كتابيه «تكوين مصر»، و «تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية» بشكل خاص أبرز مَثَل على ما أقول.

وقد كان من آثار غربال أنه أشرف على عدد من طلابه تحمّلوا بعد وفاته مسئولية الدّراسات التاريخية كان من أبرزهم : أحمد عزت عبد الكريم الذي أنشأ سمنار التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة عين شمس والذي تخرّج على يديه عشرات المؤرّخين، وعبد العزيز الشناوي الذي قاد الدراسات التاريخية بجامعة الأزهر، وحسن عثمان مؤلّف الكتاب الشهير «منهج البحث التاريخي»، وأحمد الحتة الذي أنشأ مدرسة في التاريخ الاقتصادي الحديث وغيرهم .

وقد سُئِلَ غربال قبل وفاته عن أبرز كتبه فأشار إلى طلابه الجالسين « هؤلاء هم كتبي »، فمن المعروف أن غربال ترك لنا مؤلفات محدودة لكنها كانت عميقة الأثر دافعة للعديد من البحوث والدراسات .

وتقديرًا لهذا العطاء وهذه الشخصية العلمية المتفرّدة احتفلت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بتأبينه، كما احتفل مجمع اللغة العربية بذلك أيضًا في حفل شارك فيه المؤرّخ البريطاني الشهير «أرنولد توينبي» الذي ذكر في كلمته أنه كان أستاذًا لغربال لكنه تعلّم منه أكثر مما علّمه .

وقد أصدرت الجمعية التاريخية عام ١٩٦٣م المجلد الحادي عشر من مجلة الجمعية الذي ضمّ كلمات التأبين التي شارك فيها بعض أساتذة التاريخ والجغرافيا واللغة العربية مما يوضّح الآثار الكبيرة التي تركها غربال في مختلف المدارس والتخصصات.

كما ضمّ الموسم الثقافي للجمعية ١٩٧١/١٩٧٢م بعض المقالات العلمية عن محمد شفيق غربال ورَدّت ضمن المجلد التاسع عشر من مجلة الجمعية (١٩٧٢م)

وكان من الإنجازات المهمة للتعريف بباقي تراث محمد شفيق غربال أن أمكن لباحث موهوب هو الدكتور حسام عبد الظاهر الذي يعمل بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية أن يجمع في مجلدين صدرتا سنة ٢٠١٢م الكثير من كتابات غربال -من غير مؤلفاته-

ضمت بحوثه ومقالاته وأحاديثه التي نُشرت في الدوريات المختلفة أو مُقدّمات الكتب ومطبوعات الندوات والهيئات والمجامع العلمية، حيث انكبَّ الدكتور حسام عبد الظاهر على مدى سنوات لجمع هذا التراث ومُراجعته وتحقيقه بشكل علمي مُتميّز يجعلنا نقوم بقراءة جديدة لغربال أو كما قال أحمد زكريا الشلق في تقديمه المتميز للمجلدين « نعيد اكتشاف شفيق غربال من جديد ونعيد قراءته وفهمه والتعلم منه » .

ولم يكتفِ الباحث حسام عبد الظاهر بذلك بل أرفق بالجزء الثاني كشافات تحليلية للبحوث والمقالات الواردة بالجزءين إضافة إلى كشف زمني خاص بهما مما أعطى للمجلدين قيمة فنية خاصة. فتحية وتقديرًا لهذا الباحث وللأستاذ الدكتور أحمد زكريا الذي تابع العمل ورعاه.

ونظرًا لأن تراث غربال يستحق مزيدًا من الدراسة والبحث والتعمق فقد حرصت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية على انتهاز فرصة مرور خمسين عامًا على رحيل غربال لإقامة ندوة عنه إحياء لدوره الرائد في النهوض بالدراسات التاريخية وإنشاء الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ورعايتها حتى وفاته. وكان ذلك بناءً على اقتراح مُقدّم من الأستاذ فايز على عضو الجمعية ، حيث وافق مجلس الإدارة في ٢٤/٣/٢٠١٢م على قيام الدكتور عبد المنعم الجميعي بالترتيب لندوة تعقد عن هذا المؤرخ الكبير ، وطلب منه إعداد مذكرة بالموضوع وتحاوّه المختلفة للعرض على مجلس الإدارة الذي وافق على عقد الندوة يوم السبت الموافق ٢٩/١٢/٢٠١٢م بمقر الجمعية ، حيث عقدت جلستان احدهما برئاسة الأستاذ الدكتور عاصم الدسوقي تحدث فيها الأستاذ الدكتور رأفت غنيمي الشيخ ، والأستاذ الدكتور عبد المنعم الجميعي ، ورأس الجلسة الثانية الأستاذ الدكتور رأفت غنيمي حيث عرض الأستاذ الدكتور أحمد زكريا مُلخصًا لبحث الأستاذ الدكتور محمد محمد السروجي الذي لم يتمكّن من الحضور لظروفه الصحية ، لكن الدكتور أحمد زكريا أفاض في حديثه عن غربال مما دفعني إلى أن أطلب منه نص حديثه لنشره ضمن أعمال الندوة، كما تحدث في الجلسة الثانية الأستاذ فايز على ، والدكتور حسام عبد الظاهر.

والجمعية إذ تنشر البحوث التي أُلقيت بالندوة، تنشر إضافة إليها عدة بحوث: الأول أعده

الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم عن غربال بعنوان « محمد شفيق غربال أستاذ جيل وصاحب مدرسة » والثاني أعدّه الأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى بعنوان « شفيق غربال مؤرخاً » ونُشر الأول في المجلد التاسع عشر من مجلة الجمعية (١٩٧٢ م) ، ونُشر الثاني بالمجلد الحادي عشر من المجلة (١٩٦٣ م) .

وقد رأيت وأخي الدكتور أحمد زكريا الشلق إعادة نشرهما ليس لقيمتها العلمية فقط بل أيضاً لنفاد المجلدين من مجلة الجمعية وحرصاً على تعريف شباب المؤرخين بهما.

كما ننشر معها أيضاً مقالاً أعدّه الأستاذ الدكتور على بركات مشاركة في أعمال الندوة، والثاني بحثاً نُعيد نشره للدكتور حسام عبد الظاهر بعنوان « من قضايا التاريخ الإسلامي في كتابات محمد شفيق غربال » لتسليطه الضوء على جانب من اهتمامات غربال لم يكن معروفاً للكثيرين.

ويُسّرُ الجمعية أن تنشر تلك البحوث مع تلك التي أُلقيت في ذكرى مرور خمسين عاماً على رحيل غربال في كتاب خاص تقديراً لتراث هذا العالم الرائد في مجال الدراسات التاريخية واعتزازاً بذكراه المتجددة إن شاء الله.

والله ولي التوفيق

المقطم في أبريل ٢٠١٣ م

كلمة مُقرّر الندوة

أ.د. عبد المنعم الجميبي

الوفاء من شيم أصحاب النفوس الكبيرة وما أحوج أبناء هذا الجيل إلى أن يتعلموا دروس الوفاء، وما أحوجهم إلى أن يتعرفوا على العظماء من الأجداد والآباء.

شفيق غربال أستاذ من بقايا الزمن الجميل الذي عرف معنى الوفاء، ونحن في هذه الأيام لا نرى في أبناء الجيل الحالي من يتمسك بهذه الخصلة الحميدة، بل نرى جيلاً في معظمه لا يعرف للوفاء معنى، ولا للانتماء أهمية !!

فَمَنْ مِنْ شباب الباحثين يعرف أو يذكر محمد أنيس مؤسس مدرسة التاريخ الاجتماعي في مصر الحديثة ؟

وَمَنْ مِنْهم يذكر أحمد عزت عبد الكريم الذي أفنى حياته في خدمة تكوين جيل من المؤرخين وآثر العيش في خلوته بين كتبه وتلاميذه ؟

ومن هنا فإن الجمعية التاريخية رأت هذه الندوة تكريماً لهذا الرجل العظيم، صاحب اليد الطولي في تأسيس الجمعية التاريخية.

إنَّ دور غربال في إنشاء « الجمعية التاريخية » التي تعتبر وبحق ربيبته القريبة من قلبه واضح وملاموس؛ فبعد عودته من بعثته بإنجلترا سعى سعياً ملموساً من أجل إنشائها، وحاول عن طريق حسين حسني أحد كبار رجالات القصر الملكي إقناع الملك فاروق بأهميتها حتى صدر المرسوم الملكي في عام ١٩٤٥ بإنشاء الجمعية، وصدر بعده أمر ملكي بتعيينه نائباً لرئيس الجمعية واستمر الحال على ذلك حتى انتخب لمنصب الرئيس بعد صدور القانون رقم ٣٨٤ لسنة ١٩٥٦ بشأن الجمعيات. وخلال ذلك أشرف غربال على إنشاء الجمعية التي تدين له بالكثير من الفضل، هذا إلى جانب رئاسته لتحرير مجلة الجمعية، وإخراجه لمجموعة قيمة من مطبوعاتها.

يُضاف إلى ذلك أن الأستاذ غربال كان سبّاقًا إلى المساهمة في أنشطة الجمعية الثقافية فشارك فيها بمحاضراته التي كانت تتعدد أحيانًا في الموسم الثقافي الواحد، وإلى جانب ذلك عمل غربال على بناء مكانة مرموقة للجمعية بين مثيلاتها في العالم وذلك عن طريق اتصالاته العديدة بالمؤرّخين الأجانب وحُضور بعض مؤتمراتهم ودعوة بعضهم لإلقاء محاضرات بالجمعية.

لقد كان الأستاذ شفيق غربال يتمتع بجانب عمله بدماثة الخلق وتُبل الطّباع .

❶ قال عنه الأستاذ أرنولد توينبي: المؤرّخ العالمي المشهور، والذي تتلمذ غربال على يديه إنه كان موهوبًا: « والطلاب الموهوبون لا يتعلمون من أستاذهم، ولا أذكر أنني علّمت شفيق غربال شيئًا بل على العكس أذكر جيدًا أنني تعلّمت منه كثيرًا ».

❷ وقال عنه زميله في مجمع اللغة العربية الدكتور منصور فهمي: « إنه من أولئك الإعلام الذين يحرصون على التجويد، فإذا كتب فالدقة والجودة كانت رائده ».

❸ وقال عنه أحد تلاميذه: « إن المناصب الكبرى لم تصرفه عن مواصلة الدراسات التاريخية، فكان تلاميذه يلتفون حوله في الجامعة، أو في الجمعية التاريخية ليناقدشهم في بحوثهم ودراساتهم ».

لقد استمر عطاء شفيق غربال للجمعية التاريخية، كما استمرت جهوده من أجل تشجيع حركة تمصير التاريخ المصري ودراسته وفق الأسلوب العلمي حتى وافته المنية في عام ١٩٦١ .

مُحَمَّد شَفِيقُ غُرْبَالٍ
سِيرةٌ وَتَحِيَّةٌ
(١٨٩٤-١٩٦١م)

أ.د. عبد المنعم الجميعي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة الفيوم

كان عالمًا فذاً رزقه الله من حب العلم، والانصراف إلى البحث والتحصيل، وعشق المعرفة، وتقدير جهود العلماء، وسعة الأفق وسماحة الخلق ما جعله بين أفراد جيله ملء السمع والبصر والفؤاد. وكان من القلائل الذين أسسوا لأنفسهم مدرسة خاصة في البحث العلمي تحمل طابعه وتسير على منهاجه، وكان المعلم الأول الذي لقن شباب الجيل الماضي دروسهم الأولى في التاريخ القومي والوطني فكان اهتمامه بتاريخ مصر الحديث الباب الرئيسي الذي نفذ منه إلى تاريخ العرب.

لقد كانت له فلسفة في التاريخ، وكان محباً للحقيقة، حرّاً في تصويرها وكان رقيقاً في نقده، مُرحباً به إذا وُجّه إليه، وكان مُتواضعاً، سخيّاً بعلمه يجود به على من يقصده.

قال عنه أستاذه «أرنولد توينبي»: «إن الطلاب الموهوبين لا يتعلمون من أساتذتهم، فهو لا يتذكر أنه علّم شفيق غربال شيئاً، بل إنه يتذكر أنه تعلم من غربال شيئاً كثيراً ذلك أنه في الدراسات العليا يشترك كل من الأستاذ والطالب في تعليم كل منهما الآخر».

ولد محمد شفيق غربال في حي غربال الممتد على ضفاف ترعة المحمودية في الإسكندرية في عام ١٨٩٤، ونشأ وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في مدارسها، ثم اختار الالتحاق بمدرسة المعلمين الخديوية العليا بالقاهرة حيث وجد فيها - كما يذكر - المعهد الذي يصله بالدراسات الإنسانية، وتخرج فيها عام ١٩١٥ ثم أوفدته الحكومة المصرية في بعثة دراسية لدراسة التاريخ الحديث بجامعة «ليفربول» بإنجلترا إبان الحرب العالمية الأولى.

ومع فداحة الأخطار التي كان يتعرض لها العالم في خلال هذه الفترة، وعلى الرغم من مصاعب السفر خلال تلك الآونة، فإن غربال لم يتردد في الذهاب إلى إنجلترا ليواصل دراسته للتاريخ هناك. وقد استطاع أن يثبت مقدرته فحصل على درجة البكالوريوس بمرتبة الشرف في عام ١٩١٩، وعاد إلى مصر ليعمل مدرساً بإحدى المدارس الثانوية بالإسكندرية لمدة ثلاث سنوات أوفد بعدها مرة أخرى إلى إنجلترا للحصول على درجة الماجستير بجامعة لندن ثم بمعهد البحوث التاريخية التابع لهذه الجامعة. وخلال ذلك التقى بالمؤرخ الإنجليزي الشهير «أرنولد

توينبي» الذي كان يشرف على بحوث الدراسات العليا هناك ويذكر «توينبي» أنه منذ لقائه الأول به وجد فيه طالباً موهوباً وأنه تنبأ بأنه سيكون في مستقبل حياته باحثاً متميزاً، كما تنبأ له بمسلكه الأخلاقي الذي تميز به، وبكونه موضوعي التفكير، مستقلاً في الرأي ذا حزم وعزم فيما يتصل بالعمل الذي يتناوله^(١).

ومن المعروف أن «توينبي» أشرف على رسالة غربال للماجستير التي حصل عليها في عام ١٩٢٤م وكانت بعنوان:

The beginning of the Egyptian Question and the Rise of Mohamed Ali.

وبعد أن عاد غربال إلى مصر في عام ١٩٢٥ عُيِّن مدرّساً للتاريخ الحديث بمدرسة المعلمين العليا، وهناك بدأ في تدريس تاريخ الحضارة الإسلامية والكتابة في هذا المجال فكتب فصلاً بالإنجليزية عنوانه: «الآراء والحركات في التاريخ الإسلامي»

Ideas and Movements in Islamic History.

ثم نقل غربال أستاذاً مساعداً للتاريخ الحديث بكلية الآداب بالجامعة المصرية في عام ١٩٢٩ ثم ما لبث أن رُقّي بها أستاذاً للتاريخ الحديث عام ١٩٣٦ فكان بذلك أول مصري يتولى هذا المنصب بالجامعة خلقاً للمؤرخ الإنجليزي «جرانت». ومن هنا بدأ غربال يشق طريقاً طويلاً في خدمة الدراسات التاريخية المصرية، وفي نقل الإشراف على هذه الدراسات من يد القصر الملكي والمؤرخين الأجانب إلى يد الجامعة فبدأ في تكوين المدرسة التاريخية المصرية، وتصير الدراسات الخاصة بالتاريخ المصري، وخاصة بعد إنشاء الدراسات العليا للماجستير والدكتوراه بالجامعة، وإشرافه وتوجيهه للبحوث التاريخية.

وقد تمكّن غربال بفضل قدرته العلمية، ودقّة ملاحظته، وقوة تأثيره على طلابه، أن تكون له الريادة الفكرية للمدرسة التاريخية فأقبل عليه تلاميذه بشغف، وأخذ يمنحهم من

(١) من كلمة الأستاذ أرنولد توينبي في مجمع اللغة العربية بالقاهرة أثناء تأبين غربال.

علمه وفكره ما يُنير لهم السبيل دون أن يضمن على أحد منهم بما يعلمه أو يصد عن بابه طالب علم. فدفع ذلك تلاميذه إلى السعي للحاق به والسمو إلى قرب قمته عن طريق الحرص على الإجابة وتوخي الدقة^(١).

ولم تقتصر جهود غربال في الجامعة على الناحية العلمية بل تعدّتها إلى نواحي النشاط الاجتماعي حين صار وكيلاً للاتحاد العام لطلاب الجامعة المصرية^(٢) وبذلك كان لغربال فضل عظيم في توجيه أجيال متعاقبة من تلاميذه الذين أخلصوا له الإجلال والتقدير، وامتد فضله عن طريقهم إلى العديد من أبناء هذه الأمة^(٣).

أما عن الرسائل العلمية التي أشرف عليها غربال فهي متعددة، وقد ارتبط معظمها بالعصر العثماني وعصر محمد علي. ويرجع السبب في ذلك إلى إهمال المؤرخين دراسة هذه الفترة في ذلك الوقت؛ ولهذا دعا غربال طلابه إلى الاهتمام بدراسة التاريخ العثماني باعتباره مدخلا لدراسة التاريخ المصري الحديث، ووجههم كذلك إلى الاهتمام بدراسة تاريخ القرن التاسع عشر بصفة عامة وعصر محمد علي بصفة خاصة نظراً لأن نبض الحياة المصرية قد اشتد في ذلك العصر، وكانت التطورات السريعة والمتلاحقة التي وقعت بمصر خلاله قد أحدثت فيها ما يشبه الثورة في كافة مناحي الحياة. نتيجة لذلك خرج على يد غربال العديد من الدراسات الأكاديمية في هذه الموضوعات نذكر منها: الدراستين اللتين قدمهما محمد رفعت رمضان ونال بهما درجتي الماجستير والدكتوراه وهما «ثورة علي بك الكبير» و«مصر والدولة العثمانية دراسة تاريخية للعلاقات السياسية بين الطرفين من ١٨٥٠-١٨٦٣»، والدراسة التي قدّمها حسن عثمان للماجستير تحت عنوان «فخر الدين بن معن الثاني أمير لبنان»، والدراستين اللتين أعدهما أحمد الحته للماجستير والدكتوراه «الفلاح المصري في عهد محمد علي» و«تطور الزراعة المصرية في

(١) المجلة التاريخية المصرية: المجلد التاسع عشر ١٩٧٢ مقال للدكتور أحمد عزت عبد الكريم تحت عنوان محمد شفيق غربال أستاذ جيل وصاحب مدرسة ص ٢٦.

(٢) مذكرة مُقدّمة من كلية الآداب جامعة القاهرة بترشيح الأستاذ غربال للجائزة الدولية التقديرية عام ١٩٦٠.

(٣) من كلمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد في مجمع اللغة العربية خلال حفل تأبين الأستاذ غربال.

النصف الأول من القرن التاسع عشر»، والدراستين اللتين قدمهما أحمد عزت عبد الكريم ونال بهما الماجستير والدكتوراه وهما «تاريخ التعليم في عصر محمد علي» و«تاريخ التعليم منذ أواخر عصر محمد علي إلى أوائل حكم توفيق»، والدراسة التي أعدها أبو الفتوح رضوان للماجستير وعنوانها «تاريخ مطبعة بولاق»، والدراسة التي قدمها محمد محمد توفيق للماجستير تحت عنوان «مصطلح وثائق تاريخ الحكم العثماني في مصر»، والدراسة التي أعدها فائق جبره للماجستير تحت عنوان «ضرائب الأتليان المصرية في عهد محمد علي»، والدراسة التي قدمها أمين عفيفي للدكتوراه بعنوان «تجارة مصر في عهد محمد علي»، والدراسة التي قدمها عياد دوس للماجستير بعنوان «الفتح المصري للسودان في عهد محمد علي»، والدراسة التي قدمها عبد العزيز الشناوي للماجستير تحت عنوان «السخرة في حفر قناة السويس».

ولغربال مؤلفات ليست بالكثيرة ولا بالضخمة، ولكن ما كتبه يقترن دائما باسمه خصوصاً وأنه كان يرى من الحقائق ما لا يراه غيره، إذا كتب تاريخاً صاغه في لفظٍ أنيق فيه فطانة، وبُعد نظر، وحسن إدراك مع دعابة لطيفة تجعل من يقرأ له يحس أنه ليس مع مؤرخ أو فيلسوف وإنما مع فقيه من فقهاء التاريخ^(١).

ومن أبرز مؤلفات غربال رسالته للماجستير «بداية المسألة المصرية وظهور محمد علي»^(٢) والتي تعد حدثاً علمياً استرعى أنظار الأساتذة والباحثين، خاصة لأنها اتّسمت باستقراء الأحداث، والفحص العلمي، والمقارنات، والناحية التحليلية، وكثرة المصادر والأسانيد كما اتّسمت بالحياد في تقويم الأشخاص والبُعد عن التحامل والعواطف.

وقد استطاع غربال في هذه الدراسة تناول التطورات السياسية في مصر منذ الحملة الفرنسية حتى وصول محمد علي إلى الباشوية، وأثبت أن المسألة المصرية كانت جزءاً مهماً من المسألة الشرقية، وأنه لا يمكن فهم هذه المسألة إلا إذا ربطنا بينها وبين ما كان يجري في الدولة

(١) حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، دراسة في علم التاريخ ص ٢٠٤.

(٢) كُتبت هذه الدراسة بالإنجليزية ولم تترجم بعد.

العثمانية وأوروبا، وهي الطريقة التي سار عليها أستاذه «توينبي» في مؤلفاته، وهي أنه لا يمكن للباحث أن يدرك كنه حقيقة تاريخ أمه من الأمم إذا هو قصر بحثه على تاريخ هذه الأمة، واكتفى بتتبع الحوادث التي وقعت فيها وحدها خصوصاً وأن حوادث العالم متشابكة فلا تقع حادثة في بلد من البلدان إلا امتدت آثارها إلى البلدان الأخرى بدرجات متفاوتة قد تكون قوية أحياناً، وغير مؤثرة في أحيان أخرى.

وتظل هذه الفترة بالذات محور اهتمام غربال ففي عام ١٩٣٢ كتب بحثاً بعنوان «الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١» اهتم فيه بدراسة شخصيتين هما المعلم يعقوب حنا أو الجنرال المصري يعقوب والفارس الإيطالي لاسكاريس.

والمعروف أن الجنرال يعقوب دخل في خدمة الفرنسيين، وقد أشار إليه الجبرتي أكثر من مرة في كتابيه «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين» و«عجائب الآثار في التراجم والأخبار» ذاكراً مساعدته لقادة الحملة، وقيامه بتأليف فرقه من الأقباط وإنشاء قلعة لها في الأزبكية.

أما الفارس لاسكاريس فهو نبيل إيطالي، دخل في سلك فرسان القديس يوحنا الذين يتخذون من مالطة مقراً لهم، وحضر مع بونابرت إلى مصر، وتقلد بعض المناصب الإدارية، وكان يرى أن مصر جديرة بالاستقلال عن الدولة العثمانية بحكم موقعها وتاريخها ومواردها.

وبعد خروج الحملة الفرنسية من مصر تبعها الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس للسعي لدى الحكومات الأوروبية لتحقيق استقلال مصر، ولكن يعقوب وافته المنية في الطريق، وكان نصيب مسعاه الإهمال.

ولا جدال في أن الأستاذ غربال قد نجح في تمحيص كل ما كُتب في هذا الموضوع^(١)، وبذل،

(١) أضافت شخصية الجنرال أو المعلم يعقوب الكثير من الجدل الثقافي أو التاريخي حيناً أو الطائفي حيناً آخر؛ خاصة مع مبالغة يعقوب للاحتلال الفرنسي ومساعدته له، ولهذا لم يكن رجال الدين المسيحي وقتها - لا سيما البطريرك - راضين عن تصرفاته وأحواله. وعلى هذا فقد اتهمه كثير من الدارسين بالخيانة، في حين صوّره البعض بأنه كان بطلاً يسعى إلى استقلال مصر!! انظر أصدقاء هذا الجدل في كتابات: أحمد الصاوي، وجمال كشك، ورجاء النقاش، ولويس عوض، ويعقوب روفيلة، وغيرهم. (المحرّر).

جهدًا في ترجمة الوثائق التي كتبها لاسكاريس وبذلك قدم بما كتبه خدمة للتاريخ المصري، وألقى شعاعًا على أول رؤية حقيقية لاستقلال مصر عن الدولة العثمانية.

وفي الثلاثينيات من هذا القرن نشر غربال دراسة تحت عنوان «مصر عند مفرق الطرق - رسالة حسين أفندي الروزنامجي» وتشتمل هذه الدراسة على تحقيق مخطوط بعنوان «ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية كما شرحه حسين أفندي أحد أفندية الروزنامه في مصر العثمانية» وهو عبارة عن أسئلة موجهة إلى «المسيو ستيف» مدير مالية مصر - خلال الحملة الفرنسية - إلى حسين أفندي حول أحوال الفلاحة في مصر ونظام الالتزام والضرائب، وبعض النواحي المالية، وإجابات حسين أفندي عليها^(١).

وقد مهدت دراسة هذا المخطوط الطريق لكل من تصدى لتاريخ الدولة العثمانية بالدراسة، وأكدت أن شفيق غربال كان محققًا من الطراز الأول خاصة وأنه أضاف إلى المخطوط من الشروح والتعليقات ما أوضح فهم غربال الصادق لحقائق التاريخ المصري، وإيمانه بدور مصر الحضاري.

ويستمر غربال في دراسته عن هذه الفترة فيخرج كتابًا بعنوان «محمد علي الكبير»^(٢)، وفيه وصف المناخ الذي كانت تعيشه مصر قبيل عصر محمد علي، ونجاح محمد علي في إقامة سلطة مركزية تجمع كل القوى المتصارعة في إطار واحد، وقيامه بمحركات إصلاحية وعمرانية واسعة في شتى المناحي حتى عادت مصر كما كانت مهذا للحضارة، كما وصف الصفوة المثقفة التي أرسلها محمد علي إلى أوروبا لدراسة العلوم الحديثة، وعادت إلى مصر لتطبيق العلم على العمل بأنها ساعدت في النهوض بالزراعة والصناعة وبناء الجيش والأسطول، وأخذت عبقريتها تدب في جسم مصر وروحها كما تدب الخميرة في العجين، وأوضح أن ما قام به محمد علي من إصلاحات فاق ما كان يقوم به الفرنسيون لو امتد حكمهم في مصر، ثم أرجع نجاح محمد علي في إصلاحاته،

(١) مجلة كلية الآداب: المجلد الرابع ج١ مايو ١٩٣٦ ص ٧١-٧٠.

(٢) نشر ضمن سلسلة أعلام الإسلام في عام ١٩٤٤، وأعاد دار الهلال نشره في أكتوبر ١٩٨٦.

وفشل السلطان العثماني محمود الثاني في الإصلاحات التي قام بها في تركيا إلى أن محمد علي كان يعتمد على ثلاثة أسس وهي القوة والعلم والمال في حين اعتمد السلطان العثماني على القوة العسكرية وحدها.

أما عن مساوئ السخرة والاحتكار وقصر المناصب العليا على الأرستقراطية العثمانية وغيرها فقد بررها غربال بأنه كان لابد من التضحية بجيل أو جيلين في سبيل بناء حكومة قوية ومعمرة في مصر.

وأما عن مواقف محمد علي من السلطنة العثمانية وأوروبا فقد تمكن غربال بفضل اتساع ثقافته، وتمكنه من أساليب الكتابة التاريخية إلى ربط تاريخ محمد علي بالأوضاع العامة في الدولة العثمانية وأوروبا، وطبيعة المؤامرات الدولية التي أحاطت به، كما رأى أن محمد علي هو قائد عثماني مسلم كان لابد له من مساعدة الخليفة العثماني على إصلاح دار الإسلام وعلى الاحتفاظ بها مصونه ضد غزوات أعداء الإسلام وأنه ظلّ على إيمانه بهذا الموقف حتى فقد الثقة بالسلطان بعد صلح كوتاهيه في عام ١٨٣٣، وبدأ يفكر في الانفصال عن الدولة العثمانية، وإعلان استقلال ما يسمى «عربستان» أي البلاد العربية عنها، ولكنه كان يتردد في اتخاذ هذه الخطوة خشية ما يترتب عليها من المحاذير.

وعند تحليلنا لما كتبه غربال عن محمد علي نجد أنه تأثر تأثيراً واضحاً بأستاذه «توينبي» في إيمانه بدور الصفوة المبدعة في مجالات النشاط البشري، وبنظريته عن فكرة التحدي والاستجابة Challenge and Response حين تطرق إلى معالجة العلاقات بين الشرق والغرب. يضاف إلى ذلك أنه دافع عن كل أعمال محمد علي وإنجازاته على حين أن هناك العديد من المآخذ على محمد علي وبعض أعماله التي كان يجب عليه توضيحها لا تبريرها. وإلى جانب ذلك نجد للأستاذ غربال دراسة قيمة تحت عنوان «تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية — بحث في العلاقات المصرية البريطانية من الاحتلال إلى عقد معاهدة التحالف ١٨٨٢-١٩٣٦»^(١). وهو

(١) نشرته مكتبته النهضة المصرية في مايو ١٩٥٢ و قبيل ثورة يوليو بشهرين.

كما يرى صاحبه في مقدمته «محاولة لتركيب صورة واضحة من الحوادث، والوقائع، والسياسات، والخطط، والبواعث والأغراض والأمانى والأحلام والشهوات التي توالى على مصر، والتي يتكون منها تاريخ العلاقات بين مصر وإنجلترا».

ويلاحظ على هذا الكتاب بصفة عامة أنه بحث علمي مدعم بالوثائق والتحليلات العلمية البعيدة عن التحيز والمعرضة بأسلوب مشوق جذاب.

وفي فصول هذا الكتاب تعرض غربال للمفاوضات المصرية البريطانية بصفة عامة، وبين كيفية نشأتها، وكيف رضي بها الإنجليز والمصريون بوصفها وسيلة لتحقيق الأمانى، وصيانة المصالح. وتعرض للأحداث التي سائرت المفاوضات، وقدم وصفاً موجزاً للسياسة العامة للاحتلال تجاه المصريين ثم تطرق إلى العلاقات المصرية البريطانية إبان الحرب العالمية الأولى بصورة مبدعة، ووصف المبررات التي استندت إليها إنجلترا كي تفرض حمايتها على مصر، وموقف الزعماء المصريين من ذلك. كما تعرض المؤلف للتحفظات الأربعة التي صحبت انتهاء الحماية في فبراير ١٩٢٢، وتوقف عند عقد معاهدة ١٩٣٦.

ومع أن كتاب الأستاذ غربال يعتبر أثراً فريداً من نوعه من حيث الموضوع وطريقة عرضه، وتدعيمه بالوثائق، وكثرة التحليلات المدعمة بوجهات النظر المختلفة التي تؤكد فهم غربال الصادق لحقائق التاريخ المصري فإنه مما يؤخذ على هذا الكتاب أن صاحبه لم يتعرض كثيراً للظروف الدولية العامة ذات التأثير المباشر في العلاقات المصرية البريطانية وربما يكون قد أجّل كتابة ذلك للجزء الثاني من الكتاب الذي كان يعتزم إصداره، ولكنه لم ير النور فقد توفي دون أن ينتهي من كتابته.

وعلى كل حال فإن لهذه الدراسة مغزى مهماً وهى أنها كانت المحاولة الأولى من جانب غربال للكتابة في القضايا المعاصرة، والتعرض للحركة الوطنية المصرية بعد أن كان القرن التاسع عشر وحده يحتل مكان الصدارة من اهتماماته.

وبعد أن قامت ثورة ١٩٥٢ ألقى غربال عشرة أحاديث باللغة الإنجليزية في البرنامج الأوروبي

بالإذاعة المصرية في عام ١٩٥٤^(١) عن «تكوين مصر» وفيها تحدث عن محبوبته ذات الأحرف الثلاثة وهي مصر فأوضح أن «مصر هبة المصريين» لا هبة النيل كما قال هيردوت لأن النيل الذي تقع مصر على ضفتيه قد قطع آلاف الأميال قبل أن يصل إلى مصر ومع ذلك فلا توجد غير مصر واحدة على طول مجراه، أقامها المصريون بكدهم وعرقهم، فهم الذين فلقوا الأرض وسقوها وزرعوها، وهم الذين أقاموا السدود والعمران في شتى أرجائها، ولولا جهودهم هذه لتحولت مياه النيل إلى مستنقعات وأماكن خربة تنتشر منها الملاريا والأوبئة ومن هنا فان البشر هم الذين صنعوا مصر، وهؤلاء البشر الذين فعلوا ذلك هم المصريون. كما أثبت غربال في أحاديثه أيضًا أن مصر مهد الحضارة التي تجمعت حولها كل الأحداث، وأن موجات الغزاة التي وفدت إليها لم تستطع أن تُفَتَّ في عضدها أو تؤثر في شخصيتها.

ونظرًا لأهمية هذه الأحاديث فقد جمعت في كتاب صدر في القاهرة باللغة الإنجليزية في عام ١٩٥٥ ثم ترجم إلى العربية، ونشرته وزارة الثقافة المصرية في عام ١٩٥٧، كما ترجمته «كارمن برافو» الباحثة بقسم الدراسات السياسية بكلية الآداب جامعة مدريد إلى الإسبانية^(٢).

أما عن آخر ما كتبه غربال فكان بعنوان «منهاج مفصل لدراسة العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ما هي عليه اليوم»، وقد بين فيه العوامل التاريخية التي أثَّرت في بناء الأمة العربية وحدَّدها فيما يلي:

١- الأثر العثماني في الأمة العربية

٢- الغزو الأوروبي وأثره في الأمة العربية

٣- التطور الداخلي للأمة العربية

وشرح كذلك ظروف وقوع العالم العربي تحت الحكم العثماني والظروف التي أدت إلى الغزو الأوروبي للأقطار العربية. والنتيجة التي خرج بها غربال من دراسته لهذا الموضوع

(١) أذيعت هذه الأحاديث بعد ذلك من محطات إنجليزية وأمريكية متعددة.

(٢) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد: مدريد، المجلد الرابع عشر ١٩٦٧، ص ٧-١٧.

تتلخص في أن عوامل التدافع والتصادم بين الأمة العربية والقوى الغازية لها انجملت عن ظهور النهضة العربية الحديثة، وإلى جانب ذلك فإن لغربال جهودًا كبيرة في مجال الترجمة من الإنجليزية إلى العربية وبخاصة في مجال التوجيه والمراجعة والإشراف على نقل عدد من أمهات الكتب التاريخية اللازمة لتثقيف الجيل العربي، وإفادة الدارسين والباحثين. كما أن له العديد من البحوث والمقالات التاريخية المنشورة في المجلات العلمية^(١)، وفي الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية^(٢)، وفي تقديمه لكتب تلاميذه وأصدقائه وفضلاً على ذلك فله عدد كبير من الأحاديث الإذاعية في موضوعات تاريخية متنوعة منه موضوعات في التاريخ الإسلامي، وسلسلة أخرى عنوانها «العالم الإسلامي من المحيط إلى الخليج» لو جمعت في صورة مدونات لكانت ثراءً ضخماً من المؤلفات.

وبعد أن تعرضنا لمؤلفات غربال يتضح لنا مدى قدرته، وتمكنه من أصول فن التاريخ، وإدراكه لحقائق تاريخ بلده، يُضاف إلى ذلك أن كتاباته كانت تتحلّى بالعمق ويتجلى فيها الموضوعية، وعدم إلقاء الأحكام جزأً، وأنه وإن كان قد تأثر بمدرسة «توينبي» كثيراً؛ فإنه لم يخضع في كثير من الأحيان لفلسفة تاريخية معينة بل كان يأخذ من كل تفسير بقدر طبيعة الدراسة التي يتعرض لها والملازمات التي تحيط بها. وحينما يتعرض لإحدى القضايا الشائكة التي تتعدد الآراء فيها كان في معظم الأحيان لا يفرض على القارئ رأياً بعينه بل كان يستشهد بآراء من تعرض لهذا الموضوع ليبحث القارئ معه عما هو أقرب من الموضوعية، وأحياناً كان يبدي رأيه في همس هادئ أبعد ما يكون عن التكلف، وأقرب إلى اللمسات الفكاهة الإنسانية المهدبة. وعلى كل حال لم تكن مؤلفات غربال ومصنفاته العلمية وحدها كل ما قدمه بل لعل أهمها تلاميذه الذين تشربوا ثمرات فكره، ونبضات عقله.

(١) انظر على سبيل المثال مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية، المجلد الثاني، العدد الأول، مايو، تحت عنوان أمير

سوري في إيطاليا ص ٧٦-١١١.

(٢) انظر مادة الترك في الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية.

فقد سأله يوماً أحد الأجانب عن آخر مؤلفاته، وكان في مجلس العلم من تلاميذه فأشار إليهم قائلاً: «هؤلاء هم كتي».

هذا عن غربال وجهوده المتعددة في المجالات التاريخية. أما عن أنشطته العلمية الأخرى والمناصب المتعددة التي تولّاها فقد انتخب شفيق غربال وكيلاً لكلية الآداب فعميداً لها في مايو ١٩٣٩ وحتى مارس ١٩٤٠.

وفي عام ١٩٤٠ نُقِلَ غربال من الجامعة إلى وزارة المعارف لبدء مرحلة جديدة في خدمة التربية والتعليم، وهي خدمة وطنية جليلة، وظل هناك حتى ديسمبر ١٩٤٢ يعمل وكيلاً مُساعدًا بالوزارة، ثم عاد إلى منصبه بالجامعة لإدارة دفّة المدرسة التاريخية.

وفي يناير ١٩٤٥ نقل غربال إلى وزارة المعارف مستشاراً فنياً فوكيلاً لها إلى جانب تعيينه أستاذًا غير متفرغ بكلية الآداب في فبراير ١٩٤٩ وأتاح له ذلك الالتقاء بطلابه والاستمرار في مدرسته التاريخية ثم نقل وكيلاً لوزارة الشؤون الاجتماعية لفترة أُعيد بعدها إلى وزارة التربية والتعليم حيث نهض بنصيب كبير في أعمال لجان المناهج بالوزارة^(١).

وخلال عمل غربال بوزارة التربية كان له دور بارز في حركة تمصير المقررات التاريخية بالمدارس، كما كانت الكتب الدراسية التي أسهم في وضعها بمثابة النواة التي اهتدى بضوئها الطلاب والكتاب من بعده.

وإلى جانب ذلك لمس غربال عن قرب مشكلات المجتمع المصري والحياة المصرية بوجه عام. وقد قدم غربال للدراسات التاريخية في مصر خدمات جليلة تمثلت في إنشاء «الجمعية المصرية للدراسات التاريخية» التي كانت تعتبر وبحق ربييته القريبة من قلبه. فقد سعى سعيًا ملموسًا من أجل إنشائها حتى صدر المرسوم الملكي في عام ١٩٤٥ بإنشاء الجمعية، وصدر بعده أمر ملكي بتعيينه نائباً لرئيس الجمعية، واستمر الحال على ذلك حتى انتخب لمنصب الرئيس في عام ١٩٥٦

(١) ظل غربال بوزارة التربية إلى أن أُحيل إلى التقاعد في عام ١٩٥٤ بعد أن بلغ الستين.

وخلال ذلك أشرف شفيق غربال على إنشاء مكتبة الجمعية التي تدين له بالكثير من الفضل، وكانت سياسته في هذه المرحلة ترمي إلى اقتناء كل كتاب طيب يمكن اقتناؤه، ثم عمل بعد ذلك على أن يكون لكل موضوع مراجعه الأساسية فقام بتزويد المكتبة بمجموعات قيمة من الكتب والمراجع التي تعالج الكثير من القضايا التاريخية المهمة، هذا إلى جانب رئاسته لتحرير مجلة الجمعية السنوية، وإخراجه لمجموعة قيمة من مطبوعاتها. يضاف إلى ذلك أن شفيق غربال كان سبباً إلى المساهمة في أنشطة الجمعية الثقافية فشارك فيها بمحاضراته التي كانت تتعدد أحياناً في الموسم الثقافي الواحد^(١).

وإلى جانب ذلك عمل شفيق غربال على بناء مكانة مرموقة للجمعية بين مثيلاتها في العالم، وذلك عن طريق اتصالاته العديدة بالمؤرخين الأجانب وحضور بعض مؤتمراتهم، ودعوة بعضهم لإلقاء محاضرات بالجمعية علاوة على تشجيعه على نشر بعض البحوث بلغات أجنبية في مجلد خاص، ومن مآثر غربال أيضاً إشرافه على إنشاء متحف الحضارة المصرية في عام ١٩٤٩م فقام بتوجيه لجانه المختلفة بأرائه وتحقيقاته. كذلك مثل غربال الحكومة المصرية في عدة مؤتمرات تاريخية فقد ترأس وفد مصر إلى الجمعية العمومية لليونسكو في عام ١٩٤٨م وانتخب عضواً بالمجلس التنفيذي لهذه الهيئة عدة سنوات فظل يمثل الشرق الأوسط لدى هذه المنظمة من عام ١٩٤٦م إلى عام ١٩٥١م. يضاف إلى ذلك أن هيئة اليونسكو اختارته في عام ١٩٥١م لعضوية لجنة من اثني عشر مؤرخاً من أبرز مؤرخي العالم ليكونوا مستشارين لها في شئون العالم وهو مشروع المؤلف الضخم الذي تكفلت به اليونسكو^(٢).

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان غربال عضواً بالمجمع اللغة العربية في الفترة بين عام ١٩٥٦م وسنة وفاته، كما كان عضواً بالمجمع العلمي المصري والجمعية الجغرافية، والمجلس الأعلى للآثار، ومركز تسجيل الآثار المصرية القديمة، وجمعية الآثار القبطية، ولجنة التاريخ والآثار بالمجلس

(١) لتفاصيل ذلك انظر كتابنا الجمعية المصرية للدراسات التاريخية دراسة تاريخية لمؤسسة علمية، ص ١٤٧-١٥٢.

(٢) المجلة التاريخية المصرية: المجلد الحادي عشر ١٩٦٣.

الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ورئيس الشعبة التاريخية للجنة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية.

هذا إلى جانب أنه رأس مجلس مديري الموسوعة العربية الميسرة فيما بين عامي ١٩٥٩-١٩٦١^(١).

وعلى الرغم من مشاغل غربال في وظائفه التي استنفدت الكثير من وقته ظلت صلته بالدراسات التاريخية مستمرة، واستمرت مدرسته التاريخية القائمة على حب البحث والتزام المنهج العلمي قائمة.

وبعد تقاعده تولى منصب مدير معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة التابع لجامعة الدول العربية خلفاً للأستاذ ساطع الحصري فبعث فيه الحركة والنشاط، ووثق علاقته بالهيئات العلمية والجامعية التي لم تعرف قبل غربال أن هناك معهداً بهذا الاسم، كما نهض المعهد في عهده نهضة علمية كبيرة.

يضاف إلى ذلك أن غربال عمل على توجيه طلابه بالمعهد توجيهاً علمياً فأخذ يشرف على عدد كبير من الرسائل التاريخية في المعهد تتناول تاريخ الأمة العربية الحديث والمعاصر حتى خرجت على يديه موضوعات عن العرب والترك (١٩٠٨-١٩١٦) و«تاريخ الوحدة العربية حتى عام ١٩٤٥» و«المسألة المراكشية ١٩٠٢-١٩١٢» و«اليمن في عهد الإمام يحيى ١٩١١-١٩٤٨» وغيرها.

وظل غربال يشغل منصبه في هذا المعهد بمجدارة وهمة حتى وفاته في ١٩ أكتوبر ١٩٦١ بعد مرض قصير لم يمهله إلا أياماً فذهب إلى جوار ربه، فبكاه أصدقاؤه وتلاميذه ومقدرو علمه وعارفو فضله^(٢).

(١) مذكرة الجمعية التاريخية بشأن ترشيح الأستاذ غربال للجائزة الدولية التقديرية ١٩٦٠.

(٢) Abdel Rahman Zaki: Mohammed Shafik Ghorbal 1894-1961, Cairo 1962

مما سبق يتضح أن شفيق غربال كان مؤرخًا وعالمًا من الطراز الأول يستقرئ الحضارات كما يستقرئ الوثائق والنصوص وأنه مصري أصيل عمل في تواضع ورحابة أفق على النهوض بالدراسات التاريخية فأرسى قواعدها، ووجهها التوجيه العلمي السليم، كما يتضح أن جهوده لم تقتصر على إنعاش الدراسات التاريخية في مصر بل تعداها إلى المشاركة في الحركة الفكرية بكل جوانبها وأبعادها ومما يحمد له أنه لم يتملق السراي الملكية رغم إعجابه بشخصية محمد علي، فكان بحق المثل الأعلى للأستاذ الجامعي الذي يحق لمصر أن تفخر به. وحسنًا فعلت جامعنا القاهرة وعين شمس عندما أطلقتنا اسمه على مدرج في كليتي الآداب بهما.



العطاء العلمي
 للمؤرخ محمد شفيق غربال
 (محاولة بيليوغرافية وقراءة بيليومترية)

د. حسام أحمد عبد الظاهر
 باحث في التراث والتاريخ الإسلامي
 بدار الكتب والوثائق القومية

رُوي أكثر من مرة أن البعض قام بتوجيه سؤال إلى المؤرخ الكبير محمد شفيق غربال^(١) (١٣١١-١٣٨١ هـ/١٨٩٤-١٩٦١ م) عن عدد مؤلفاته فأشار إلى تلامذته قائلاً: « هؤلاء هم أهم مؤلفاتي ». وقد شاعت هذه المقولة شيوعاً كبيراً خاصة أن من رواها اثنين من كبار مؤرخينا وهما الدكتور أحمد عزت عبد الكريم^(٢)، والدكتور محمد أنيس^(٣).

ونتيجة لشيوع هذه المقولة ظن الكثيرون بل وأكدوا على قلة الإنتاج العلمي لشفيق غربال ومحدوديته، وهي مقولة ظالمة تحاول ورقتي هذه دفعها والرد عليها، حيث تقوم على تغطية الإنتاج العلمي والثقافي لشفيق غربال وفقاً لما تم التوصل إليه حتى الآن.

وهدف هذه الدراسة ليس دراسة حياة هذا المؤرخ الكبير وأفكاره وفلسفته التاريخية ومنهجه ومكانته؛ فالهدف الرئيس هو عمل قائمة ببليوجرافية لأول مرة عن أعمال شيخ المؤرخين المصريين في العصر الحديث، وتقديم قراءة ببليومترية لهذه القائمة. ومن المعروف أن الكم وإن كان أحد جوانب الدراسة الموضوعية إلا أنه غالباً ما يكون تقريبياً أو بمعنى أكثر وضوحاً قاصراً عن الاستيفاء الكامل. والمتغيرات البحثية التي سأخذ بها في هذه الورقة تتمثل في الأبعاد الزمنية، وأشكال الإنتاج العلمي، والدرجات العلمية، والمراحل العمرية، وعدد الطباعات. مع محاولة الربط بين بعض هذه المتغيرات وبعضها الآخر.

(١) عن شفيق غربال وكتابات ومنهجه في الكتابة التاريخية، انظر: أحمد عبد الرحيم مصطفى: شفيق غربال مؤرخاً. المجلة التاريخية المصرية. مج ١١، ١٩٦٣ م، ص ٢٥٥-٢٧٨؛ عبد المنعم الجميحي: اتجاهات الكتابة التاريخية في تاريخ مصر الحديث والمعاصر «القرنين التاسع عشر والعشرين». القاهرة، عين للدراسات والبحوث، ١٩٩٤ م، ص ١٥٩-١٧٠؛ أحمد زكريا الشلق: من الحوليات إلى التاريخ العلمي - نهضة الكتابة التاريخية في مصر. سلسلة مصر النهضة (٨٤). القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١١ م، ص ١٧٤-١٨٠.

(٢) أحمد عزت عبد الكريم: كلمته في تأبين محمد شفيق غربال بمعهد الدراسات العربية العالية، ديسمبر ١٩٦١ م. المجلة التاريخية المصرية. مج ١٩، ١٩٧٢ م، ص ١٩.

(٣) محمد أنيس: شفيق غربال ومدرسة التاريخ المصري الحديث. مجلة المجلة. السنة الخامسة، العدد ٥٨، نوفمبر ١٩٦١ م، ص ١٣.

في البداية يجب أن أذكر أن هناك مشكلات عديدة واجهتني أثناء قياسي بإعداد بيلوجرافية شفيق غربال ومنها:

١. طول الفترة الزمنية الواقعة بيننا - في سنة ٢٠١٣م - وبين السنة رحل فيها شفيق غربال - ١٩٦١م - منذ أكثر من خمسين (٥٠) عامًا، وكذلك طول الفترة الزمنية التي تمثلها حياة شفيق غربال العلمية في الإنتاج العلمي والتأليف والنشر، والتي بلغت سبعة وثلاثين (٣٧) عامًا خلال الفترة (١٩٢٥-١٩٦١م) أي إلى السنة التي رحل فيها، بالإضافة إلى أن عطاء غربال العلمي لم ينته برحيله؛ ف بجانب هذه الفترة هناك سبع (٧) سنوات أخرى تمتد إلى سنة ١٩٦٨م والتي ظهرت له فيها بعض جوانب العطاء العلمي التي لم تكن نشرت من قبل.
٢. وجود بعض الأعمال التي ذكر شفيق غربال نفسه أنه انتهى منها، ولا يوجد دليل على نشرها. ومن ذلك ما ذكره في مقالته «مصر عند مفرق الطرق» التي نشرها قبل رحيله بربع قرن، بأن ما ينشره عن ترتيب الديار المصرية للروزنامجي ما هو إلا المقالة الأولى وأن مقالة إستيف عن مالية مصر هي المقالة الثانية التي يعمل بها^(١)، وعلى الرغم من السنوات الطويلة التي أعقبت نشر المقالة الأولى إلا أن شفيق غربال لم يقم بنشر مقالته الثانية على الإطلاق. وينطبق ذلك أيضًا على الجزء الثاني من كتابه «تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية» حيث ذكر في أحد الحوارات الصحفية معه قبل رحيله بأكثر من ثلاث (٣) سنوات أنه قد انتهى من تأليفه وأنه سوف يصدره قريبًا^(٢)؛ وبالرغم من هذا التصريح إلا أن هذا الجزء الثاني لم ير النور.

٣. اعتمد البعض في دراساتهم وكتبهم على محاضرات لشفيق غربال ذاكرين إياها في قائمة مراجعهم غير أننا لم نعثر على مثل هذه المحاضرات. ومن ذلك محاضراته

(١) محمد شفيق غربال: مصر عند مفرق الطرق ١٧٩٨-١٨٠١م، مجلة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول، المجلد الرابع،

الجزء الأول، مايو سنة ١٩٣٦م، ص ٦.

(٢) انظر: الحوار الذي أجراه الأستاذ عبد التواب عبد الحي مع الأستاذ محمد شفيق غربال. مجلة الإذاعة. العدد

١١٩٢، السبت ١٨ يناير ١٩٥٨م، ص ١٤.

في «تاريخ الشرق الأدنى في العصر العثماني»، والتي أشار إلى ذكرها الدكتور حسن عثمان في قائمة مراجعه في كتاب «منهج البحث التاريخي»^(١). وأيضًا محاضراته في تاريخ السودان الحديث، وهي مجموعة محاضرات ألقاها شفيق غربال في معهد الدراسات السودانية بالقاهرة، خلال السنوات ١٩٤٨-١٩٥١م، وقد تم جمعها معًا واعتمد عليها بعض الباحثين مثل: الدكتور إبراهيم عبده في كتابه «في السودان»^(٢). وقد قام الدكتور علي إبراهيم عبده في كتابه «المنافسة الدولية في أعالي النيل ١٨٨٠-١٩٠٦م»^(٣). الصادر سنة ١٩٥٨م بتقديم تقرير شبه واف عن هذه المحاضرات ذاكرًا أنها اشتملت على تسعة موضوعات كبيرة هي: الإدارة في السودان قبل الحركة المهدية، وحركة الكشف الجغرافي وآثارها بالنسبة للاستعمار الأوروبي في أفريقيا، وقدم العرب إلى ساحل أفريقيا الشرقي ونتائجه، والرّق الأفريقي واتصاله بالاستعمار، والحركة المهدية ومقارنتها بالحركات الدينية الأخرى كالوهابية والسنوسية، وإخلاء السودان، والأحوال الداخلية في السودان في عهد المهدي وخليفته عبد الله التعايشي، واسترداد السودان، وأزمة فاشودة. ويبدو أن هذه المحاضرات كانت موجودة إلى عهد قريب، والذي يجعلنا نؤكد ذلك أن هناك كتاب صدر سنة ١٩٨٥م ضمن سلسلة «مصر النهضة» وهو كتاب «الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادي بين مصر والسودان» لنسيم مقار^(٤) والذي ذكر في مراجعه هذه المحاضرات مرفقة ببيان أنها غير مطبوعة. ويحدونا الأمل في أن يعثر بعض الباحثين على مثل هذه المحاضرات وإعدادها للنشر في كتب تضاف إلى الرصيد العلمي المنشور لشفيق غربال.

(١) حسن عثمان: منهج البحث التاريخي. القاهرة، دار المعارف، ط٧، ١٩٩٦م، ص ٢١١.

(٢) إبراهيم عبده: في السودان. القاهرة، دار مجلتي، د.ت، ص ٤٠ و ٤٧.

(٣) علي إبراهيم عبده: المنافسة الدولية في أعالي النيل ١٨٨٠-١٩٠٦م. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٨م، ص ٣٩٦-٣٩٥.

(٤) نسيم مقار: الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادي بين مصر والسودان. سلسلة مصر النهضة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م، ص ٢١٧.

٤. وجود بعض الأخبار عن قرب صدور بعض أعمال شفيق غربال، ومن ذلك ما نشر في بعض الصحف سنة ١٩٤٠م^(١) خبر مفاده اشتراك شفيق غربال مع طه حسين ومحمد رفعت وجاستون فييت وآخرين في وضع كتاب عن مدينة القاهرة يصور نشأتها وتاريخها السياسي والفني والعقلي؛ غير أنه لم يثبت صدور مثل هذا الكتاب. كما يصدق ذلك أيضًا على إعلان الجمعية الفلسفية سنة ١٩٤٥م عن قرب صدور كتاب لشفيق غربال عنوانه «فلسفة التاريخ» وذلك في ذيل كتاب «الحياة الروحية في الإسلام»، لمحمد مصطفى حلمي^(٢)، إلا أن هذا الكتاب لم ير النور، ولا نعرف ما هو المصير الذي آلت إليه أصوله.
٥. ومن المشكلات أيضًا ما يشير إليه البعض^(٣) من انتهاء شفيق غربال سنة ١٩٥٢م أو ١٩٥٤م من تحقيق كتاب «مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين» للجبرتي، إلا أنه لم يُنشر. وقد أشار البعض الآخر^(٤) نقلًا عن محضر اجتماع مجلس إدارة الجمعية التاريخية بتاريخ ٤ ديسمبر ١٩٦٧م إلى أن هناك أوراقًا لشفيق غربال أودعت في الجمعية كان منها كتاب «مظهر التقديس»، فهل هو التحقيق الذي قام به شفيق غربال؟ الحقيقة لا نستطيع الإجابة عن هذا السؤال؛ خاصة وأن هذه الأوراق لا توجد في الجمعية التاريخية الآن.

٦. الأخطاء العديدة التي وقع فيها البعض في توصيف أعمال شفيق غربال مثل عمله المعروف «أمير سوري في إيطاليا في القرن السابع عشر» والمنشور في مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩٣٤م، تورده الدكتور عايدة نصير في كتابها «الكتب العربية

(١) جريدة الأهرام، ٢٥ يناير ١٩٤٠م.

(٢) محمد مصطفى حلمي: الحياة الروحية في الإسلام. القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٥م، ص ١٦٤.

(٣) محمد أنيس: شفيق غربال ومدرسة التاريخ المصري الحديث، ص ١٤؛ نقولا يوسف: أعلام من الإسكندرية. الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٦٩م، ص ٢٩٨. ويذكر البعض أن شفيق غربال حقق كتاب الجبرتي قبل سنة من إصدار كتاب «تكوين مصر» أي في سنة ١٩٥٤م. انظر: سامي خشبة: مفكرون من مصر، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م، ص ١٩٩.

(٤) عبد المنعم الجميلي: الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (دراسة تاريخية لمؤسسة علمية ١٩٤٥-١٩٨٥م)، ص ١٥٠.

التي نشرت في مصر بين عامي ١٩٢٦-١٩٤٠م^(١) على أنه كتاب وهو ليس كذلك. وأيضًا مثل مقالة «تونس المعاصرة» والتي كتبها شفيق غربال في الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية، ثم أعادت لجنة دائرة المعارف نشرها ضمن كتاب «تونس الخضراء» سنة ١٩٤٣م؛ نجد البعض^(٢) يذكر أنه أحد كتب شفيق غربال.

٧. الخلط الذي تقع فيه فهارس بعض المكتبات من نسبة أعمال لشفيق غربال وهي ليست له. ومن ذلك ما يرد في فهارس دار الكتب من وجود كتاب لشفيق غربال عنوانه «الحكر وتقديره»، صدر سنة ١٩٢٦م؛ وهو كتاب لمحمد شفيق باشا عضو مجلس الشيوخ ووزير الزراعة والأشغال العمومية. وكذلك فهرس مكتبة الجمعية التاريخية والذي ينسب لشفيق غربال كتب مثل: «البحث العلمي»، و«التشريعات الاجتماعية العمالية»... وغيرها، والصواب أنها للدكتور محمد شفيق بجامعة الإسكندرية.

٨. وجود مجموعة من المحاضرات والأحاديث الإذاعية التي ألقاها شفيق غربال في مناسبات مختلفة، ولم نجد لها نصًا مكتوبًا^(٣). وقد آثرنا استبعاد هذه المحاضرات والأحاديث التي لم نجد نصوصها، ولم نوردنا في القائمة البليوجرافية المرفقة بهذه الدراسة، التي اقتصرنا فيها على ما له نص مكتوب.

والتحليل المبدئي لهذه القائمة البليوجرافية يبين أنه يمكن تقسيم جوانب العطاء العلمي لشفيق غربال التي تبلغ مائة وثمانية وسبعين (١٧٨) عملاً علميًا إلى عشرة (١٠) أقسام على النحو الوارد في الجدول (١):

(١) ص ١٦٣.

(٢) عبد الرحمن زكي: محمد شفيق غربال ١٨٩٤-١٩٦٦م. مجلة جمعية الأنار القبطية. المجلد ١٦ (١٩٦١-١٩٦٢م).

القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٦٢م، ص ٣.

(٣) انظر تفصيلات ذلك في: حسام عبد الظاهر: تراث محمد شفيق غربال. القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية،

النوع	العدد	النسبة المئوية
الكتب	٨	٤,٤٩%
التحقيق ونشر النصوص	٢	١,١٢%
البحوث والمقالات	٧٣	٤١,٠١%
المقدمات	٣٣	١٨,٥٣%
الحلقات النقاشية	١	٠,٥٦%
الحوارات الصحفية	٦	٣,٣٧%
الترجمة	٢	١,١٢%
التحرير	٢	١,١٢%
المراجعة	٢٠	١١,٢٣%
الإشراف	٣١	١٧,٤١%
المجموع	١٧٨	١٠٠%

جدول (١)

وفهم من الجدول (١) عدة حقائق من بينها أن البحوث والمقالات تحتل المرتبة الأولى في مجالات العطاء العلمي لشفيق غربال بعدد ثلاثة وسبعين (٧٣) عملاً تمثل ٤١,٠١% من جملة العطاء العلمي، تليها مقدمات الكتب بعدد إجمالي ثلاث وثلاثين (٣٣) مقدمة تمثل ١٨,٥٣%، ثم يأتي بعدها الإشراف على الرسائل الجامعية بعدد إحدى وثلاثين (٣١) رسالة بنسبة ١٧,٤١%، وبعد ذلك تأتي الكتب بنسبة ٤,٤٩%.

وإذا حاولنا تَفْهَم إنتاجية العطاء العلمي زمنياً - في ضوء الببليوجرافية - سيتبين لنا وجود قمة إنتاجية لشفيق غربال تتمثل في سنة ١٩٤٨م، والتي شهدت وحدها ظهور أربعة عشر (١٤)

عملاً علمياً^(١)، تليها قمة أقل منها خلال سنة ١٩٦٠م حيث ظهر فيها ثلاثة عشر (١٣) عملاً علمياً^(٢). وعامة فإنه يلاحظ أن الفترة من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٦١م يزيد فيها إنتاج شفيق غربال العلمي كثيراً عن الفترة التي تسبقها (١٩٤٥-١٩٤٧م).

وبالإضافة إلى ذلك فإنه يُستنتج من الببليوجرافية أن شفيق غربال لم يتوقف قط عن الإنتاج العلمي إلا لسنوات قليلة تمثل فترات انقطاع عن ظهور أو نشر أي عمل له فيها، وتمثل تحديداً في خمس (٥) سنوات هي ١٩٢٦، ١٩٢٧، ١٩٢٩، ١٩٣١، ١٩٣٥م. ويلاحظ أن هذه السنوات الخمس تقع ضمن السنوات العشر الأولى من رحلة العطاء العلمي لشفيق غربال، والذي لم يكن قد التحق بالجامعة في السنوات الأربع الأولى منها؛ حيث كان لا زال يعمل مدرّساً في مدرسة المعلمين.

وبجدر الذكر أن إنتاجية الكتب عند شفيق غربال توزع - في ضوء الببليوجرافية - على ثمانية أعوام كالآتي:

(١) انظر القائمة الببليوجرافية، أرقام: ١٥، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٣٤، ٣٧، ٤٩، ٧٠، ٧٥، ٧٦، ٩٤، ١١٢، ١٢٥.

١٦٥.

(٢) انظر الببليوجرافية، أرقام: ١٤، ٥٩، ٦٢، ٩١، ١١١، ١١٩، ١٢٩، ١٣٨، ١٣٨، ١٤٤، ١٥٧، ١٧١، ١٧٨.

السنة	الكتب
١٩٢٥م	التاريخ القديم
١٩٢٨م	The Beginning of the egyption question and the rise of Mohamed Ali بداية المسألة المصرية وظهور محمد علي
١٩٣٢م	الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١م.
١٩٤٤م	محمد علي الكبير
١٩٥٢م	تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية الجزء الأول - بحث في العلاقات المصرية البريطانية من الاحتلال إلى عقد معاهدة التحالف ١٨٨٢-١٩٣٦م
١٩٥٥م	The Making of Egypt تكوين مصر
١٩٦١م	منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ماهي عليه اليوم
١٩٦٢م	من زاوية القاهرة

جدول (٢)

ويُفهم من ذلك أن مؤرخنا الكبير بدأ باكورة إنتاجه العلمي بعد عام واحد من حصوله على درجة الماجستير وذلك في سنة ١٩٢٥م، وهي تتمثل في كتابه «التاريخ القديم» والذي شاركه فيه المؤرخ الإنجليزي إدجار.

ويلاحظ أن شفيق غربال بعد صدور كتابه الأول هذا انقطع عن نشر الكتب لمدة ست (٦) سنوات كاملة أي إلى سنة ١٩٣٢م حين نشر كتابًا يتضمن محاضراته التي ألقاها في الجمعية الجغرافية عن «الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١م»، وفي منتصف هذه السنوات الست أي في سنة ١٩٢٨م طبعت في لندن أطروحته

التي حصل بها على درجة الماجستير^(١).

وقد تضاعفت فترة عدم نشر كتب لشفيق غربال بعد ذلك؛ حيث انتظرنا اثنا عشر (١٢) عامًا لكي يظهر كتاب جديد له وهو كتابه «محمد علي الكبير» الصادر سنة ١٩٤٤م. وظهر بعد ذلك بثماني (٨) سنوات الجزء الأول من كتابه «تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية».

نريد من ذلك أن نذكر أن كتب شفيق غربال والتي لم تبلغ سوى ثمانية (٨) فقط نشرت على فترات متباعدة إجمالاً، ولم يتواصل إنتاج الكتب سوى في عامي ١٩٦١ و ١٩٦٢م وقد ظهر فيهما كتابيه «منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ماهي عليه اليوم» و«من زاوية القاهرة».

وبخصوص مقدمات الكتب الآتية في المرتبة الثانية من الناحية العددية كما ذكرنا يجدر الذكر أن بعضها مقدمات قصيرة لا تخلو من أهمية ودلالات مفيدة، وبعضها الآخر يُعتبر بحوثاً قائمة بذاتها، منها - على سبيل المثال - مقدمة كتاب: «تاريخ التعليم في عصر محمد علي»، ومقدمة كتاب «تاريخ التعليم من نهاية حكم محمد علي إلى أوائل حكم توفيق»، لأحمد عزت عبد الكريم^(٢)، وأيضاً مقدمته للترجمة العربية لكتاب «القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط» لأرشيبالد لودس^(٣).

(١) انظر رقم ٦ في القائمة الببليوجرافية. ومن الجدير بالذكر أن هذا الكتاب بالإنجليزية، بتقديم المؤرخ العالمي أرنولد توينبي، وهو في أصله الرسالة التي حصل بها شفيق غربال على درجة الماجستير في التاريخ الحديث، وهذا الكتاب يقوم بترجمته حالياً الدكتور مصطفى رياض بالمركز القومي للترجمة، بمراجعة وتقديم: الدكتور أحمد زكريا الشلق.

(٢) انظر رقمي ٨٩ و ٩٠ في الببليوجرافية.

(٣) رقم ٩١ في الببليوجرافية.

أما أعمال التحقيق ونشر النصوص فلم يقوم شفيق غربال فيها إلا بنشر نصين يرجعان إلى العصر العثماني :

أحدهما : نشره سنة ١٩٣٤م وهو خاص بتاريخ الشام وهو «أمير سوري في إيطاليا في القرن السابع عشر» للصفدي^(١).

وثانيهما : يختص بتاريخ مصر وهو نص حسين أفندي الروزنامجي المعروف بـ «ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية»، ونشره بعد عامين من النص الأول أي في سنة ١٩٣٦م^(٢).

والملاحظ ارتباط اهتمام غربال بنشر النصوص بالفترة الأولى من عطائه العلمي، وهو الاهتمام الذي لم يستمر بعد ذلك، غير أننا نجد في السنوات الأخيرة يقوم على مراجعة بعض الأعمال التحقيقية مما يدل على عودته مرة أخرى إلى الاهتمام والتشجيع على نشر النصوص التاريخية^(٣).

والحديث عن النشاط العلمي الذي قام به شفيق غربال في المراجعة العلمية على المؤلفات يدفعنا إلى تناول هذه الظاهرة في العطاء العلمي لدى هذا المؤرخ الكبير؛ حيث اشتهر عنه قيامه بمراجعة الكثير من المؤلفات، وهو ما يمكن تصويره على النحو الآتي:

نوع المراجعة	المراجعة على المؤلفات	المراجعة على التحقيقات	المراجعة على المترجمات	المجموع
عدد المراجعات	٤	٢	١٤	٢٠

جدول (٣)

(١) رقم ٩ في الببليوجرافية.

(٢) رقم ١٠ في الببليوجرافية.

(٣) انظر رقمي ١٣٠ و ١٣٤ في الببليوجرافية.

ويلاحظ من الببليوجرافية أن مراجعة شفيق غربال على المؤلفات بدأت معه سنة ١٩٣٩م بمراجعته لكتاب «مصر في العصور القديمة» للأساتذة إبراهيم نمير سيف الدين، وزكي علي، وأحمد نجيب هاشم^(١)، أما المؤلفات الثلاثة الأخرى التي راجعها فكانت خلال فترة الخمسينيات^(٢).

كما يلاحظ أيضًا أن النسبة الغالبة من جهود المراجعة عند شفيق غربال تذهب إلى المترجمات، والتي لم تبدأ معه إلا متأخرة في سنة ١٩٥٠م حتى رحيله، وخلال هذه المرحلة الأخيرة من حياته قام بمراجعة أربعة عشر (١٤) كتابًا، ثلاثة (٣) منها فقط في التاريخ^(٣) وأحد عشر (١١) عملًا أدبيًا للأديب الإنجليزي وليم شكسبير^(٤) راجع ترجمتها بالاشتراك مع الأستاذ محمد بدران، وهي الأعمال التي قام بترجمتها: سهير القلماوي، ولويس عوض، وإبراهيم زكي خورشيد، ومحمد عوض محمد... وغيرهم. كما راجع الجزء الثالث من ترجمة محمد بدران لمسرحية الملك هنري السادس، وهي أيضًا لشكسبير.

ومن الجدير بالذكر أن معظم هذه الأعمال الأدبية التي راجع ترجمتها شفيق غربال ظهرت إلى النور بعد رحيله سنة ١٩٦١م مستمرة في الصدور حتى سنة ١٩٦٨م.

ومراجعة الترجمات تنقلنا إلى موضوع آخر خاص بالترجمات التي قام بها شفيق غربال بنفسه، والتي يمكن تقسيمها إلى قسمين: أحدهما ترجمة الكتابات التي كتبها هو بالإنجليزية وهو ما لم يتوافر سوى في حالة واحدة تتمثل في كتابه «تكوين مصر» والذي نشر أولاً بالإنجليزية سنة ١٩٥٥م ثم قام شفيق غربال بترجمته إلى اللغة العربية بالاشتراك مع محمد رفعت.

(١) رقم ١٢٧ في القائمة الببليوجرافية.

(٢) انظر الببليوجرافية، أرقام ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦.

(٣) انظر أرقام ١٢٩، ١٣١، ١٣٢ في الببليوجرافية.

(٤) انظر الببليوجرافية الأرقام من ١٣٧ إلى ١٤٧.

وهذا الاشتراك قد يدلنا على عدم اهتمامه بترجمة أعماله المكتوبة بالإنجليزية؛ والتي يأتي على رأسها كتابه «بداية المسألة المصرية»، هذا بالإضافة إلى بحثه عن «الآراء والحركات في التاريخ الإسلامي» والذي نشره سنة ١٩٥٨م وظهرت ترجمته إلى اللغة العربية سنة ١٩٦١م على يد الأستاذ محمود عبد الله يعقوب^(١)؛ غير أن أوراق شفيق غربال التي أودعت في الجمعية التاريخية تضم ثلاث كراسات بها ترجمة أخرى لبحثه هذا قام بها الأستاذ أحمد خاكي وزميل له^(٢). وقد يشير وجود مثل هذه الكراسات ضمن أوراق شفيق غربال إلى أنه كان يقوم بمراجعة هذه الترجمة. ومن نافلة القول وجود أربعة (٤) أعمال لشفيق غربال باللغة الإنجليزية والتي لم تترجم إلا في العام الماضي^(٣).

والقسم الثاني من الأعمال المترجمة هي الأعمال التي ترجمها شفيق غربال لآخرين ولا تمثل إلا في حالتين فقط أولاهما مقالة قصيرة لكرولنجوود في التعليق على مقالة كنت حول التاريخ العام بالمعنى العالمي. والتي نشرها سنة ١٩٤٨م بالمجلة التاريخية المصرية. أما الكتاب الوحيد الذي قام بترجمته كاملاً فيتمثل في كتاب «المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن الثامن عشر» لكارل بيكر^(٤).

وهو الأمر الذي يستغربه الباحث كثيراً وذلك لإتقان شفيق غربال للإنجليزية إتقاناً كاملاً تحدثاً وكتابةً؛ وهو ما لا يدل عليه تأخر نشاطه في مجال الترجمة الذي لم يبدأ إلا بعد أربعة وعشرين (٢٤) عاماً من حصوله على درجة الماجستير في لندن سنة ١٩٢٤م.

ويؤكد هذا الإتقان السابق ذكره أحاديث شفيق غربال الإذاعية باللغة الإنجليزية.

(١) رقم ١٢ في القائمة الببليوجرافية.

(٢) عبد المنعم الجميبي: الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ص ١٥١.

(٣) انظر بيانات هذه المقالات الأربع في القائمة الببليوجرافية، أرقام ٢٠، ٤١، ٤٢، ١١٦.

(٤) انظر رقم ١٢٤ في الببليوجرافية.

وصلة شفيق غربال بالإذاعة صلة قديمة، وقد حظي بمكانة كبيرة فيها حتى أنه تولى سنة ١٩٤٨م مهمة إدارة الإذاعة المصرية أثناء غياب محمد قاسم المدير العام للإذاعة المصرية في روما^(١).

وقد كثرت أحاديث شفيق غربال الإذاعية، والتي نُشر بعضها في كتابين : أحدهما : صدر في حياة شفيق غربال وهو كتاب «تكوين مصر» والذي كان في أصله عشرة (١٠) أحاديث ألقاها غربال بالإنجليزية في الإذاعة الأوروبية. أما الكتاب الثاني : فقد نُشر سنة ١٩٦٢م، وهو كتاب «من زاوية القاهرة»، ويضم هذا الكتاب خمسة عشر (١٥) حديثًا إذاعيًا.

وبجانب هذه الأحاديث المنشورة في الكتابين السابقين هناك الكثير من الأحاديث التي ألقاها شفيق غربال ولم يضمها كتاب حتى الآن، وقد نُجحت في العثور على نصوص أكثر من عشرين (٢٠) حديثًا إذاعيًا غير تلك المنشورة في الكتابين سابق الذكر^(٢).

هذا كله بعض دلالات العطاء العلمي لشفيق غربال، التي تُفصح عنها البليوجرافية المرفقة بهذه الدراسة. ويمكن تناول هذا العطاء العلمي زمنيًا على عدة مستويات خاصة بتوزيعها على المراحل العمرية، والدرجات العلمية، والوظائف الإدارية وفترات التفرغ العلمي.

أولاً بالنسبة للتوزيع على المراحل العمرية يمكن تصويره على النحو الآتي:

(١) مجلة الإذاعة. العدد ٧٠٥، السبت ١٨ سبتمبر ١٩٤٨م، ص ٣.

(٢) عن بيانات هذه الأحاديث الإذاعية انظر البليوجرافية المرفقة، أرقام ١٥، ١٦، ٢٢، ٢٤، ٢٩، ٣١، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٧،

٤٣، ٤٩، ٥٢، ٥٤، ٥٧، ٦١، ٦٥، ٧٠، ٧٤، ٧٦، ٨٢، ٨٣.

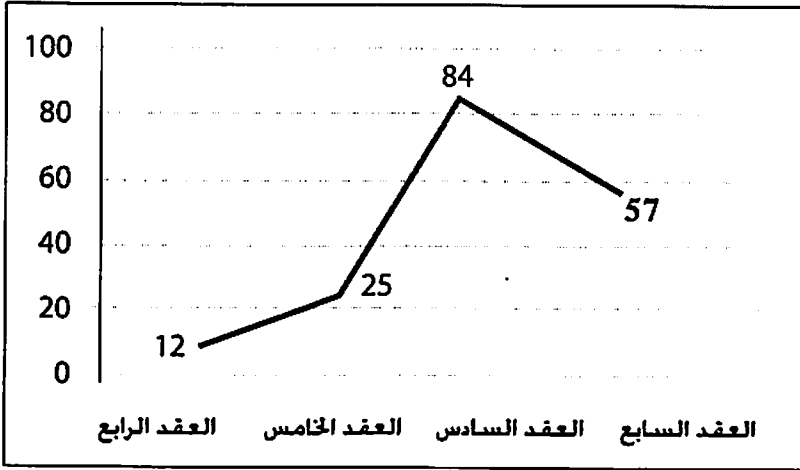
المجموع	العقد السابع ... - ١٩٥٧	العقد السادس ١٩٥٦ - ١٩٤٦ م	العقد الخامس ١٩٤٥ - ١٩٣٥ م	العقد الرابع ١٩٣٤ - ١٩٢٤ م	
٨	٢	٢	١	٣	الكتب
٢	-	-	١	١	التحقيق والنشر
٧٣	١٣	٤٦	٨	٦	البحوث والمقالات
٣٣	١٣	١٥	٥	-	المقدمات
١	-	١	-	-	الحلقات النقاشية
٦	٥	١	-	-	الحوارات الصحفية
٢	-	٢	-	-	الترجمة
٢	١	١	-	-	التحرير
٢٠	١٥	٤	١	-	المراجعة
٣١	٨	١٢	٩	٢	الإشراف
١٧٨	٥٧	٨٤	٢٥	١٢	المجموع
%١٠٠	%٣٢,٠٢	%٤٧,١٩	%١٤,٠٤	%٦,٧٤	النسبة المئوية

جدول (٤)

في بداية قراءة جدول (٤) ينبغي أن نذكر أن شفيق غريال حصل على درجة الماجستير سنة ١٩٢٤م وعمره ثلاثين (٣٠) عامًا، أي أن عمر غريال عندما بدأ رحلة العطاء العلمي في السنة التالية ١٩٢٥م كان واحدًا وثلاثين (٣١) عامًا. ويتضح من تحليل المعطيات الرقمية للجدول السابق وارتباطها بالمراحل العمرية أن أعلى إنتاجية علمية لشفيق غريال كانت في العقد السادس من عمره، وهو العقد الممتد من سنة ١٩٤٦م إلى سنة ١٩٥٦م حيث أنتج خلاله أربعة وثمانين (٨٤) عملًا تمثل ٤٧,١٩% من جملة الإنتاج، وهي تتوزع على: كتابين، وستة وأربعين (٤٦) بحثًا ومقالة، وخمس عشرة (١٥) مقدمة، وحلقة نقاشية واحدة، وحوار صحفي، وترجمتين، وعمل تحريري واحد، وأربع (٤) مراجعات، واثنى عشر (١٢) إشرافًا.

وبلي العقد السادس في الإنتاج العقد السابع والذي أنتج خلاله سبعة وخمسين (٥٧) عملاً تمثل ٣٢,٠٢٪ من جملة عطائه العلمي. أي أن العقدين الأخيرين من عمر شفيق غربال شهدا معاً ما يقرب من ٨٠٪ من جوانب إنتاجه العلمي.

وعموماً إذا حاولنا معرفة منحنى الإنتاج العلمي وفقاً للمراحل العمرية لشفيق غربال سيكون التعبير عنه كما يظهر في شكل (١) :



شكل (١)

ويؤكد هذا الرسم المنحى التصاعدي لإنتاج شفيق غربال فالعقد الرابع يمثل المرتبة الدنيا في حجم إنتاجه العلمي، أما العقد الخامس فحجم الإنتاج فيه أكثر من ضعف إنتاج العقد الرابع. ويستمر المنحنى في الصعود إلى أن يبلغ أوجه في العقد السادس من عمره، وانخفاض الإنتاج العلمي في العقد السابع لا يؤثر على الملاحظة التصاعدية لإنتاج غربال وذلك لأن المنية قد وافت شفيق غربال بعد أربع سنوات فقط من هذا العقد.

والمستوى الزمني الثاني الذي يمكن دراسة إنتاج غربال من خلاله هو مستوى الدرجات

الجامعية، ومن المعروف أن هناك ارتباط وثيق بين العطاء العلمي لمن اختار مهنة التدريس الجامعي وبين الدرجات العلمية، وأن الفهم السليم للدرجة العلمية يكون بالنظر إليها كأحد مؤشرات الإمكانيات العلمية للباحث المتخصص أكبر من كونها مجرد درجة وظيفية أو أكاديمية أو مالية. وفي ضوء ذلك يمكن تصور الإنتاج العلمي لشفيق غربال موزعاً على الدرجات العلمية في الجدول رقم (٥) :

المجموع	المرحلة الثالثة أستاذ ١٩٣٦ - ...	المرحلة الثانية أستاذ مساعد ١٩٢٩ - ١٩٣٦م	المرحلة الأولى مدرس ١٩٢٩ - ١٩٢٥م	
٨	٥	١	٢	الكتب
٢	-	٢	-	التحقيق ونشر النصوص
٧٣	٦٧	٥	١	البحوث والمقالات
٣٣	٣٣	-	-	المقدمات
١	١	-	-	الحلقات النقاشية
٦	٦	-	-	الحوارات الصحفية
٢	٢	-	-	الترجمة
٢	٢	-	-	التحرير
٢٠	٢٠	-	-	المراجعة
٣١	٢٦	٥	-	الإشراف
١٧٨	١٦٢	١٣	٣	المجموع
%١٠٠	%٩١,٠١	%٧,٣٠	%١,٦٨	النسبة المئوية

جدول (٥)

يعطي الجدول السابق عدة إشارات من بينها أن العطاء العلمي لشفيق غربال يأخذ منحى تصاعدياً من مدرس إلى أستاذ مساعد إلى أستاذ، فإنتاجه وهو أستاذ مساعد أكثر من أربعة (٤) أضعاف إنتاجه وهو مدرس كما أن إنتاجه وهو أستاذ يبلغ أكثر من اثني عشر (١٢) ضعفاً من إنتاجه كأستاذ مساعد، وأكثر وأربعة وخمسين (٥٤) ضعفاً من إنتاجه وهو مدرس؛ وهو ما يشير

إلى أن الانطلاقة الإنتاجية الكبيرة لمؤرخنا بدأت بوصوله إلى درجة الأستاذية؛ حيث شهدت مرحلة أستاذيته إنتاج ٩١٪ من حجم عطائه العلمي.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يشير الجدول إلى تميز كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث من الدرجات الجامعية بنوع أو أكثر من أنواع الإنتاج العلمي؛ فالمرحلة الأولى وهو مدرس تبرز فيها الأعمال المتصلة بالتعليم، أما المرحلة الثانية وهو أستاذ مساعد فتظهر فيها بجلاء أعمال التحقيق ونشر النصوص والتي لم تشهدها حياة شفيق غربال سوى في هذه المرحلة فقط، أما المرحلة الثالثة وهو أستاذ فتتعدد فيها أوجه العطاء العلمي فتوجد بها ستة أوجه للإنتاج العلمي لم توجد في المرحلتين السابقتين وهي: مقدمات الكتب، والحلقات النقاشية، والحوارات الصحفية، والترجمة، والتحرير، والمراجعة.

والمستوى الزمني الثالث في رحلة العطاء العلمي لإنتاج شفيق غربال يختص بعلاقة هذا الإنتاج بالوظائف الإدارية التي تولاها غربال. وإذا جمعنا سنوات شغل غربال للوظائف الإدارية المختلفة سنجد أنها تبلغ اثنا وعشرين (٢٢) عامًا تقريبًا تتمثل في: رئيس قسم التاريخ ١٩٣٦-١٩٣٧م، ووكيل كلية الآداب ١٩٣٧-١٩٣٩م، وعميد الآداب ١٩٣٩-١٩٤٠م، ووكيل وزارة المعارف خلال ثلاث فترات ١٩٤٠-١٩٤٢م و ١٩٤٥-١٩٥٠م و ١٩٥٢-١٩٥٤م، ووكيل وزارة الشؤون الاجتماعية ١٩٥٠-١٩٥٢م، ومدير معهد الدراسات العربية ١٩٥٥-١٩٦١م. وقد بلغ حجم عطائه العلمي خلال هذه الفترات مائة وثمانية وأربعين (١٤٨) عملًا علميًا من مجموع مائة وثمانية وسبعين (١٧٨) عملًا أي بنسبة تزيد عن ٨٣٪، وهذا يدل على أن الوظائف الإدارية العديدة التي تولاها شفيق غربال في حياته لم تمثل معوقًا كبيرًا أمام إسهاماته العلمية العديدة والمستمرة.

وإذا تركنا التوزيع الزمني لعطاءات شفيق غربال العلمية إلى التوزيع وفقًا للمجالات

التاريخية سنجد كتابات لشفيق غربال في مختلف العصور التاريخية القديمة والوسطى والحديثة، وهو ما يظهر في الجدول (٦) الذي تبين دلالته أن شفيق غربال كان مؤرخًا موسوعيًا وشاملاً، لا يحرص نفسه في إطار ضيق، بل يمتلك الأدوات التاريخية المناسبة لكي يكتب ويدلي برأيه في أية قضية تاريخية أيًا كان انتماءها الزمني. وبالرغم من ذلك تشير القائمة الببليوجرافية إلى أن إنتاج شفيق غربال في التاريخ الحديث والمجالات الثقافية العامة يفوق بطبيعة الحال - وذلك لتخصصه الدقيق - إنتاجه في حقلي التاريخ القديم والتاريخ الإسلامي والوسيط.

	التاريخ القديم	التاريخ الإسلامي والوسيط	التاريخ الحديث والإنتاج الثقافي العام	المجموع
العدد	٥	١٤	١٥٩	١٧٨
النسبة المئوية	%٢,٨٠	%٧,٨٦	%٨٩,٣٢	%١٠٠

جدول (٦)

وبخصوص الرسائل العلمية التي أشرف عليها شفيق غربال فهي تبلغ إحدى وثلاثين (٣١) رسالة، اثنا وعشرين (٢٢) منها ماجستير وتسع (٩) للدكتوراه.

ويمكن باستقراء بيانات الرسائل الواردة في القائمة الببليوجرافية المرفقة بهذه الدراسة التوصل إلى مجموعة من الملاحظات يأتي من بينها:

١. يبلغ عدد الباحثين الذين أشرف شفيق غربال على رسائلهم ستة وعشرين (٢٦) باحثًا، أشرف على سبعة عشر (١٧) باحثًا منهم في درجتهم للماجستير فقط، وأربعة (٤) باحثين أشرف عليهم في الدكتوراه فقط، أما الخمسة (٥) الباقين فقد أشرف عليهم في درجتي الماجستير والدكتوراه وهؤلاء الخمسة يعتبرون بذلك أبرز تلاميذ مدرسة شفيق غربال وهم تحديدًا: أحمد أحمد الحتة، وأحمد عزت عبد الكريم، وأمين مصطفى عفيفي، وشوقي عطا الله

الجميل، ومحمد رفعت رمضان.

٢. يمكن ملاحظة أن مجموعة الرسائل التي أشرف عليها شفيق غربال يمكن تقسيمها إلى قسمين: الأول منها يتصل بالتاريخ المصري والآخر يتصل بالتاريخ العربي، وهو الأمر الذي بدأ مع غربال منذ بداية إشرافه على الرسائل حيث أن أول رسالتين أجزئتا بإشرافه كانتا سنة ١٩٣٤م، الأولى هي رسالة أحمد أحمد الحتة عن «الفلاح المصري في عهد محمد علي»، ورسالة حسن عثمان عن «فخر الدين بن معن أمير لبنان». إلا أن هناك غلبة لموضوعات التاريخ المصري والتي يبلغ عدد الرسائل الخاصة به إحدى وعشرين (٢١) رسالة. ويلاحظ في هذا الصدد أن الفترة ١٩٣٤-١٩٥٥م شهدت غلبة موضوعات التاريخ المصري في الرسائل التي أشرف عليها غربال حيث بلغت في هذه الفترة تسع عشرة (١٩) رسالة في مقابل ثلاث (٣) رسائل فقط في التاريخ العربي. أما الفترة ١٩٥٦-١٩٦١م فغلب التاريخ العربي على موضوعات الرسائل بها؛ حيث أجزئت سبع (٧) رسائل في التاريخ العربي مقابل رسالتين فقط في التاريخ المصري، وقد يرجع ذلك إلى سببين أولهما حركة المد القومي العربي بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م، وثانيهما رئاسة شفيق غربال لمعهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية خلال هذه الفترة.

٣. يتبين من النظر إلى مجموع الرسائل وجود تسع (٩) رسائل خاصة بموضوعات العصر العثماني، وثلاث وعشرين (٢٣) رسالة تختص بالقرن التاسع عشر، وثلاث (٣) رسائل تتناول بعض جوانب القرن العشرين. ويفهم من ذلك أن الاتجاه الغالب عند شفيق غربال هو الاهتمام بدراسات القرن التاسع عشر أكثر من غيرها، وأنه كان يشجع تلامذته في الدراسات العليا على تناول موضوعات ترجع إلى هذا القرن.

٤. يلاحظ غلبة موضوعات التاريخ السياسي في الرسائل التي أشرف عليها شفيق غربال حيث نرى الموضوعات السياسية في سبع عشرة (١٧) رسالة، أما الأربع عشرة (١٤) رسالة الباقية فتتوزع مناصفة ما بين الموضوعات الاقتصادية من ناحية والثقافية والاجتماعية

من ناحية أخرى.

٥. كان شفيق غربال يميل إلى الإشراف الفردي والذي تمثل في إشرافه بمفرده على تسع وعشرين (٢٩) رسالة، ولم يشترك مع آخرين في الإشراف على رسائل إلا مرتين أولاهما مع تلميذه الدكتور أحمد عزت عبد الكريم في الإشراف على رسالة أحمد عبد الرحيم مصطفى عن «الحديثو إسماعيل وعلاقته بالباب العالي» والتي أجازت سنة ١٩٥١م، والرسالة الثانية اشترك في الإشراف عليها مع قرينه الدكتور محمد فؤاد شكري في الإشراف على رسالة نصيف يوسف صليب عن «تاريخ العلاقات السياسية بين مصر وأثيوبيا»، والتي أجازت سنة ١٩٦٠م.

٦. إذا قسمنا رسائل الماجستير والدكتوراه على العقود الزمنية سنجد أن شفيق غربال لم يشرف طوال عقد الثلاثينيات إلا على رسائل لدرجة الماجستير فقط وعددها سبع (٧) رسائل، أما العقد التالي وهو عقد الأربعينيات فقد تساوت فيه رسائل الماجستير والدكتوراه التي أشرف عليها حيث وجدت أربع (٤) رسائل في كل منها، أما عقد الخمسينيات فهو أكثر العقود كثافة في إشراف شفيق غربال على الرسائل الجامعية؛ حيث أشرف على ست عشرة (١٦) رسالة أي ما يفوق النصف من مجموع الرسائل التي أشرف عليها في حياته الجامعية.

٧. يتبين من القائمة الببليوجرافية أن معظم الرسائل التي أشرف عليها شفيق غربال كانت في كلية الآداب بالجامعة المصرية [جامعة فؤاد الأول، ثم جامعة القاهرة بعد ذلك]، والتي ظل يشرف على الرسائل بها بدءاً من سنة ١٩٣٤ حتى سنة ١٩٥٦م، وشهدت السنوات الأخيرة من حياته قيامه بالإشراف على عدة رسائل بجهات أخرى، وتمثل في أربع (٤) رسائل في معهد الدراسات العربية، ورسالة واحدة بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية.

نختتم الحديث عن العطاء العلمي لشفيق غربال بتناول هذا العطاء من زاوية عدد

الإصدارات أو الطبعات. ويُعد عدد الطبعات من المؤشرات الإحصائية ذات الدلالة على أهمية الأعمال وتميزها بخصائص تبرر إعادة طبعها لمرات عديدة. والملاحظ في هذا الصدد - في ضوء الببليوجرافية - أن جميع أعمال شفيق غربال العلمية أعيد طباعتها فيما عدا ستة (٦) أعمال فقط لم تطبع إلا مرة واحدة في حياة شفيق غربال، وهي تتمثل في ثلاثة كتب ومقالتين ومقدمة^(١). وإذا استثنينا أعمال المراجعة والإشراف من الحديث عن عدد الطبعات فسيقتصر تناول على مائة وسبعة وعشرين (١٢٧) عملاً علمياً تضم ثلاثمائة وإحدى وثلاثين (٣٣١) وحدة ببليوجرافية، وتتوزع هذه الأعمال من حيث عدد الطبعات تصاعدياً على النحو الآتي:

١	١	١	١	١	٤	١٤	١٠	٨٨	٦	الأعمال
١١	١٠	٩	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	عدد الطبعات

جدول (٧)

ويعد كتاب «التاريخ القديم» هو أكثر كتب شفيق غربال طباعة، حيث طبع إحدى عشرة (١١) طبعة، ويرجع تعدد طبعته إلى أنه كان كتاباً مقررًا في المرحلة الثانوية لعدة سنوات. يليه بعد ذلك كتاب «تكوين مصر» الذي طبع عشر (١٠) مرات منها مرتان في حياة غربال، وثمان (٨) طبعات بعد رحيله بدءًا من سنة ١٩٦٧م الذي ظهرت فيه ترجمة إسبانية للكتاب، غير أن إعادة طباعته باللغة العربية تأخر كثيرًا حيث لم يتم الالتفات إليه وإعادة طبعه إلا في سنة ١٩٩٠م أي بعد صدور الطبعة العربية سنة ١٩٥٧م بثلاثة وثلاثين (٣٣) عامًا. وهو أمر غريب جدًا، ويرجع الفضل في إعادة طبعته إلى الدكتور عبد العظيم رمضان، الذي تبني طبعه في سلسلة «تاريخ المصريين». وهنا يجب الإشارة إلى أخطاء كثيرة وقعت فيها هذه الطبعة التي ظهرت سنة ١٩٩٠م وكذلك الطبعة التي صُورت عنها وظهرت في سلسلة «مكتبة الأسرة» سنة ١٩٩٦م وهي تشتمل على أخطاء مطبعية عديدة، وأخطاء أخرى تمثل إسقاطات من نصوص الكتاب الأصلي.

(١) انظر الببليوجرافية أرقام: ١٢، ١٨، ٢٢، ٧٥، ١٠٩.

ومن أبرز نماذج هذه الأخطاء:

١. تحريف عنوان الكتاب من «تكوين مصر» إلى «تكوين مصر عبر العصور».
٢. صفحة ٤٦ سطر ١١ توجد جملة ساقطة من النص، وهي «فالنظر الأول يغفل أن كل إنسانية لها وجودها الذاتي»^(١).

٣. صفحة ٧١ سطور ١٤-١٧ يوجد تحريف لغوي متعمد يظهر في جملة «فشكل المعبد ذاته في جملة بأبهاؤه ومدخله، والعمودين البارزين القائمين كالمسلتين أمام المدخل، وكذلك الأسدين القائمين». وهذا التحريف يرجع إلى عدم فهم السياق فكلمات: «العمودين البارزين القائمين... الأسدين القائمين» ترد في الأصل مرفوعة كآتي: «العمودان البارزان القائمان... الأسدان القائمان»^(٢) وليست مجرورة - كما في الطبعة المحرفة - لأنها معطوفة على كلمتي «فشكل المعبد» وليست معطوفة على كلمتي «بأبهاؤه ومدخله». ولم يراع معد هذه الطبعة عضوية شفيق غربال في مجمع اللغة العربية وقام بتغيير ما كتبه دون فهم للنص الذي يغيره.

٤. صفحة ٩٣ سطر ٦-٨ توجد جملة ساقطة، وهي جملة «تدرجياً، كما جاء نتيجة لاستيطان الوافدين من بلاد العرب. وقد تمشى انتشار اللغة العربية مع انتشار الإسلام»^(٣).
٥. جملة ساقطة صفحة ١٠٢ سطر ٤، وهي جملة «أو إلى عصر هارون الرشيد. أو إلى تكشف صدر الإسلام»^(٤).

ويأتي بعد كتاب «تكوين مصر» في عدد الطباعات كتاب «محمد علي الكبير» والذي طبع خمس (٥) مرات، واحدة منها فقط في حياة شفيق غربال، وهي الطبعة الأولى من

(١) قارن مع: تكوين مصر. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧م، ص ٣٤ س ٤٣.

(٢) قارن مع: تكوين مصر، ص ٥٧ س ١٠-١٢.

(٣) قارن مع: تكوين مصر، ص ٧٧ س ٩٧.

(٤) قارن مع: تكوين مصر، ص ٨٥ س ١٤-١٥.

الكتاب سنة ١٩٤٤م، أما الطبعات الأربع الأخرى فقد بدأت متأخرة هي أيضًا بدءًا من سنة ١٩٨٦م أي بعد اثنين وأربعين (٤٢) عامًا من صدور طبعته الأولى، وتصدت دار الهلال لإصدار هذه الطبعة وبتقديم أحد أساتذة التاريخ الحديث الكبار وهو الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى. وهذه الطبعة أيضًا تحتوي على أخطاء عديدة سواء كانت طباعية أو تمثل سقطًا من نصوص الكتاب، ومن بين ذلك:

١. ما ورد في صفحة ٢٧ سطر ٢ من إسقاط لكلمة «حياة»^(١).

٢. يوجد سقط آخر صفحة ٩٨ سطر ٨ يتمثل في جملة «إلى هذا أن من اطلع على سند شيخ الجامع الأزهر»^(٢).

٣. والنموذج الثالث والأخير الذي نقتصر به في الحكم على فساد طبعة دار الهلال من كتاب محمد علي الكبير يتمثل في تكرار أورده هذه الطبعة صفحة ١١٤ في السطور الأربعة الأخيرة^(٣).

ولم تقتصر إعادة طبع أعمال شفيق غربال على الكتب المؤلفة وحدها بل شملت أيضًا الكتب المحررة، وكذلك المترجمة، والنوع الأول يتمثل في «الموسوعة العربية الميسرة» التي طبعت تسع (٩) طبعات حتى الآن^(٤)، أما النوع الثاني فيتمثل في الكتاب الوحيد الذي قام بترجمته شفيق غربال وهو كتاب «المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن الثامن عشر» لكارل بيكر والذي طبع خمس (٥) مرات اثنتين (٢) منها في حياة غربال وثلاث (٣) أخرى بعد رحيله^(٥).

كما أن إعادة الطبع شملت كذلك ال بحوث والمقالات؛ والتي أعيد نشر أربعة (٤) منها ضمن

(١) قارن مع: محمد علي الكبير. لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، أعلام الإسلام ٨. القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٤م، ص ١٠ س ١.

(٢) قارن مع: محمد علي الكبير، ص ٩١ س ٧.

(٣) قارن مع: محمد علي الكبير، ص ١١٠ س ١١٠.

(٤) راجع رقم ١٢٦ في القائمة الببليوجرافية.

(٥) انظر رقم ١٢٤ في الببليوجرافية.

بعض الكتب أو الدوريات خلال الفترة ١٩٦٦-٢٠٠٨م. وهذه الأعمال الأربعة أعيد طباعتها دون مراعاة شروط السلامة الطباعية فيها؛ حيث احتوت على العديد من الأخطاء التي تجعل الاعتماد عليها أمرًا لا يتفق مع المصداقية العلمية التي تحتم الرجوع للنص كما كتبه المؤلف بعيدًا عن أخطاء الناشرين وتحريف المحررين وسهوات الطباعة.

وهذه الطبعات تحديدًا تتمثل في: طبعة الأستاذ عبد التواب عبد الحي للسيرة الذاتية لشفيق غربال ضمن كتابه «عصر حياتي»^(١)، ومقالة شفيق غربال عن الدكتور محمد حسين هيكل، التي أعاد نشرها الأستاذ نبيل فرج في كتابه «محمد حسين هيكل في عيون معاصريه»^(٢)، وكذلك مقالة شفيق غربال التي عنوانها: «محمد علي والمجتمع المصري»، والتي أعاد الدكتور يونان لببيب رزق طبعتها مرتين الأولى في إحدى حلقات سلسلة مقالاته بجريدة الأهرام^(٣)، والثانية في كتابه «محمد علي الكبير ملف وثائقي»^(٤).

والعمل الأخير الذي أعيد طباعته لشفيق غربال على نحو غير دقيق هو مقالته الشهيرة «مصر عند مفترق الطرق»، والتي أعيد نشرها في مجلة مصر الحديثة^(٥) أثناء قيام الدكتور جمال زكريا قاسم برئاسة تحريرها.

وقد سبق أن بينت عوار هذه الطبعات من أخطاء عديدة وإسقاطات وتشويه، وذلك في البحث التقديمي لكتاب «تراث محمد شفيق غربال»^(٦) فلا داعي هتأ لتكرار ما ذكرته هناك.

(١) القاهره، الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦٦م، ص ص ١٥٤ - ١٥٦.

(٢) دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، سنة ١٩٩٦م، ص ص ٧٩-٥٩.

(٣) ٧ إبريل ٢٠٠٥م.

(٤) القاهرة، مؤسسة الأهرام، ٢٠٠٥م، ص ص ٥٦-٥٠.

(٥) القاهرة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، العدد السابع، ٢٠٠٨م، ص ص ٣٩٦-٣٢٥.

(٦) انظر: حسام عبد الظاهر: أضواء جديدة على كتابات المؤرخ محمد شفيق غربال. [ضمن تراث محمد شفيق

غربال، ج ١]، ص ص ٤٤-٤٥.

ببليوجرافية العطاء العلمي للمؤرخ محمد شفيق غربال

أولاً - الكتب:

١. كتاب التاريخ القديم لتلاميذ السنة الأولى الثانوية. [بالاشتراك مع: ج. إدجار]. الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٢٥م. [وقد صدرت منه طبعات كثيرة بعد ذلك عن المطبعة الحديثة بالقاهرة: ط١، إبريل ١٩٢٦م؛ ط٢، أغسطس ١٩٢٦م؛ ط٣، نوفمبر ١٩٢٦م؛ ط٤، يوليو ١٩٢٧م؛ ط٥، ١٩٢٨م؛ ط٦، يونيو ١٩٢٩م؛ ط٧، سبتمبر ١٩٢٩م؛ ط٨، ١٩٣٠؛ كما صدرت الطبعة التاسعة عن مطبعة المعارف سنة ١٩٣١م؛ والطبعة العاشرة عن المطبعة الأميرية سنة ١٩٣٤م...].
٢. تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية. الجزء الأول - بحث في العلاقات المصرية البريطانية من الاحتلال إلى عقد معاهدة التحالف ١٨٨٢-١٩٣٦م. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٢م.
٣. *The Making of Egypt*. القاهرة، إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم، مطبعة دار مصر للطباعة، ط١، ١٩٥٥م؛ ونقله شفيق غربال إلى العربية بمعاونة محمد رفعت تحت عنوان: تكوين مصر. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧م؛ وقامت كارمن رويث برافو بترجمة الكتاب من الإنجليزية إلى الإسبانية، ونُشرت الترجمة في: مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديريد، المجلد ١٤، ١٩٦٧م، P.7-47؛ وفي سلسلة (تاريخ المصريين) القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م؛ وب (مكتبة الأسرة) القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م؛ القاهرة، دار أخبار اليوم، ٢٠٠٧م؛ وبتقديم: محمد صابر عرب. القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٨م؛ وب (مكتبة الأسرة) القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨م؛ والقاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١١م [ضمن سلسلة (الثورة والحرية)].
٤. الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١. القاهرة، مطبعة المعارف، ١٩٣٢م؛ وبتقديم ودراسة: محمد عفيفي. القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٩م؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ٢١٢-٢٦٨.

٥. محمد علي الكبير. لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، (أعلام الإسلام ٨). القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٤م؛ وبتقديم: أحمد عبد الرحيم مصطفى. كتاب الهلال (٤٣٠) القاهرة، دار الهلال، ١٩٨٦م. وبتقديم: محمد صابر عرب. القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١٠م و٢٠١١م؛ وبتقديم: سمير مرقص. سلسلة: بناء المواطنة (١) القاهرة، المصري للمواطنة والحوار، ٢٠١١م.

٦. بداية المسألة المصرية وظهور محمد علي [بالإنجليزية]

The Beginning of the egyption question and the rise of Mohemed Ali. London. 1928.

٧. من زاوية القاهرة. القاهرة، الدار القومية، ١٩٦٢م؛ وبتقديم: أحمد زكريا الشلق. القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٩م.

منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ما هي عليه اليوم. القاهرة، جامعة الدول العربية، ١٩٦١م.

ثانيًا- التحقيق ونشر التراث:

٩. أمير سوري في إيطاليا في القرن السابع عشر (مشاهدات فخر الدين المعني في إيطاليا حسب ما أورده أحمد الخالدي الصفدي). مجلة كلية الآداب - الجامعة المصرية. مج ٢، ج ١، مايو ١٩٣٤م، ص ١١٧-١١١؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ ص ٣٥٤-٣٩٧.

١٠. مصر عند مفرق الطرق ١٧٩٨-١٨٠١م. مجلة كلية الآداب - الجامعة المصرية، المجلد الرابع، الجزء الأول، مايو سنة ١٩٣٦م، ص ٦٩١؛ مجلة مصر الحديثة. القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، العدد السابع، ٢٠٠٨م، ص ٣٢٥-٣٩٦؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ١ ص ٢١٩-٢١١.

ثالثاً- البحوث والمقالات:

١١. الآثار السياسية لأبحاث المسيو فيكتور بروننت الفنية وإعادة فتح السودان. [ملخص محاضرة ألقاها شفيق غربال في المجمع العلمي المصري]. مجلة المجمع العلمي المصري، المجلد ٣٢، ١٩٥١م، ص ص ٣٨٢-٣٨٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ ص ص ٤٤٥-٤٤٦.

١٢. الآراء والحركات في التاريخ الإسلامي. [ضمن كتاب: الإسلام الصراط المستقيم-Islam the straight] إشراف: كنيث. و. مورغان Kenneth. W. Morgan، الصادر بالإنجليزية عن مطابع شركة رونالد بنيويورك Ronald Press Company, New york سنة ١٩٥٨م ترجمة: محمود عبد الله يعقوب، مراجعة: نور الدين الواعظ. القاهرة، مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، بغداد- القاهرة- بيروت- نيويورك، ١٩٦١م، ج ١ ص ص ٦٢-١١٨؛ بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٣م؛ و [ترجمة: أحمد خاكي، وزميل له. ٣ كراسات بالجمعية التاريخية، ورد ذكر ذلك في محضر اجتماع الجمعية التاريخية بتاريخ ١٢/٤/١٩٦٧م]؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ ص ص ٢٣٣-٢٩٦.

١٣. أحكام المؤرخين على الرجال. مجلة الهلال. السنة ٦٣- الجزء ٤، إبريل ١٩٥٥م، ص ص ٤٠-٤٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ ص ص ٢٢٢-٢٦٢.

١٤. أساليب كتابة التاريخ عند العرب. مجلة الأديب. السنة ١٩، ج ٦، يونيو ١٩٦٠م، ص ص ٦-١٠ [مختصر]؛ مجلة مجمع اللغة العربية. ج ١٤ سنة ١٩٦٢ ص ص ٢٥-٣٥؛ مجمع اللغة العربية: محاضر جلسات المجمع في الدورة الرابعة والعشرين. القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٨٢م، ص ص ٣١١-٣٢٠؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ ص ص ٣٦-٥٠.

١٥. أعظم كتب التاريخ في هذا الزمان (دراسة التاريخ A Study of History). مجلة الراديو المصري. العدد ٦٧٨. السبت ١٣ مارس ١٩٤٨م، ص ٩ و ١٧؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ ص ص ١٠٠-١٠٦.

١٦. الأعلام الثلاثة (شريف- نوبار- رياض). مجلة الراديو المصري. العدد ٥٧٥، السبت ٢٣

مارس ١٩٤٦م، ص ٤؛ مجلة التربية الحديثة. السنة ١٩، العدد ٤، إبريل ١٩٤٦م، ص ص ٢٤١-٢٤٤؛ مجموعة الإذاعات الثقافية لعام ١٩٤٥-١٩٤٦م، كتاب أصدرته وزارة المعارف العمومية سنة ١٩٤٧م، ص ص ٢١٥-٢١٩؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ١ ص ص ٤٠٠-٤٠٤.

١٧. ألبانيا المستقلة - بعد ١٩٠٢م. [ضمن: دائرة المعارف الإسلامية]. القاهرة، لجنة نشر دائرة المعارف الإسلامية، ١٩٣٣م -، ج ٢، ص ص ٢٦-٢٨؛ القاهرة، دار الشعب، ١٩٦٩م؛ بيروت، دار المعرفة، د.ت؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ ص ص ٤٩٤-٤٩٧.

١٨. أهم الأحداث في تاريخ مصر الحديث وأثرها في مركز مصر الحاضر. [ضمن محاضرات الموسم الثقافي الأول للجامعة الشعبية (التي أقيمت بدار الجمعية الجغرافية الملكية، مارس - مايو ١٩٤٦م). القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٤٧م، ص ص ٦-٢٢]؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ١ ص ص ٧٣-٩٢.

١٩. إيران بين الأمم. مجلة الثقافة. العدد ١١، الثلاثاء ١٤ مارس ١٩٣٩م، ص ص ٢٥-٢٧؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ ص ص ٥٦٩-٥٧٤.

٢٠. البعثتان الدبلوماسية لعللي أفندي في باريس وصديقي أفندي في لندن ١٧٩٧-١٨١١م مساهمة في الدراسة الغربية للمؤسسات العثمانية [بالإنجليزية].

THE MISSIONS OF ALI EFFENDI IN PARIS AND OF SEDKI EFFENDI IN LONDON 1797-1811 A CONTRIBUTION TO THE STUDY OF THE WESTERNISATION OF OTTOMAN INSTITUTIONS.

مجلة كلية الآداب - الجامعة المصرية. مج ١، ج ١، مايو ١٩٣٣م، pp.114-129. والترجمة إلى

العربية ضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ ص ص ٤٠٤-٤٢٦.

٢١. بناء الوطن المصري السوداني في القرن التاسع عشر - عهد محمد علي وإسماعيل. [ضمن: رئاسة مجلس الوزراء: وحدة وادي النيل أسسها الجغرافية ومظاهرها في التاريخ. القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٤٧م، ص ص ٨٤-٨٥]؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ١ ص ص ٤٠٩-٤١٢.

٢٢. بناء وطن واحد لمصر والسودان في القرن التاسع عشر. مجلة الراديو المصري. العدد ٦٤٧.

- السبت ٩ أغسطس ١٩٤٧م، ص ٥٤؛ العدد ٦٤٨. السبت ١٦ أغسطس ١٩٤٧م، ص ٥٤.
٢٣. تاريخ مجمل للحركة العلمية في مصر في العصر الحديث. الكتاب السنوي للمجمع المصري للثقافة العلمية، مج ١٨، محاضرات ١٩٤٨م. القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٩م. ص ص ١٠ - ١٦؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ص ١٠٧-١١٦.
٢٤. التجمع والتفرق في الشرق العربي. الأهرام، الأربعاء ١٢/٨/١٩٤٨م، ص ٣ [عرض مختصر]؛ مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧١٩، السبت ٢٥ ديسمبر ١٩٤٨م، ص ص ٦-٧؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٤٣٤-٤٣٩.
٢٥. تحية إعجاب ووفاء وتقدير [عن إبراهيم باشا]. جريدة الأهرام، الأربعاء ١١/١٠/١٩٤٨م، ص ٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ص ٣٦٨-٣٧٠.
٢٦. تعليم التاريخ في المدارس المصرية للمبتدئين. مجلة التربية الحديثة. السنة الثانية، العدد الثاني، ديسمبر ١٩٢٨م، ص ص ٨١-٩٠؛ السنة الثالثة، العدد الثالث، فبراير ١٩٣٠م، ص ص ١٨٤-١٨٩؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ١٥٥-١٧٢.
٢٧. التعليم الجامعي. مجلة الهلال. السنة ٤٩- الجزء ٦، يونيو ١٩٤١م، ص ص ٥٢٥-٥٣٤؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٥٠٦-٥١٦.
٢٨. تونس المعاصرة. [ضمن: دائرة المعارف الإسلامية]. القاهرة، لجنة نشر دائرة المعارف الإسلامية، ١٩٣٣م-، ج ٦، ص ص ١٠٤-١١٤؛ القاهرة، دار الشعب، ١٩٦٩م؛ بيروت، دار المعرفة، د.ت؛ وأعيد نشرها في كتاب: تونس الخضراء. القاهرة، لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، ١٩٤٣م، ص ص ٣-٢٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٤٤٧-٤٦٥.
٢٩. الجامعات والحضارة الحديثة. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٦١، السبت ١٤ أكتوبر ١٩٤٩م، ص ص ٥٤؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٥٠١-٥٠٥.
٣٠. الجامعة الإسلامية واتحاد العرب. مجلة الهلال. السنة ٦٣- الجزء ١، يناير ١٩٥٥م، ص ص ٤٦-٥٠؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٤٢٧-٤٣٣.

٣١. الجلاء وتحرير سياسة مصر الخارجية. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ١٠١٩، السبت ٢٥ سبتمبر ١٩٥٤م، ص ١٥ و٤١؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ٤٦٧-٤٧٢.
٣٢. الجمهورية التركية. [ضمن: دائرة المعارف الإسلامية]. القاهرة، لجنة نشر دائرة المعارف الإسلامية، ١٩٣٣م-، ج ٥، ص ص ١٩٥-٢٠٨؛ القاهرة، دار الشعب، ١٩٦٩م؛ بيروت، دار المعرفة، دت؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ ص ٤٦٨-٤٩٣.
٣٣. حديث وكتب عن إيطاليا الحديثة. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٨٠١، السبت ٢٢ يوليو ١٩٥٠م، ص ص ٤-٥؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ٣٢٧-٣٣٢.
٣٤. حروب مصر في فلسطين. مجلة الكتاب. السنة الثالثة، مج ٦-ج ٧، شعبان ١٣٦٧هـ/ يوليو ١٩٤٨م، ص ص ١٨٩-١٩٤؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ٥٦١-٥٦٨.
٣٥. حضارات البحر الأبيض المتوسط. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٨٤٥، السبت ٢٦ مايو ١٩٥١م، ص ص ٧-٨؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ١٨٧-١٩٢.
٣٦. الحضارة العربية بإسبانيا. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٨٢٧، السبت ٢٠ يناير ١٩٥١م، ص ص ٦-٧؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ ص ٣٠٣-٣٠٨.
٣٧. حياة إبراهيم. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧١٣، السبت ١٣ نوفمبر ١٩٤٨م، ص ص ٨-٩؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ٣٣٧-٣٤٣.
٣٨. الحياة جديدة بأن نحيها. ضمن كتاب: علمتي الحياة. أشرف على إصداره الدكتور أحمد أمين. القاهرة، دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال (٣١)، أكتوبر ١٩٥٣م، ص ص ٥٢-٥٤؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ٥٥٧-٥٩.
٣٩. خبير سويسري في خدمة التعليم المصري في عهد إسماعيل (ف. إدوار دور بك V.Edouard Dor Bey) مجلة التربية الحديثة. (كلية المعلمين بالجامعة الأمريكية بالقاهرة). السنة العاشرة، العدد الرابع، إبريل ١٩٣٧م، ص ص ٣٧٧-٣٨٢؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ١ ص ٣٨٦-٣٩٣.

٤٠. الدكتور أحمد بدوي. [نص الكلمة التي ألقاها محمد شفيق غربال في الجلسة العاشرة لمؤتمر مجمع اللغة العربية، في ٢٥/١/١٩٦٠م]، نُشرت بمجلة مجمع اللغة العربية. ج١٤، القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٦٢م، ص ص ٢٧١-٢٧٤؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ص ٥٠٣-٥٠٨.

٤١. الدكتور بورنج ومحمد علي [بالإنجليزية].

Dr.Bowring And Muhammad Ali. Bulletin de L' Institut d' Egypte. T.24, Session 1941-1942, Le Caire: Imprimerie de L'Institut Francais d'Archeologie Orientale, 1942, PP.107-112.

والترجمة إلى العربية ضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ص ٣٢٧-٣٣٦.

٤٢. الدكتور علي مصطفى مشرفة. [بالإنجليزية].

Dr. Ali Mustafa Musharrafa Pasha. Bulletin de L' Institut d' Egypte. T.33, Session 1950-1951, Le Caire: Imprimerie de L'Institut Francais d'Archeologie Orientale, 1952, PP.431-432.

والترجمة إلى العربية ضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ص ٤٧٣-٤٧٥.

٤٣. ذكرى إبراهيم الخالد. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٨١٩، السبت ٢٥ نوفمبر ١٩٥٠م، ص ص ٧-٦؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ص ٣٦٦-٣٦٧.

٤٤. رسالة المؤرخ. مجلة الهلال. السنة ٦٥- الجزء ٤، إبريل ١٩٥٧م، ص ص ١٢-١٥؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٢١٧-٢١٨.

٤٥. سندباد مصري أو جولات في رحاب التاريخ. المجلة التاريخية المصرية. مج ١١، ١٩٦٣، ص ص ٢٩٩-٣٠١؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ص ٩٢-٩٥.

٤٦. السياسة البريطانية والوطن المصري السوداني. [ضمن: رئاسة مجلس الوزراء: وحدة وادي النيل أسسها الجغرافية ومظاهرها في التاريخ. القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٤٧م، ص ص ٨٦-٩٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ص ٤١٣-٤٢٦.

٤٧. [سيرتي الذاتية]. في مقالة: «مع المؤرخ شفيق غربال» للأستاذ عبد التواب عبد الحي. مجلة

الإذاعة. العدد ١١٩٢، السبت ١٨ يناير ١٩٥٨م، ص ١٣-١٤ و٢٧؛ وأعاد الأستاذ عبد التواب نشرها في كتابه: «عصر حياتي»، والذي نشرته الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦٦م، ص ١٥٤-١٥٦؛ ونُشرت أيضًا ضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ٥٣-٥٦.

٤٨. الشام. [ضمن: دائرة المعارف الإسلامية]. القاهرة، لجنة نشر دائرة المعارف الإسلامية، ١٩٣٣م-، ج١٣، ص ١٠٥-١٠٩؛ القاهرة، دار الشعب، ١٩٦٩م؛ بيروت، دار المعرفة، د.ت؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ٣١١-٣١٧ [تحت عنوان: ردًا على المستشرق لامنس].

٤٩. الشخصيات البارزة في تاريخ مصر الحديث. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٠١، السبت ٢١ أغسطس ١٩٤٨م، ص ٦-١١ و١١؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ٩٦-١٠٠.

٥٠. الصحراء في الحياة القومية. الكتاب السنوي للمجمع المصري للثقافة العلمية، مج ٢٠، مجموعة بحوث مؤتمر الصحاري والثروة القومية (٢٢-٢٧ إبريل ١٩٥٠م). القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٠م. ص ٩-١٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ٦٣-٦٨.

٥١. صحيفة من تاريخ الأزهر. مجلة الأزهر. المجلد ٢٣- الجزء ٩، رمضان ١٣٧١هـ- مايو ١٩٥٢م، ص ٥٩-٦٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ١١٧-١٢٥.

٥٢. العرب في التاريخ. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٨٥٣، السبت ٢١ يوليو ١٩٥١م، ص ٦-٧؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ٢٩٨-٣٠٢.

٥٣. عرض وتحليل لكتاب عن حياة الجنرال ونجت حاكم عموم السودان وسردار الجيش المصري. المجلة التاريخية المصرية، المجلد السادس، ١٩٥٧م، ص ١٦٧-١٧٤؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ٤٢٧-٤٣٦.

٥٤. العصر الذي نعيش فيه. مجلة الراديو المصري. العدد ٣٥٩، السبت ٣١ يناير ١٩٤٢م، ص ٣-٤؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ٥٤٥-٥٥١.

٥٥. فلننقذ الغرب من شر نفسه. مجلة الهلال. السنة ٦٤- ج١، يناير ١٩٥٦م، ص ص ٩٦-٩٨؛
وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٣٤١-٣٤٥.

٥٦. في أعقاب الثورة المصرية لعبد الرحمن الرافعي. مجلة الكتاب. السنة السابعة، مج١١- ج٧،
شوال ١٣٧١هـ/ يوليو ١٩٥٢م، ص ص ٨٥٧-٨٦٦؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص
ص ٤٥٤-٤٦٠.

٥٧. في متحف الحضارة المصرية. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٣١، السبت ١٨ مارس ١٩٤٩م،
ص ص ٦-٧؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٥٥٤-٥٦٠.

٥٨. قراءتان في كتابات المؤرخين في مناهجهم وأهدافهم. المجلة التاريخية المصرية. مج ٦، ١٩٥٧م،
ص ص ١٥٩-١٦٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٩٤-٩٩.

٥٩. كتابة الأعلام الأجنبية بحروف عربية. المجلة التاريخية المصرية. مج ٧، ١٩٥٨م، ص ص
٢٩٩-٣١٢؛ مجمع اللغة العربية. الدورة ٢٥، ج ٨ للمؤتمر، مجموعة البحوث والمحاضرات،
القاهرة، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٩٦٠م، ص ص ١٥٣-١٦٤؛ وضمن: تراث محمد
شفيق غربال ج ٢ ص ص ٥١-٦٦.

٦٠. كتب أوروبية موضوعها تاريخ الهضبة الحبشية والسهول المتصلة بها والبحر الذي تطل عليه
الهضبة والسهول. المجلة التاريخية المصرية. مج ٢- ج ١، مايو ١٩٤٩م، ص ص ٢٣٣-٢٣٧؛
وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ ص ص ٥٧٨-٥٨٤.

٦١. كتب جديدة. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٨٠٨، السبت ٩ سبتمبر ١٩٥٠م، ص ص ٦-٧؛
وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٣٩٨-٤٠٣ [تحت عنوان: المجتمع الإسلامي في
القرن الثامن عشر]

٦٢. كلمة [كلمته التي ألقاها في احتفال العيد الخمسيني للجمعية المصرية للاقتصاد السياسي
والإحصاء والتشريع]. مجلة مصر المعاصرة. السنة ٥١، العدد ٢٩٩، يناير ١٩٦٠م، ص ص
٢٢-٢٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ ص ص ٥٨٥-٥٨٦.

٦٣. كيف دخلت بعض المصطلحات السياسية في اللغة العربية. مجمع اللغة العربية. الدورة ٢٦، ج ٩ للمؤتمر، مجموعة البحوث والمحاضرات، ١٩٥٩-١٩٦٠م، ص ص ١٩٥-٢٠٢؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ ص ص ٦٨-٧٨.

٤٦. [محمد حسين هيكل]. مجلة الأديب. العدد الرابع، ص ١٢، ٧٥؛ السنة ١٦، العدد الخامس، ص ٧٨. [مختصر]؛ [الكلمة التي ألقاها محمد شفيق غربال في حفل استقباله عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، في الجلسة الخامسة لمجلس المجمع في ١١/٤/١٩٥٧م، «الدورة الرابعة والعشرون»]. وقد نُشرت في: الدكتور محمد حسين هيكل، لأحمد لطفي السيد. القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٥٨م، ص ص ١٧١-١٩٧؛ وبمجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ج ١٤ سنة ١٩٦٢م ص ص ٢٠٧-٢٢٦، كما نشرها المجمع في كتاب محاضر جلسات المجمع في الدورة الرابعة والعشرين، الصادر في القاهرة سنة ١٩٨٢م، ص ص ٧٤-٧٦؛ وضمن: محمد حسين هيكل في عيون معاصريه، لنبيل فرج. القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ١٩٩٦م، ص ص ٧٩-٥٩؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ١ ص ص ٤٧٦-٥٠٢ تحت عنوان: محمد حسين هيكل... رجل القلم.

٦٥. محمد علي الكبير توليته وإصلاحه. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٦٧، السبت ٢٥ نوفمبر ١٩٤٩م، ص ص ٨-٩؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ١ ص ص ٢٧١-٢٧٦.

٦٦. محمد علي الكبير في ذكره المئوية. [ضمن كتاب: الذكرى المئوية لوفاة المغفور له محمد علي الكبير ١٨٤٩-١٩٤٩م. القاهرة، دار المعارف، ١٩٤٩م، ص ص ٦-١٤]؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ١ ص ص ٢٧٧-٢٨٦.

٦٧. محمد علي والمجتمع المصري. جريدة الأهرام. ١٩ نوفمبر ١٩٤٩م، ص ٧. وأعيد نشرها في: يونان لبيب رزق: جريدة الأهرام. ٧ إبريل ٢٠٠٥م؛ يونان لبيب رزق: محمد علي الكبير (ملف وثائقي). القاهرة، مؤسسة الأهرام، ٢٠٠٥م، ص ص ٥٠-٥٦؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ١ ص ص ٢٨٧-٢٩٥.

٦٨. مركز مصر السياسي. مجلة الكتاب. السنة السادسة، مج ١٠-١١، ربيع الأول ١٣٧٠هـ/يناير

- ١٩٥١م، ص ١٧-٢٣؛ ضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ٤٤٣-٤٥٠.
٦٩. مصادر الإلهام عند بعض المؤرخين. مجلة الهلال. السنة ٦٢- الجزء ١١، نوفمبر ١٩٥٤م، ص ٤٣-٤٩؛ ضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ٢٧-٣٥.
٧٠. مصر بلد الأحرار... ولهذا رحبت بدستور اليونسكو. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧١٥، السبت ٢٧ نوفمبر ١٩٤٨م، ص ٥؛ ضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ٥٣٣-٥٣٥.
٧١. معرض الكتاب العربي الأول لسنة ١٩٤٦م. مجلة الرسالة. باب (البريد الأدبي)، السنة الرابعة عشرة، العدد ٦٦٨، ٢٢ أبريل سنة ١٩٤٦م، ص ٤٥٣-٤٥٤. [بالاشتراك مع محمد عبد الواحد خلاف]؛ ضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ٥٧٦-٥٧٧.
٧٢. مكان الثورة في تاريخ مصر الحديث. مجلة الهلال. السنة ٦٢- الجزء ٧، يوليو ١٩٥٣م، ص ٣٢-٣٥؛ ضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ٤٦١-٤٦٦.
٣٧. [من تاريخ الصحافة المصرية] عرض لمناقشة شفيق غربال لإبراهيم عبده في رسالته للحصول على درجة الماجستير. جريدة الأهرام، الخميس ١٩٤٠/٦/٦م، ص ٩؛ ضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ٣٢٦.
٧٤. من روائع القراءات... كتاب «الدستوران» [الإنجليزي والأمريكي]. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٩٠، السبت ٦ مايو ١٩٥٠م، ص ١٤-١٥؛ ضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ٣٣٣-٣٣٨.
٧٥. مواجهة الأزمات الفكرية. [ملخص محاضرة ألقاها شفيق غربال في جمعية الشبان المسلمين]. مجلة الرسالة. السنة ١٦، العدد ٧٧٠، ١٩٤٨/٤/٥م، ص ٤٠٠.
٦٧. المؤرخ الفرنسي فرانسوا شارل رد ماذا قال في كتبه عن مصر؟. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٠٥، السبت ١٨ سبتمبر ١٩٤٨م، ص ٦-٧؛ ضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ١٠٧-١١٢.
٧٧. مؤلفان في أحوال مصر الاقتصادية والاجتماعية (مؤلف للسيدة دورين وارينر عن الأرض

والفقر في الشرق الأوسط ومؤلف للدكتور الجريتلي عن قوام الصناعة الحديثة في مصر).
المجلة التاريخية المصرية، مج ٢ - ج ١، مايو ١٩٤٩م، ص ٢٣١-٢٣٧؛ وضمن: تراث محمد
شفيق غربال ج ١ ص ١٠٦-١٠١.

٧٨. نظام الحكومة في عهد إسماعيل. [ضمن كتاب: إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عامًا على
وفاته]. القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٥م، ص ٢٥٥-٢٥٩؛ وضمن: تراث محمد
شفيق غربال ج ١ ص ٣٩٤-٣٩٩.

٧٩. نظرات تاريخية في الريف المصري. [ملخص محاضرة ألقاها شفيق غربال في المعهد العالي
للتربية الفنية]. السجل الثقافي لسنة ١٩٥٣م، المطبعة الأميرية، ١٩٥٥م، ص ٣٠٣؛ وأعيد نشر
هذا الملخص ضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ١ ص ٦٩.

٨٠. هل انتهى عصر الاستعمار؟ مجلة الهلال. السنة ٦٤ - ج ١١، نوفمبر ١٩٥٦م، ص ١٦؛ وضمن:
تراث محمد شفيق غربال ج ٢ ص ٣٣٩-٣٤٠.

٨١. وجوب العودة للتأليف التاريخي على أساس الخطط. [ضمن التاريخ والآثار - الحلقة الدراسية
الأولى ٩٤ من فبراير سنة ١٩٦١م]. القاهرة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم
الاجتماعية، ١٩٦٢م. ص ١٤٩-١٥٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ ص ٨١-٨٤.
٨٢. اليونسكو. مجلة الراديو المصري. العدد ٦٦١، السبت ١٥ نوفمبر ١٩٤٧م، ص ١٠٥؛ وضمن:
تراث محمد شفيق غربال ج ٢ ص ٥٢٧-٥٣٢.

٨٣. اليونسكو في سنة ١٩٤٩م. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٥١، السبت ٥ أغسطس، ١٩٤٩م، ص
٤-٥؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ ص ٥٣٦-٥٤١.

رابعاً - المقدمات:

٨٤. أحمد أحمد الحنة: تاريخ الزراعة المصرية في عهد محمد علي الكبير. القاهرة، دار المعارف،
١٩٥٠م. ص (ط - ن)؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ١ ص ٣٠٠-٣٠٦؛ وبتصدير:
محمد صابر عرب، وصبري أحمد العدل. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢م [سلسلة

تاريخ المصريين (٢٩١)].

٨٥. أحمد بدوي: في موكب الشمس. القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٦م، ج١، ص ص (ج-د)؛ ١٩٥٥م، وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ١٧٩-١٨٠.

٨٦. يحيى الخشاب، والسيد الباز العربي: ضبط وتحقيق الألفاظ الاصطلاحية التاريخية الواردة في كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي. المجلة التاريخية المصرية. المجلد السابع، ١٩٥٨م، ص ١٦١، و٢١٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ٦٧.

٨٧. أحمد طربين: الوحدة العربية بين (١٩١٦-١٩٤٥م) بحث في تاريخ العرب الحديث منذ قيام الثورة العربية حتى نشوء جامعة الدول العربية. القاهرة، معهد الدراسات العربية بجامعة الدول العربية، ١٩٥٩م، ص ص أ-ج؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٤٤٠-٤٤٢.

٨٨. أحمد عبد الفتاح بدير: الأمير أحمد فؤاد ونشأة الجامعة المصرية. القاهرة، مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٠م. ص ص (م-ن)؛ القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٨م؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ص ٤٥١-٤٥٣.

٨٩. أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم في عصر محمد علي. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٣٨م، ص ص (ط-ت). وطبعت في السنة نفسها منفصلة عن الكتاب تحت عنوان: محمد علي والتعليم؛ وبتقديم: أحمد زكريا الشلق. القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١١م [مصورة عن الطبعة الأولى]؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ص ٣٠٧-٣٢٢.

٩٠. أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم من نهاية حكم محمد علي إلى أوائل حكم توفيق ١٨٤٨-١٨٨٢م. الجزء الأول - عصر عباس الأول وسعيد ١٨٤٨-١٨٦٣م. القاهرة، وزارة المعارف العمومية، مطبعة النصر، ١٩٤٥م، ص ص (ي-س)؛ وبتقديم: أحمد زكريا الشلق. القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١١م [مصورة عن الطبعة الأولى]؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ص ٣٨٠-٣٨٥.

٩١. أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط. ترجمة: أحمد عيسى.

القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٠م، ص ١١-٤٥؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ١٩٣-٢٢٩.

٩٢. إيمري نف: المؤرخون وروح الشعر، دراسة لإسهام الأدب والعلوم الأدبية في تدوين التاريخ منذ عهد فولتير. ترجمة: توفيق إسكندر. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦١م، ص (ط - ل)؛ ط ٢، بيروت، دار الحداثة، ١٩٨٤م؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ١٤٦-١٤٩.

٩٣. الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار. تحقيق وشرح: حسن محمد جوهر، وعبد الفتاح السرنجاوي، والسيد إبراهيم سالم. القاهرة، لجنة البيان العربي، ١٩٥٨م، ج ١، ص ١-٢؛ وضمن كتاب: «عبد الرحمن الجبرتي دراسات وبحوث». بإشراف: أحمد عزت عبد الكريم. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م، ص ١١٩ [مختصر]؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ٧٩-٨٠.

٩٤. الجمعية الملكية للدراسات التاريخية: ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا ١٨٤٨-١٩٤٨ [المقدمة تحت عنوان: إبراهيم باشا وبناء النهضة المصرية]. القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٨م. ص (ط - خ)؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ١ ص ٣٦٤-٣٦٤.

٩٥. حسين مؤنس: الشرق الإسلامي في العصر الحديث. القاهرة، مطبعة حجازي، ط ٢، ١٩٣٨م؛ المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٦٧م، ص (ج - ز)؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ٣٤٩-٣٥٣.

٩٦. رئاسة مجلس الوزراء: وحدة وادي النيل أسسها الجغرافية ومظاهرها في التاريخ. القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٤٧م، ص (هـ - ز)؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ٤٠٥-٤٠٨.

٩٧. الشاطر بصيلي عبد الجليل: معالم تاريخ السودان وادي النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي. القاهرة، ط ١، ١٩٥٥م، ص (ز - ح)؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال

ج٢ ص ص ٤٤٤-٤٤٣.

٩٨. شفيق شحاتة: تاريخ حركة التجديد في النظم القانونية في مصر منذ عهد محمد علي. القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦١م، ص ٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ٥٧٥.

٩٩. شوقي عطا الله الجمل: الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر (١٨٦٣-١٨٧٩م). القاهرة، مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٥٩م، ص ص (ش - ث)؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ص ٣٧٥-٣٧٩.

١٠٠. عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في عهد محمد علي الكبير. القاهرة، مطبعة حجازي، ١٩٣٩م، ص ص (و - ح)؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ص ٢٩٦-٢٩٩.

١٠١. عبد الرحمن زكي: السلاح في الإسلام. القاهرة، دار المعارف، ١٩٥١م؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٣٠٩-٣١٠.

١٠٢. علي إبراهيم عبده: المنافسة الدولية في أعالي النيل ١٨٨٠-١٩٠٦. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٨م، ص ص (أ - د)؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ص ٤٣٧-٤٤٠.

١٠٣. أبو الفتوح رضوان: تاريخ مطبعة بولاق ولمحة من تاريخ الطباعة في بلدان الشرق الأوسط. القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٥٣م، ص ص (ج - هـ)؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ص ٣٢٣-٣٢٥.

١٠٤. فردريش شلر: ما المراد بتاريخ العالم. ترجمة: حسين مؤنس. المجلة التاريخية المصرية. مج ٢ - ج ٢، أكتوبر ١٩٤٩م، ص ص ١٧١-١٨٧. [تقديم شفيق غربال ص ص ١٧١-١٧٢]؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٩٢-٩٣.

١٠٥. كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول: رحلة كلية الآداب إلى ساحل البحر الأحمر وبعض مناطق الآثار بالصعيد دراسات جغرافية تاريخية لبعض أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب. القاهرة، مطبعة الاعتماد، ١٩٣٩م، ص ١؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ٥٨٧ تحت عنوان: إهداء.

١٠٦. لتن ستريتشي: الملكة فكتوريا. تعريب: وديع الضبع. القاهرة، دار المعارف، ١٩٥١م، ص ص (ز-ط)؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٣٢٤-٣٢٦.
١٠٧. محمد خلف الله أحمد: معالم التطور الحديث في اللغة العربية وآدابها ١- مصر في القرن التاسع عشر. القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦١م؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٥٧٥.
١٠٨. محمد خير فارس: المسألة المغربية ١٩٠٠-١٩١٢م. القاهرة، معهد الدراسات العربية بجامعة الدول العربية، ١٩٦١م، ص ص (هـ-و)؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٤٦٦-٤٦٧.
١٠٩. محمود محمد السروجي: العلاقات بين مصر وأثيوبيا في القرن التاسع عشر. الإسكندرية، مطبعة المصري، ١٩٦١م، ص ص ٣-٥.
١١٠. نخبة من العلماء: تاريخ الحضارة المصرية العصر الفرعوني. المجلد الأول، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢م، ص ص ١-٢؛ وأعيد طبعها بالقاهرة سنة ١٩٦٦ و١٩٧٦م؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ١٧٥-١٧٨.
١١١. نسيم مقار: البكباشي المصري سليم قبطان والكشف عن منابع النيل. القاهرة، مطبعة لجنة البيان العربي، سنة ١٩٦٠م، ص ص (ج-د)؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ص ٣٧١-٣٧٢.
١١٢. هـ.أ.ل. فشر: تاريخ أوروبا في العصر الحديث. تعريب: أحمد نجيب هاشم، ووديع الضبع. القاهرة، دار المعارف، ١٩٤٨م؛ ١٩٥٣م؛ ١٩٥٨م؛ ١٩٦٤م؛ ١٩٧٢م؛ ١٩٨٥م؛ ١٩٩٥م، ص ص (ج-هـ)؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٣٢١-٣٢٣.
١١٣. هـ.أ.ل. فشر: تاريخ أوروبا في العصور القديمة. نقله إلى العربية ووضع حواشيه: إبراهيم نصحي، و محمد عواد حسين. القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٠م، ص ص ٦٥؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ١٨١-١٨٣.
١١٤. هـ.أ.ل. فشر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. نقله إلى العربية: محمد مصطفى زيادة،

والسيد الباز العربي. القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٠م؛ ١٩٥٤م؛ ١٩٥٧م؛ ١٩٦٦م؛ ١٩٧٤م. ص ص (جـ د)؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٢٣٠-٢٣٢.

١١٥. وزارة المعارف العمومية: متحف الحضارة المصرية. القاهرة، ١٩٤٩م؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٥٥١-٥٥٣ تحت عنوان: مرحلة التنفيذ في مشروع متحف الحضارة المصرية.

Grohmann: Royal Society-From the world of Arabic papyri. Cairo, Al-Maaref. ١١٦. Press, 1952, p.3

وترجمة المقدمة إلى العربية ضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٨٥ تحت عنوان: جروهمان والبرديات العربية.

خامساً- الحلقات النقاشية:

١١٧. هل أخفق التعليم الجامعي؟ [بالاشتراك مع: أسماء فهمي، ومحمد رفعت، وأحمد عبد السلام الكرداني]. مجلة الهلال. السنة ٥٥-ج١٠، أكتوبر ١٩٤٧م، ص ص ٧٨-٨٣؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٥١٧-٥٢٤.

سادساً- الحوارات الصحفية:

١١٨. [أتمنى أن أعيش في هذا العصر]. تحقيق صحفي للأستاذ صلاح المراكبي قام بتوجيه سؤال: «لولا لم توجد في هذا العصر في أي عصر كنت تتمنى أن تعيش» - بالإضافة إلى شفيق غربال - إلى كل من: سهير القلماوي، ومصطفى محمود، ونجيب محفوظ. مجلة الإذاعة. العدد ١٢٩٧، السبت ٢٣ يناير ١٩٦٠م، ص ص ١٠-١١؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج١ ص ص ٦٠.

١١٩. الإذاعة للجميع. مجلة الإثنين والدنيا. العدد ١٠٣٧، ٢٦ إبريل ١٩٥٤م، ص ص ٢٠؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٥٨٨.

١٢٠. حوار في الكتابة التاريخية، حوار أجراه: عبد التواب عبد الحى مع المؤرخ شفيق غربال. مجلة الإذاعة. العدد ١١٩٢، السبت ١٨ يناير ١٩٥٨م، ص ص ١٣-١٤ و٢٧. وقد أعاد الأستاذ عبد

التواب نشر الحوار في كتابه: «عصير حياتي»، والذي نشرته الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦٦م، ويقع الحوار بالكتاب في الصفحات ١٥٤ - ١٥٩؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ١٥٠-١٥٤.

١٢١. دفاع عن المدرسين. [ضمن التحقيق الصحفي: «هل هي ظاهرة، الإذاعة تناقش جرائم الطلبة»]. مجلة الإذاعة. العدد ١١٦٤، السبت ٦ يوليو ١٩٥٧م، ص ص ١١؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٥٨٩.

١٢٢. سؤالان قبل النشر. [ضمن التحقيق الصحفي: فضيحة ملك.. كبار المؤرخين، والأدباء يبدون رأيهم]. مجلة الإذاعة. العدد ١٢٥٢، السبت ١٤ مارس ١٩٥٩م، ص ص ١٦-١٧؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٥٩٠.

١٢٣. هل عندنا قراء جادون؟ [إجابة عن سؤال صحفي]. مجلة الإذاعة. العدد ١٢٩٢، السبت ١٩ ديسمبر ١٩٥٩م، ص ص ١٤-١٥؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٥٩١.

سابعاً - الترجمات:

١٢٤. بيكر، كارل لوتس: المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن الثامن عشر. ترجمة: محمد شفيق غربال. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١، ١٩٥٥م؛ ط ٢، ١٩٥٨م؛ ط ٣، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥م؛ وأعيد نشر مقدمة الترجمة لهذا الكتاب ضمن: تراث محمد شفيق غربال ج ٢ ص ص ١١٣-١٤٥ تحت عنوان: المؤرخ كارل بيكر وكتابه «المدينة الفاضلة».

١٢٥. كولنجوود: تعليق على مقالة كنت حول التاريخ العام بالمعنى العالمي. [تلخيص وترجمة]. المجلة التاريخية المصرية. مج ١، ع ٢-١، مايو وأكتوبر ١٩٤٨م، ص ص ١٧٤-١٧٨؛ وضمن: تراث محمد شفيق غربال ج٢ ص ص ٩١-٨٦.

ثامناً - التحرير:

١٢٦. الموسوعة العربية الميسرة. ٢ مجلد. القاهرة، مؤسسة فرانكلين، ودار القلم، ١٩٦٥م؛

القاهرة، دار الشعب، ١٩٨٧م؛ [وطبعات أخرى ببلبنان منها: دار التراث العربي، ١٩٨٧م؛ دار النهضة، ١٩٨٠م؛ دار نهضة لبنان، ١٩٨٨م؛ دار العلم للملايين، ١٩٩٠م؛ دار الجيل، ١٩٩٥ و ٢٠٠١م؛ المكتبة العصرية، ٢٠١٠م].

PROCEEDINGS. Editory: Mohamed Shafic Ghorbal and Abdel Rahman ١٢٧
Zaky. 2 vols. Cairo, Almaaref press, 1952- 1953

تاسعًا - المراجعات:

١٢٨. إبراهيم نمير سيف الدين، وزكي علي، وأحمد نجيب هاشم: مصر في العصور القديمة. القاهرة، مطبعة المعارف، ١٩٣٩م؛ ١٩٤٠م؛ ١٩٤٣م؛ ١٩٤٨م؛ ١٩٥٢م؛ ١٩٥٤؛ ١٩٦٠م؛ القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩١م؛ ١٩٩٨م.

١٢٩. أرنولد توينبي: مختصر دراسة التاريخ. ترجمة: فؤاد محمد شبل. مراجعة: محمد شفيق غربال، وأحمد عزت عبد الكريم. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط١، ١٩٦٠-١٩٦٥م؛ ط٢، ١٩٦٧م؛ وتقديم: عبادة كحيل. القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١١م.

١٣٠. الإصطخري: المسالك والممالك. تحقيق: محمد جابر عبد العال الحيني. مراجعة: محمد شفيق غربال. القاهرة، دار القلم، ١٩٦١م؛ تقديم: عبد العال عبد المنعم الشامي. القاهرة، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٤م.

١٣١. إيتين دريوتون، وجاك فاندييه: مصر. ترجمة: عباس بيوي. مراجعة: محمد شفيق غربال، وعبد الحميد الدواخلي. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٠م.

١٣٢. جون لويس بوركهارت: رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان. ترجمة: فؤاد أندراوس. تقديم: محمد محمود الصياد. حقق أعلامه: الشاطر بصيلي. إشراف: محمد شفيق غربال. القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٥٩ و ١٩٧٠ و ١٩٨٨م؛ القاهرة، المشروع القومي للترجمة (١٠٤٤)، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٧م.

١٣٣. علي الجرتلي: تاريخ الصناعة في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر. القاهرة،

دار المعارف، ١٩٥٢م.

١٣٤. الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق: تاريخ الفارقي. تحقيق: بدوي عبد اللطيف عوض. مراجعة: محمد شفيق غربال. القاهرة، وزارة الثقافة - الإدارة العامة للثقافة، ١٩٥٩.

١٣٥. محمد بديع شريف، وزكي المحاسني، وأحمد عزت عبد الكريم: دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة. مراجعة: محمد شفيق غربال. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨م.

١٣٦. محمود الخفيف: فصل في تاريخ الثورة العربية لتلاميذ السنة الرابعة الثانوية. القاهرة، وزارة المعارف العمومية، المطبعة الأميرية، ١٩٥٣م.

١٣٧. وليم شكسبير: تاجر البندقية. ترجمة: مختار الوكيل، مراجعة: محمد شفيق غربال، ومحمد بدران. القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٣م.

١٣٨. وليم شكسبير: ترويض الشرسة. ترجمة: سهير القلماوي. مراجعة: محمد شفيق غربال، ومحمد بدران. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٦٠م؛ ط٢، ١٩٦٨م؛ ط٣، ١٩٩٤م؛ ط٤، ٢٠٠٥م.

١٣٩. وليم شكسبير: حلم ليلة صيف. ترجمة: حسن محمود، مراجعة: محمد شفيق غربال، ومحمد بدران. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٦٠م؛ ط٢، ١٩٦٨م؛ ط٣، ١٩٩٤م؛ ط٤، ٢٠٠٥م.

١٤٠. وليم شكسبير: خاب سعي العشاق. ترجمة: لويس عوض، مراجعة: محمد شفيق غربال، ومحمد بدران. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٥٦م؛ ط٢، ١٩٦٠م؛ ط٣، ١٩٩٣م.

١٤١. وليم شكسبير: دقة بدقة. ترجمة وتقديم: إبراهيم زكي خورشيد. مراجعة: محمد شفيق غربال، ومحمد بدران. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٦٨م؛ ط٢، ١٩٨٣م؛ ط٣، ١٩٩٣م.

١٤٢. وليم شكسبير: ضجة فارغة. ترجمة: عباس حافظ. مراجعة: محمد بدران، ومحمد شفيق غربال. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٦٨م؛ ط٢، ١٩٩٣م.

١٤٣. وليم شكسبير: العبرة بالخواتيم. ترجمة وتقديم: عباس حافظ، مراجعة: محمد شفيق غربال، ومحمد بدران. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٦٨م؛ ط٢، ١٩٨٣م؛ ط٣، ١٩٩٣م.

١٤٤. وليم شكسبير: الملك جون. ترجمة: محمد عوض محمد، مراجعة: محمد شفيق غربال، ومحمد بدران. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٦٠م؛ ط٢، ١٩٦٨م؛ ط٣، ١٩٩٣م.

١٤٥. وليم شكسبير: الملك هنري الرابع. ترجمة: مصطفى طه حبيب، مراجعة: محمد شفيق غربال، ومحمد بدران. ج٢ في مج. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٦٦م؛ ط٢، ١٩٩٣م.

١٤٦. وليم شكسبير: الملك هنري الخامس. ترجمة: محمد عوض محمد، مراجعة: محمد شفيق غربال، ومحمد بدران. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٦٨م؛ ط٢، ١٩٩٣م.

١٤٧. وليم شكسبير: الملك هنري السادس. ج٣. ترجمة: محمد بدران، مراجعة: محمد شفيق غربال. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٥٩م؛ ط٢، ١٩٦٩م؛ ط٣، ١٩٩٣م.

عاشراً - الإشراف على الرسائل العلمية:

١٤٨. إبراهيم عبده: تاريخ الصحافة المصرية ١٧٩٨-١٨٨٢م. رسالة ماجستير. كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول [القاهرة]، ١٩٤٠م.

١٤٩. أحمد أحمد الحتة: تطور الزراعة المصرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر. رسالة دكتوراه. كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول [القاهرة]، ١٩٤٦م.

١٥٠. أحمد أحمد الحتة: الفلاح المصري في عهد محمد علي. رسالة ماجستير. كلية الآداب - الجامعة المصرية [القاهرة]، ١٩٣٤م.

١٥١. أحمد سعد الدين طربين: الوحدة العربية بين فكرة إنشاء الدولة العربية الموحدة ونظام جامعة الدول العربية. بحث في آثار الاتجاهات السياسية العربية والدولية فيما بين (١٩١٩-١٩٤٥م). رسالة ماجستير. معهد البحوث والدراسات العربية - جامعة الدول العربية، ١٩٥٧م.

١٥٢. أحمد عبد الرحيم مصطفى: الخديوي إسماعيل وعلاقاته بالباب العالي. رسالة ماجستير. [إشراف مشترك مع أحمد عزت عبد الكريم]. كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول [القاهرة]،

١٥٣. أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم في عصر محمد علي. رسالة ماجستير. كلية الآداب - الجامعة المصرية [القاهرة]، ١٩٣٦م.
١٥٤. أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم منذ أواخر عصر محمد علي إلى أوائل حكم توفيق. رسالة دكتوراه. كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول [القاهرة]، ١٩٤١م.
١٥٥. أمين مصطفى عفيفي: استقرار الملكية الفردية للأراضي الزراعية في مصر. رسالة ماجستير. كلية الآداب - الجامعة المصرية [القاهرة]، ١٩٣٦م.
١٥٦. أمين مصطفى عفيفي: تجارة مصر في عهد محمد علي. رسالة دكتوراه. كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول [القاهرة]، ١٩٤٦م.
١٥٧. توفيق علي برو: العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨-١٩١٤م. رسالة ماجستير. معهد البحوث والدراسات العربية - جامعة الدول العربية، ١٩٦٠م.
١٥٨. حسن عثمان: فخر الدين بن معن الثاني أمير لبنان. رسالة ماجستير. كلية الآداب - الجامعة المصرية [القاهرة]، ١٩٣٤م.
١٥٩. الحسيني منيسي علي كف: رفاة رافع الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣م). رسالة ماجستير. كلية الآداب - جامعة القاهرة، ١٩٥٣م.
١٦٠. السيد جمال مصطفى سالم: اليمن في عهد الإمام يحيى حميد الدين (١٩٠٤-١٩٤٨م). رسالة ماجستير. معهد البحوث والدراسات العربية - جامعة الدول العربية، ١٩٦١م.
١٦١. شوقي عطا الله الجمل: سياسة مصر في البحر الأحمر في السنوات (١٨٦٣-١٨٧٩م). رسالة دكتوراه. كلية الآداب - جامعة القاهرة، ١٩٥٨م.
١٦٢. شوقي عطا الله الجمل: هزرت تحت الحكم المصري. رسالة ماجستير. كلية الآداب - جامعة القاهرة، ١٩٥٤م.
١٦٣. عبد الحميد محمد البطريق: الحكم المصري في بلاد العرب. رسالة ماجستير. كلية الآداب

- جامعة فؤاد الأول [القاهرة]، ١٩٤٣م.

١٦٤. عبد العزيز أمين عبد المجيد: التربية في السودان من القرن السادس عشر إلى أواخر القرن التاسع عشر والأسس النفسية والاجتماعية التي قامت عليها. رسالة دكتوراه. كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول [القاهرة]، ١٩٤٦م.

١٦٥. عبد العزيز محمد إبراهيم الشناوي: السخرة في حفرة قناة السويس. رسالة ماجستير. كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول [القاهرة]، ١٩٤٨م.

١٦٦. عبد العزيز يوسف رفاعي: تطور النظام النيابي في مصر الحديثة قبيل الثورة العربية. رسالة ماجستير. كلية الآداب - جامعة القاهرة، ١٩٥٤م.

١٦٧. علي إبراهيم عبده: المنافسة الدولية في أعالي النيل ١٨٨٠-١٩٠٦م. رسالة دكتوراه. كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، ١٩٥٧م.

١٦٨. عياد حنين دوس: الفتح المصري للسودان في عهد محمد علي. رسالة ماجستير. كلية الآداب - الجامعة المصرية [القاهرة]، ١٩٣٩م.

١٦٩. فائق حليم جيرة: ضرائب الأتبان المصرية في عصر محمد علي. رسالة ماجستير. كلية الآداب - جامعة القاهرة، ١٩٥٤م.

١٧٠. أبو الفتوح أحمد رضوان: تاريخ مطبعة بولاق. رسالة ماجستير. كلية الآداب - الجامعة المصرية [القاهرة]، ١٩٣٦م.

١٧١. محمد خير فارس خيرو: المسألة المغربية (١٩٠٠-١٩١٤م). رسالة ماجستير. معهد البحوث والدراسات العربية - جامعة الدول العربية، ١٩٦٠م.

١٧٢. محمد رفعت رمضان: ثورة علي بك الكبير (١٧٦٨-١٧٧٢م). رسالة ماجستير. كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول [القاهرة]، ١٩٤٥م.

١٧٣. محمد رفعت رمضان: مصر والدولة العثمانية دراسة تاريخية للعلاقات السياسية بين

- الطرفين من ١٨٤٠ إلى ١٨٦٣ م. رسالة دكتوراه. كلية الآداب - جامعة القاهرة، ١٩٥٥ م.
١٧٤. محمد عبد اللطيف الدسوقي البحراوي: الشرق الأدنى تحت حكم العثمانيين - فتح العثمانيين عدن. رسالة ماجستير. كلية الآداب - جامعة القاهرة، ١٩٥٤ م.
١٧٥. محمد كامل الرحمانى: وقائع الثورة المهدية أو التاريخ الحربي للحركة المهدية. رسالة دكتوراه. كلية الآداب - جامعة القاهرة، ١٩٥٨ م.
١٧٦. محمد محمد توفيق: مصطلح وثائق تاريخ الحكم العثماني في مصر. رسالة ماجستير. كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول [القاهرة]، ١٩٤٣ م.
١٧٧. نسيم إستاورو مقار قرياقوس: أحوال السودان الاقتصادية قبيل الفتح المصري الأول ١٨٢٠-١٨٢٤ م. رسالة ماجستير. كلية الآداب - جامعة القاهرة، ١٩٥٦ م.
١٧٨. نصيف يوسف صليب: تاريخ العلاقات السياسية بين مصر وأثيوبيا وأثرها على السودان الشرقي في الفترة ما بين ١٨٦٣-١٨٧٩ م. رسالة دكتوراه. [إشراف مشترك مع محمد فؤاد شكري] كلية الآداب - جامعة القاهرة، ١٩٦٠ م.



مُحَمَّد شَفِيقُ غُرْبَالٍ

أُسْتَاذُ جِيلٍ وَصَاحِبُ مَدْرَسَةٍ^(١)

أ.د. أحمد عزت عبد الكريم
(١٩٠٩-١٩٨٠م)

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - جامعة عين شمس
ورئيس مجلس إدارة الجمعية التاريخية الأسبق
رحمه الله

(١) محاضرة أُلقيت في الجمعية التاريخية في الموسم الثقافي ١٩٧١-١٩٧٢ م .

كانت مهنة التعليم العمل الذي راق لشفيق غربال ، جعل منه رسالة حياته منذ التحق بمدرسة المعلمين العليا في سنة ١٩٢٢. لم يصرفه بعد تخرجه فيها عن مهنة التعليم عمل آخر أو منصب من تلك المناصب الكبيرة التي وليها بعد انتقاله من الجامعة مستشاراً للمعارف أو وكيلاً لوزارة الشؤون الاجتماعية، فقد ظل على صلة بتلاميذه يعلمهم ويركيزهم ويأخذ بأيديهم في طريق العلم والمعرفة. سأله يوماً أحد (المتحذلقين) من الأجانب عن آخر مؤلفاته، وكان في مجلس العلم من تلاميذه، فأشار إليهم قائلاً: « هؤلاء هم كُتبي »: وما أكثر ما عَمِل شفيق غربال في تكوين شخصية المشتغلين بالدراسات الإنسانية في جيلنا المعاصر، وعن طريق هذا الجيل سينفذ أثر شفيق غربال إلى الأجيال القادمة.

أجل . لم تكن مؤلفات شفيق غربال ومُصَنَّفاته هي وحدها ما أنتج ولكن كان منها - بل لعل أهمها - تلاميذه الذين تشرَّبوا ما استطاعوا روحه وحاولوا جهدهم أن يرتفعوا إلى مستوى فكرة ليلحقوا به ويفهموا عنه، وينشروا بين الدارسين ثمرات فكره ونبضات عقله، فكان بحق أستاذ جيل وصاحب مدرسة فكرية، لها في دنيا البحث التاريخي قَسَمَاتُها ومميزاتها.

وكم من مُريدٍ حاول (الالتحاق) بهذه المدرسة فلم تؤهله لذلك قدراته العقلية أو صفاته الخلقية فالتوى به القصد وَوَقَّف دون إكمال الطريق.

وكان لشفيق غربال صاحب المدرسة الفكرية من مواهب: حُبُّ عَجيب للاطلاع يكاد ينتظم أكثر فروع المعرفة الإنسانية ، بعضه تخصص له حتى أصبح فيه علماً ، وبعضها أَلَمَّ به إلمام العارف الخبير . وهذا الشمول في المعرفة الإنسانية مَكَّنَ غربال من القُدْرَة على توجيه تلاميذه وإفادتهم ما يكادون يعرضون عليه أمراً من الأمور استشكل عليهم حتى يجدوا عنده الرأي الناضج والتوجيه السديد، يجري في ذلك كله في لطف وأناة، كما يجري الجدول الصافي دون ضجة أو صخب أو افتعال أو تعال.

وقد يغيب عنه الرأي أو يفوته التفصيل فيقوم إلى مراجعته ومظانه ويعكف مع تلاميذه على البحوث والمراجعة حتى ينتهي إلى ما يطلبون.

ولم يكن غربال يَظن على أحد بما يعلمه ، لم يصد عن بابيه طالب علم، وإنما كان يمنحهم من ذات عقله ما يُنير لهم السبيل . ودان الجميع له بهذه الزعامة الفكرية، التي أهلت شفيق غربال ليكون صاحب مدرسة في التاريخ ودفعت تلاميذه إلى السعي للحاق به والسَّمو إلى قُرب قمته وسبيلهم إلى ذلك الحرص على الإجابة في كل ما يأخذون به أنفسهم من علم أو عمل، فيكفي أن يعرفوا أن (عين) شفيق غربال عليهم حتى يتوخوا الدقة ويتسابقوا إلى الإجابة. وهكذا كان وجود شفيق غربال في حد ذاته عاصماً لتلاميذه من التهافت أو لغو البحث .

وكل ما نرجوه أن يظل تلاميذه وتلاميذ تلاميذه من بعده حريصين على المستوى الذي اعتاده رائدهم ومُربيهم. وهكذا يؤدي أستاذ الجيل وصاحب المدرسة رسالته في حياته وبعد مماته.

وكان شفيق غربال بهذا شديد التأثير على تلاميذه، قد تكفي منه عبارة أو إشارة إلى أحد تلاميذه حين كان يراجع معه بعض أعماله لفتح هذه العبارة أو الإشارة أمام التلميذ آفاقاً واسعة للبحث أو ثلهم أفكاراً جديدة لم يتَّجه إليها تفكيره من قبل.

وهذا التأثير العلمي امتد إلى التأثير الخُلقي والمزاج أيضاً. فقد كان كل من تلاميذه يحرص على أن يكون في نفسه (بعض) من شفيق غربال أو قبس منه . لم يكن هذا التأثير أو هذا التأثير قصداً من الأستاذ، فقد لا تجد أشد من شفيق غربال نفوراً من سياسة (صب القوالب) والتعصب والتقليد. كان شفيق غربال يؤمن إيماناً صادقاً بحرية الفكر وبالفروق بين الأفراد وبما في اختلاف الأمزجة والطباع وتعدد مناهل الفكر والثقافة من ثروة للإنسانية عامة.

لهذا لم يكن غربال صورة لأحد من أساتذته؛ وقد قيل الشيء الكثير عن تأثيره بأستاذه المؤرخ الإنجليزي الكبير « أرنولد توينبي » الذي أشرف على دراسته العليا بإنجلترا في صدر شبابه وظل متصلاً به حتى وفاته. ولكن شفيق غربال - على احترامه العميق وحبه الشديد لأستاذه لم يذهب في تفسير التاريخ أو كتابته مذهبه، وإن تأثر باتجاهه الحضاري والإنساني ومنهجه في البحث، وهكذا أراد غربال لتلاميذه ألا يكونوا صوراً منه.

كان غربال يستمع إليهم ويحترم آراءهم، رضي عنها أو لم يرض، يعرف في كل منهم قدراته

فيوجهه نحو تنمية ملكاته وتذكية خصائصه، وقد يعرف عيوبه فلا يبخل في النصح ولكنه لا يطلب الكمال. بل لقد بلغ من شدة احترامه للرأي أنه كان ينتهي من كتابة المقال أو الحديث فلا يدفعه إلى النشر إلا بعد أن يقرأه على بعض طلابه ويستمع إلى رأيهم وكثيراً ما أخذ به.

كان شفيق غربال يفعل ذلك على شدة اعتداده بنفسه وثقته في قدراته العقلية، اعتداداً وثقة ربما ظنهما بعض الناس كبراً، وما هو من الكبر في شيء، ولكنه الإباء ورفع النفس والأثقة والترفع عن الصغار، امتزج هذا كله في شفيق غربال بالصدق والوفاء والتبذل والسماحة والمروءة وريقة الحس ولطف الذوق ونفوذ البصيرة، امتزجت جميعها على نحو لا نكاد نجده إلا في القليل من الناس.

وليس من شك أن لون الدراسة الذي اختاره شفيق غربال لنفسه كان أحد العوامل الرئيسية المؤثرة في شخصيته. لقد اختار غربال الدراسات الإنسانية، والتاريخ منها بصفة خاصة، لتكون محور حياته العقلية.

آمن شفيق غربال بالإنسان إيماناً شديداً. آمن بقدراته ونقائصه، آمن بقيمة الإنسان وقدرته على التغيير في مصير عصره وأمته، وآمن بضرورة الحرية للإنسان في نفسه وفي علاقته بغيره حرية لا يجد منها إلا حرية الآخرين. ومن هنا كان احتفال شفيق غربال بالدراسات الإنسانية واتجاهه إليها منذ صدر شبابه.

فإنَّه أول ما أنجَّه إلى قراءة السَّير، ولقد ذكر لي يوماً أنه قرأ - وهو لا يزال بعد في المدرسة الثانوية أو التجهيزية كما كانت تدعى في تلك الأيام - كتاب «وفيات الأعيان لابن خلكان» وغيره من كتب السَّير والتاريخ، وهي كتب لا تزال (مُحرَّض) طلابنا في الجامعة على النظر فيها فلا نكاد نبليغ من ذلك شيئاً.

ثم أتمَّ دراسته الثانوية وأراد له أهله أن يتَّجه إلى دراسة الحقوق كما فعل أخوه الأكبر أو إلى الهندسة أو الطب، ولكن شغفه بالدراسات الإنسانية دفعه إلى مدرسة المعلمين العليا أو المعلمين الخديوية كما كانت تُدعى في تلك الأيام، وكان أساس اختياره أن هذه المدرسة - كما

قال في بعض ما كتب: «كانت مع التزامها بإعداد المعلمين في أضيق الحدود، المعهد الوحيد في مصر إذ ذاك الذي يصلني بالدراسات الإنسانية، وتم لي أن مكنتني المدرسة من متابعة تلك الدراسات على نطاق أوسع في المعاهد الخارجية وتهيأ لي ذلك الإطار الذي أعمل فيه مواطناً مصرياً وإنساناً جاداً في أن يجعل حياته جديرة أن يحياها»^(١).

المواطن والإنسان: هذا ما أراد شفيق غربال أن يكونهما، وقد كوَّنَهُمَا بحق، ولكنه لم يكنهما عاطفة وعشقاً فحسب، وإنما سعى إلى دعم هذه العاطفة وهذا العشق وتنميتها بالدراسة العلمية الجادة، وليس أعظم من (التاريخ) درساً وتأليفاً وقُدرة على تنمية العاطفة الوطنية والإنسانية.

دَرَسَ غربال التاريخ وغيره من فروع الدراسات الإنسانية في مدرسة المعلمين ثم أكمل دراسته العليا بحصوله على درجة الماجستير في التاريخ من جامعة لندن، ثم عاد شفيق غربال إلى وطنه لتدريس التاريخ في مدرسة رأس التين الثانوية، ثم مدرسة المعلمين العليا.

ثم كانت النقلة الكبرى، في حياته العلمية حين عُيِّنَ أستاذاً مساعداً للتاريخ الحديث بكلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) في أكتوبر ١٩٢٩ ثم أصبح بعد بضع سنوات أوَّل أستاذ مصري للتاريخ الحديث بالجامعة.

وقد فتحت أمامه هذه النقلة أبواب البحث العلمي على مصراعها، وخاصة بعد إنشاء الدراسات العليا للماجستير والدكتوراه بالجامعة. وكانت شهرته العلمية والخلقية قد سبقته إلى الجامعة وطلابها قبل أن ينقل إليها، وكنا جميعاً نحسد طلاب المعلمين العليا على أستاذهم الشاب النابه فلما انتقل إلى الجامعة أقبلنا عليه وأقبل علينا، وبدأت تتكون هذه المدرسة التاريخية التي ظلت موجاتها وإشعاعاتها تعمل إما عن طريقه مباشرة أو عن طريق تلاميذه، فكان بحق أحد أساتذة الجامعة القلائل الذين كونوا لهم مدارس فكرية تقوم على التعلق العلمي

(١) من مقال للأستاذ شفيق غربال بعنوان: «الحياة جديرة بأن نحياها» في كتاب «علمتني الحياة» الطبعة الثانية. القاهرة ١٩٥٨ من منشورات مؤسسة فرانكلين بالاشتراك مع دار الهلال.

والخلفي للتلاميذ بأستاذهم ومربيهم ورائدهم تعلقاً قد يصل إلى حد (الهيام الصوفي) .
ويكفي أن نذكر أن شفيق غربال لم يكف عن التدريس والاجتماع بطلابه في الجامعة أو
معهد الدراسات العربية منذ تعيينه في الجامعة في ١٩٢٩ قبيل وفااته في أكتوبر ١٩٦١ لم يصرفه
عن ذلك أي عمل إداري تولاه في الجامعة أو خارج الجامعة.

ولن أتبع في هذه الكلمة ما كتبه شفيق غربال أو ألفه، فإني تارك هذه المهمة لإخواني المشتركين
في هذه الندوة ولكني أحب أن أشير هنا إلى أن مؤلفات شفيق غربال ليست كل ما كتب .

وإني لأنتهز هذه الفرصة لأدعو تلاميذ شفيق غربال إلى أن ينهضوا ليجمعوا المقالات
المتفرقة التي نشرها في كثير من المجلات والمحاضرات التي ألقاها في معاهد العلم وفي
الإذاعة وفي الهيئات العلمية التي أسهم في عضويتها : الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ،
والمجمع العلمي ، ومجمع اللغة العربية ، ومعهد الدراسات العربية ، إلى جانب المقدمات التي
وضّعها لكتب تلاميذه مؤلفة أو مترجمة ، ويوم أن تجمع هذه المتفرقات سيعرف الناس أي رجل
كان شفيق غربال الباحث المؤرخ أستاذ الجيل وصاحب المدرسة التاريخية الحديثة في مصر
والعالم العربي.

ولقد كان تلاميذ غربال وأصدقاؤه يُشْفِقُونَ عليه من الجهد المضني الذي كان يبذله في هذه
الهيئات العلمية جميعاً، تدرّساً وبحثاً وقراءة وكتابة ومراجعة، كان تلاميذ غربال وأصدقاؤه لا
يروونه، وخاصة بعد أن حرمه القدر شريكة حياته يوم انتهت خدمته الحكومية عام ١٩٥٤ إلا
منكباً على الدرس والقراءة في حديقة منزله الجميلة أو في مكتبته العامرة أو في دار من تلك
الدور العلمية التي كان يتردد عليها، يفعل ذلك في ثقة وصفاء ونفس وسماحة وإقبال على الحياة
وإيمان بها عبر عنها بقوله : « إنني منذ وعيت ، ومنذ أخذت أنظر في نفسي وفي ما حولي، ومنذ
حاولت الوقوف على أسرار الأصول والمصادر وجاهدت لأقيّم أفعالي على أساس من المعقولة
وأوجهها إلى غايات مفهومة أيقنت أن الحياة تستحق أن أحيها وأن نظرتي هذه إليها خليفة بأن
تكون سلوكي في فترة العمر وأن تُنظّم على أساسها العلاقة بيني وبين الناس » .

حقاً.. لقد عاش شفيق غربال حياته « على أساس من المعقولية » مستهدفاً غايات مفهومة، هذه هي الحياة التي عاشها شفيق غربال بقلبه وعقله مُقبلاً عليها مُقدِّراً مُتعتها ، صابراً على شدَّتها، لم يعيش غربال حياته لنفسه وحدها ولا لأسرته وحدها، ولكنه عاشها لأسرة كبيرة قد يكون منها من لم يره غربال أو من لم ير غربال في حياته ولكنه تتلمذ عليه دُونَ أن يراه، فتأثَّر به وتعلَّق به، هي أسرة الدراسات الإنسانية عامة، والتاريخ خاصة، في مصر والعالم العربي الكبير.

١٩٧١/١٢/٦ م



شَفِيقُ غُرْبَالٍ مُؤَرِّخًا^(١)

أ.د أحمد عبد الرحيم مصطفى

(١٩٢٥ - ٢٠٠٢م)

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

بجامعة عين شمس

(رحمه الله)

(١) محاضرة أُلقيت في الجمعية المصرية للدراسات التاريخية في ١٢/٣/١٩٦٢.

يمثل محمد شفيق غربال طرازًا قائمًا بذاته في قائمة من تصدوا للكتابة التاريخية في مصر، وربما العالم العربي بأسره، وهو ينتمي إلى جيل بذاته، له سماته الخاصة ونظرتة الخاصة إلى العلم والمعرفة؛ وهو الجيل العملاق الذي أسهم في إعادة تشكيل الحياة الفكرية في مصر حين نقل إليها طرائق البحث العلمي التي عرفها العالم الغربي المتطور، وتمثلها وهضمها ثم عاد ينتهجها في تناول التراث العربي الإسلامي. وبعد :

فغربال تلميذ «أرنولد توينبي» الذي بدأ مؤرخًا بالمعنى الحرفي للكلمة لينتهي مؤرخًا للحضارة ومفلسًا لها. وأهميته في حركة التفكير التاريخي في مصر أنه يمثل نقله لها وزنها، وأنه ترك انطباعات حية في تفكير ونهج من تتلمذوا عليه... وهي انطباعات اختلفت قوة وضعفًا باختلاف المدارك والآفاق..

فغربال في حد ذاته يمثل ثورة في المنهج التاريخي في المشرق العربي؛ فهو يتميز - وفقًا لما قاله عنه الدكتور منصور فهمي - بذهن ذكي غني بشتى المعلومات، وقدرة على التركيز والتلخيص وعلى التركيب والتحليل.... إلى جنوح للتعميق المتوغل إلى واقعية ساطعة ودقة في النقد. وليس ذلك بغريب على من يرى أن المؤرخ المبدع لا بد أن «يجمع إلى الدراية التامة بأصول النقد براعة الفنان المتمكن من الحذف والإثبات، وأن يكون ناقدًا فنانًا يقهر المادة الغفل ليستخرج منها التاريخ الحي»^(١).

وهو بعيد كل البعد عن المنهج الكلاسيكي الذي درج عليه كتاب السيرة والتواريخ والمغازي والخطط والآثار والتراجم في العالم الإسلامي: سند دراساته بتفهمه لطبيعة علمه ومدارسه في الشرق والغرب، وطعمه بشيء من التذوق الأدبي - الفني، مع توسيع لقاعدة المعرفة التاريخية بالأدب والفلسفة وعلوم النفس والاجتماع. وهنا يصدق عليه ما دعا إليه بعض المفكرين الأوروبيين في القرن التاسع عشر من المهتمين بتاريخ الحضارة Kulturgeschichte من حيث جعل التاريخ محورًا للدراسات الإنسانية قاطبة.

(١) في تقديمه للجزء الأول من ترجمة هيربرت فشر عن «تاريخ أوروبا»..

ولقد عاش غربال ومات مؤرخًا. حقيقة لقد تعرض لما تعرض له أمثاله من مناصب قيادية تسعى إليه ولا يسعى إليها. ولكنه كان يأخذ ذلك بشيء من الرفق، ولم ينس أو يتناس جذوة المؤرخ الكامنة فيه. كما لم يشغله شيء عن قراءاته الشاسعة في كل مجال، وهي القراءات التي مكنته من القدرة على الإفادة وأضفت عليه وضعه البارز ليس فقط في حقل الدراسات التاريخية وحدها، بل في حقل المعرفة بمعناها الواسع، وحتى في حقل تخصصه، أو احترافه - عن شئنا الدقة - أي التاريخ، نجد غربال لا ينتمي لعصر أو تخصص معين، وإن لمع في مجالات التاريخ الحديث.

والآن نحاول أن نضع غربال في موضعه الحق في تاريخ الدراسات التاريخية في مصر. وهذا يستلزم منا مدخلًا إلى طبيعة التاريخ والمؤرخ وإلى طبيعة الفترة التاريخية التي عاش فيها غربال وأنجع.

كتب وليم ميتلاند (William Maitland) الذي كان أستاذًا للقوانين الإنجليزية: «إن وحدة التاريخ في مجموعته تدفع كل من يتصدي لكتابة ناحية من نواحيه إلى الشعور بأن جملته الأولى إنما تقطع خيوطًا غير منتظمة».

وضرب لذلك مثلاً بأن جذور القانون الإنجليزي تكمن في بلاد الإغريق وأن أصول القانون الروماني تكمن في بابل.

ثم حين قرّر وجوب تقطيع خيوط العنكبوت أضاف قائلاً: «وحين تقطع [هذه الخيوط]، علينا أن نلاحظ مصدر ومصير عدد من الخيوط المنفصلة المعقدة المتداخلة، وهي الخيوط التي كانت توفر نموذجًا كبيرًا جدًا بالنسبة إلى عين أي إنسان».

وليس أصدق من ذلك ولا أكثر حيوية في تجسيم طبيعة إحدى المشكلات الرئيسية التي تواجه المؤرخ. فهو - شأنه شأن عالم الطبيعة - تواجهه كمية ضخمة من الحقائق يطلق عليها في التاريخ اسم الوقائع. وسواء أكانت هذه الوقائع تتكشف من ثنايا عدد لا حصر له من الوثائق، أو ما إذا كانت بعيدة عن متناول التحقيق العلمي وسط ضباب العصور البدائية أو في ثنايا غيوم التآمر الحديث في المجالين السياسي والاقتصادي، فإننا - على كل حال - نجد نشاط المؤرخ وقد حدث منه غزارة مادته.

يضاف إلى ذلك أن المؤرخ يختلف عن عالم الطبيعة الذي بإمكانه أن يستعيد تجربته، فمن المستحيل استعادة الحادثة التاريخية . فنحن - مثلاً - لا نستطيع أن نستدعي الملك أحمس ليذكر لنا بنفسه كيف طرد الهكسوس. ولا نستطيع استعادة معركة ووترلو لكي نتبين أسباب انتصار ولنجتون وانهزام نابليون. ونتائج اكتشاف كولبس لأريكا بالنسبة إلى الحياة في أوروبا لا بد أنها كانت بعيدة عن مجال التحليل حتى في الوقت الذي كانت فيه أنباء هذا الاكتشاف أمراً جديداً. ويمكن القول إن المؤرخ الحديث الذي يجمع ما يستطيع جمعه من أنباء الماضي قد يعرف عن هذه الأنباء أكثر مما كان يعرفه معاصروها.

فمهمة المؤرخ إذن ليست بالمهمة الهينة . والذي يُفَرِّق مؤرخاً عن آخر أن أحدهما تتشعب به الدروب جرياً وراء السرد والتفاصيل التي تسيطر على المادة وبين آخر يجمع ما يمكنه جمعه من المادة، ثم يعيد صياغتها وفقاً لخطة مرنة تربط أطراف الموضوع بعضها ببعض، فيخرج في نهاية الأمر بوحدة عضوية مترابطة متفاعلة لا يبدها شيء من التكرار أو التفكك. والعبرة هنا بالكيف لا بالكم. وفرق بين المؤرخ الحقيقي وبين راوي الأحداث أو جامع المادة وناشرها. ونحن إنما نشكل جزءاً من الحضارة العربية التي نَسْتَلِمُ تراثها؛ كما أننا - من ناحية أخرى - ننتمي إلى المجتمع العالمي المتطور. والتأريخ عند العرب - مع بعض الاستثناءات الطفيفة - إنما هو عملية من السرد تمعن في التفاصيل ولا تدقق أو تحقق، بل تعتمد على الرواية والنقل والخيال في كثير من الأحيان.

والتاريخ حتى وقت قريب - وحتى الوقت الحاضر - إنما هو من ملحقات الأدب القائم على الخيال . ولقد أسرف الكثيرون في هذه الناحية ، بل امتد كثير من الأدباء إلى التاريخ وطَبَّقُوا عليه مناهجهم - إن كانت لهم مناهج - واختلط الأمر على الناس فلم يعودوا يميزون : أين ينتهي الأدب وأين يبدأ التاريخ ؟! وامتد فريق آخر من المهتمين بالسياسة إلى الدراسات التاريخية التي جعلوها في كثير من الأحيان مطية لدوافع محددة . لست في هذا المقام من المترمتين الداعين إلى

الموضوعية المطلقة^(١)؛ إذ أنها خرافة طالما أن من يكتب في الدراسات النظرية كائن حي - لا بد له ميوله واتجاهاته وانفعالاته. إلا أن المؤرخ المستقل يضع كل ذلك في إطار الحد الأدنى إلا أن تدفعه الوقائع العارية إلى انفعال مُعَيَّن رضى أم لم يرض. وحتى الآن لم يتحقق للتاريخ والدراسات التاريخية الاستقلال الذاتي عن دنيا أولية سديمية تكتنفها أهواء ومصالح لا بد لها من عاصم.

ومن الطبيعي أن تحاول الحركات القومية أن تُسند اندفاعاتها بأن تستخرج من اللاشعور القومي فترات عَفَى عليها الزمن كانت فيها الأمة المعينة تتبوأ مكانة سامقة سواء في الحيز السياسي أو الفكري أو الحضاري بوجه عام. والتاريخ هو ذاكرة الشعوب الحية، وهرقنطرة العبور من جيل إلى جيل جيئة وذهابًا. ولكن ثمة خيط رفيع على دارسي التاريخ يتبينوه: ففرق كبير بين الأبحاث الحقيقية التي لا يخلو منها تاريخ أي شعب حي، وبين الأبحاث المختلقة. فرق بين إزاحة الغبار عن الفترات الزاهية في تاريخ الأمة وبين التزييف والتجديف.

وحين بدأت نهضتنا الفكرية لم يكن ثمة تَحَصُّص بالمعنى الضيق، بل كان هناك رواد يتميزون بسعة الأفق والثقافة؛ وعلى رأس هؤلاء رجال من طراز أحمد لطفي السيد وطه حسين وشفيق غربال. وقد كَوَّن هؤلاء ما يمكن أن نسميه «بالأرستقراطية الفكرية»، فشعورهم بذواتهم وبمجدة نوع ثقافتهم ومناهجهم وبخطر دورهم القيادي في المجتمع المصري، وقلة أعدادهم - كل هذا مما خَلَعَ عليهم أهمية خاصة وسلَّط عليهم الأضواء في مجالات الفكر والتوجيه. على أن نشاطهم قد اقتصر على دائرة ضيقة: في قاعات التدريس - مثلًا - وفي حلقات الدراسة. وهذا هو دورهم الطبيعي.

ولكن بعضهم - كأحمد لطفي السيد، وطه حسين، ومحمد حسين هيكل - اشتغلوا بالصحافة وتَقَادَفَتْهُمْ عواصف السياسة بجلوها ومُرَّها، فتعرَّضوا لخبرات لا يرضى عنها كل مُفَكِّر؛ ولم يجدوا التجاوب اللازم من الرأي العام الذي كان لا يزال مشدودًا إلى قيم وتصورات وزعامات تنزل إليه دون أن تعلية، وتُدغدغ أوهامه ولا تُصارحه، وتستثير خيلاءه بأحلام رومانسية غير واقعية؛ لهذا

(١) انظر مناقشة القضية مناقشة بارعة في : Howard Fast . Literature and Reality

وملخص ما ذهب إليه المؤلف أن « الحقيقة » لا تكمن في فراغ؛ بل لا بد لها أن « تنحاز ».

كسفت أضواء هؤلاء الرُواد أنماط أخرى من الرجال أكثر شهرة وأشد جلبة : الساسة ومن في ركابهم من الصحفيين والمرتزة الذين غلبتهم الأطماع والمكاسب الوقتية فلم يُرَبُّوا في الشعب قيماً جديدة وسلطوا سهامهم على مَنْ ليس على شاكلتهم .

ولم تكن ثقلبات السياسة المصرية في فترة ما بين الثورتين مما يغري مُفكِّراً جاداً بالانزلاق إلى مهاويها : فطابعها العام ديماجوجي يأنفه المُفكِّر الحزّ، ووسائلها تحارب المنطق العلمي الجاد والنقد البناء . هذا هو السّر فيما أُطلق عليه اسم « البرج العاجي » .

وهكذا انعزل غربال وأمثاله، أو فُرِضَت عليهم العُزلة في جوّ عام لا يحكمه منطوق معقول . جماهير حظها من الثقافة العامة قليل، تُغريها عبادة البطولة بالسَّير منقاداً وراء بعض الزعامات التي ليست في مجموعها زعامات مثالية تحس بالمسئولية القومية .

لهذا لا ندهش إذا ما وجدنا عدداً من مُفكِّرينا الجادّين، رغم إيمانهم النظري بالحرية وبالديمقراطية ، لا يهضمون الاتجاهات الجماهيرية في ذلك الوقت كما كانت عليه . لهذا اتجه الإيمان بالفرد المبرز إلى الحلول محل الإيمان بالجماعة والأمة والبشرية عامة .

وقد قوّى هذه النكسة شعور كثير من المفكرين بأن الزيادة في عدد المُلمّين بالقراءة ورخص المطبوعات بدلاً من أن تؤدي إلى تنوير الجماهير شجعت على ظهور الكتب التي انعدم فيها التركيز واعوجَّ فيها الفكر وتخلّت من الفن .

ولم يشأ معظم الكُتّاب البارعين أن ينحنوا لتلبية مطالب التجارة الفكرية ، وتمسكوا بمستويات صعبة المنال في عالم الفن والفكر . وبلغ ازدياد الذوق الشعبي غايته في مذهب الفن للفن الذي نادى به توفيق الحكيم ومدرسة أبوللو . وكره الكثيرون الحاضر ورؤية الجماهير الجاهلة يخدمها السَّاسة والأثرياء، فولوا وَجْهَهُم شطر الماضي يحتمون به وينتعون .

وغربال في أعماقه مفكر فنان . ومن سمات المفكر الأصيل أنه مرآة لعصره الذي هو استمرار لتراث الماضي، حقيقة إنه معظم حياته الفكرية يركز على القِلَّة الموجهة والزعامات الفردية ، وبخاصة في المجال الفكري (يتضح ذلك من اختياره لكتاب المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن

الثامن عشر، لكارل بيكر لكي يترجمة- وهو الكتاب الوحيد- على ما أعلم- الذي ترجمه غربال، وإن يكن قد أشرف على مراجعة الكثير من الترجمات وتقديم عدد كبير من الكتاب والمؤرخين والمترجمين. كما يتضح من بعض الشخصيات التي عرض لها في أحاديثه الإذاعية كسقراط والحسن البصري وأبي العلاء المعري والغزالي وابن تيمية وتولستوي وجمال الدين الأفغاني- وقد خلع على هؤلاء صفة أنهم غيّروا وجه التاريخ، ومن بعض موضوعات محاضراته في هذه الجمعية: ألكسيس دي توكفيل وتولستوي وأرنولد توينبي).

إلا أن من سمات الفنان الأصيل حبه للشعب: الشعب لا باعتباره مجموعة من الأفراد لها ما يُسميه بعض علماء الاجتماع بالعقلية الجماعية، بل باعتباره وحدة ميتافيزيقية تعكس الصورة التي يتخيلها المفكر الفنان لمفهوم الشعب والجماهير.

وجيل غربال رغم كونه قد شهد اندفاعه الجماهير المصرية في إبان ثورة ١٩١٩، تلك الاندفاعه العملاقة التي ألهمت توفيق الحكيم في «عودة الروح» كما ألهمت سيد درويش في أنشوداته الشعبية، وكانت من وراء معظم إنتاج الممثل الكبير محمود مختار، إلا أنه شهد كذلك نكسة الثورة، وفشل الجماهير الشعبية- لأسباب خارجة عن طاقاتها- في متابعة أهدافها الثورية في المجالين القومي والاجتماعي.

وغربال لم يكن من ساكني الأبراج العاجية. ولكنه كان يرى أن نظرة المؤرخ تختلف عن نظرة الرجل الذي يعيش في غمرة الأحداث وحى الكفاح وهو يحب الناس، وإن لم يكن يرتاح إلى كل الناس، وهو يحب المعرفة، ولكنه - كما سبق أن قلنا- يعشق التاريخ الذي كان ينظر إليه نظرة الناقد، وربما الناقد الذي يرى الأحداث من بعيد. ولم يشأ غربال أن يتخصص بالمعنى الضيق، وإنما كان موسوعي التكوين الثقافي؛ وربما كانت سعة ثقافته مسئولة عن القلة النسبية في إنتاجه.

والتاريخ- آخر الأمر- يقوم على منهج صارم لا يغتفر الشطط والفروض والخيال، ومن ثم كان الجهد الكبير الذي يستلزمه التأليف في التاريخ.

ولما كان غربال رائداً في حقل تأسيس الدراسات التاريخية بشكلها الحديث، ولما كان لا يبخل بوقته على طلبته ومريديه، فإنه أسهم في أكثر من مجال إسهاماً يُمليه عليه وضعه في الحياة الفكرية المصرية، فأشرف على مراجعة ونشر مؤلفات طلبته وتقديمها، وأعطى الكثير من وقته لهذه الجمعية منذ أن ترأسها في عام ١٩٥٠، ولذا ينبغي ألا تُسرف في مطالبة بالكثير.

ومع ذلك فإنه أشار إلى الخطوط العريضة التي على المؤرخين الجدد أن ينتهجوها. ولم يكن جامداً، كما سنراه خلال الترتيب الزمني لمؤلفاته الرائدة: فهو يبدأ عثمانياً من حيث الاهتمام، ثم يرتاد مصر الحديثة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، مؤرخاً لمحمد علي الذي لا شك كان له أثره في تحويل مجرى تاريخ مصر الحديث؛ ثم يكتب عن «تونس الخضراء» - موطن أجداده الأول- في سلسلة دائرة المعارف الإسلامية. توجيهه الأصلي، وقاعدة تفكيره الأساسية: العالم الإسلامي في ماضيه وحاضره؛ ومصر جزء منه.

ورويداً رويداً نجده يَخْصُ مصر باهتمامه الكبير، وبخاصة حين تعود مصر منتفضة في أعقاب الحرب العظمى الثانية، فترغم إنجلترا على التفكير في الجلاء. ربما يكون هذا ما هو ما ألهمه بتتبع قصة المفاوضات المصرية البريطانية، ولقد أسف تلامذته ومريدوه أنه لم يكتب من هذا المشروع إلا الجزء الأول حتى معاهدة ١٩٣٦.

ثم تنتفض مصر انتفاضه ثورية في عام ١٩٥٢، هي لا شك التي ألهمته بسلسلة محاضراته الرائعة في الإذاعة الأوروبية التي تُرجمت ونُشرت في عام ١٩٥٧ بعنوان «تكوين مصر» - وهي سلسلة المحاضرات التي تُعدُّ خلاصة اتجاهه الفكري، والتي يبدو فيها بحق تلميذاً لأرنولد توينبي.

وبعد أن سيطرت مصر على مُقَدَّراتها واسترجعت إرادتها، انطلقت إلى آفاق العروبة، وخلعت عليها رسالة تبني الاتجاهات العربية التحررية. وكان غربال مُديرًا للمعهد الدراسات العربية العالية حيث ألقى محاضراته عن العالم العربي، وهي المحاضرات التي طبع بعضها تحت عنوان «منهاج مُفَصَّل لدراسة العوامل الأساسية في بناء الأمة العربية كما هي عليه اليوم».

أرأيت كيف كان غربال مرآة لعصره باعتباره فناً؟ العالم الإسلامي بمعناه الواسع في قديمه

وحديثه هو مجال اهتمامه، وبخاصة آثار تفاعل هذا العالم الإسلامي بالحضارة الغربية. خلف ذلك شيئاً من التوتر، لم يكن غربال يجده مجالاً للدهشة أو حافزاً للجزع؛ فهو في ذاته ليس شيئاً فريداً « يماثله التوتر الذي ينجم عن التقاء جيل الآباء بجيل الأبناء في الأمة الواحدة، أو الذي يكون بين الخاصة والعامة في أمة ما، أو بين الأديب ومجتمعه في أي مكان. وأظن أنه يصعب بعض الشيء أن نعثر على العقلية العربية والعقلية الغربية مختلفتين احدهما عن الأخرى بتلك الدرجة من التباين التي يثيرها التعبير. وقد يكون أكثر مطابقة للواقع أن نميز بين رجل أميل للمحافظة وآخر أميل للتجديد. وقد يكون أكثر مطابقة للواقع أن نتحدث عن تأثير القديم وتأثير الجديد بدلاً من أن نتكلم عن الشرق والغرب »^(١).

فهو لا يعرف مشكلة ما في مصر إلا ولها نظير في أوروبا، والمشكلات هنا وهناك تختلف بطبيعة الحال في مظاهرها وفي حدّتها أو تعقيدها.... « ولو أن الرجل منا قدّر عليه أن يواجه في نفسه صباح مساء الصراع بين الشرق والغرب، وفُرض عليه أن يبحث عن صيغة يُوفّق بها بين عقليتين لكان بذلك شقيّاً ».

هذا هو جوهر تفكير غربال التاريخي: الصدام بين الغرب والشرق؛ تحدي الغرب واستجابة الشرق الإسلامي. وهذا هو الذي يميّزه عن أخذوا التاريخ بظواهره وأحداثه دون نفاذ إلى أعماقه. وغربال - كما سبق أن قلنا - أديب فنان. وأرقّ الخطوات في مسير الثقافة الإنسانية هي شمولها للإنسانية جميعها. وفي سبيل هذا الهدف حطم التأليف التاريخي قيوده التقليدية المعروفة، من شئون عامة وحروب ودين ليسجل كل المظاهر العقلية الإنسانية.

وقد ساعد الأدب على هذا التقدّم: فالأدب هو المُعبّر عن رغبات الإنسان وأمانيه، كما ساعد عليه أيضًا العلم وهو التعبير الجدي الصارم عن نزعتة إلى المعرفة. وقد تخطى عون الآداب في هذا السبيل حدود الشكل والأسلوب التي تصفها الكتب التي تعالج موضوع التاريخ كأدب، فزودت المؤرّخين ببصيرة نافذة شديدة المرونة والعمق في أمور العقل الإنساني. إلا أنه إذا

(١) من كلمته في المجمع اللغوي في ٤ نوفمبر ١٩٥٧ عن محمد حسين هيكل بمناسبة شغله المكان الذي خلا في المجمع بوفاة هيكل.

تغلب الأدب على المؤرخ لإهماله العلم، أو إذا تغلب عليه العلم لإهماله الأدب، جاءت الصورة التي يرسمها للإنسانية ملتوية مشوهة.

فتدوين التاريخ يقترب من الكمال بقدر ما بين المعرفة والفن من اتساق في العمل. انظر إليه - مثلاً - يُقدّم لكتابة عن تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية، تجد مصداقًا لهذه النظرة العامة، فهو يقول: « في هذه الفصول محاولة لتكوين صورة واضحة من الحوادث والوقائع والسياسات والخطط والبواعث والأغراض والأمانى والشهوات التي توالى على مصر والتي يتكون منها تاريخ العلاقات بين مصر وإنجلترا إلى هذه الأيام. وقد تتابعت هذه الأشياء المختلفة علينا نحن المصريين منفصلة أو متصلة وحكمنا عليها بما شئنا أو بما أريد لنا. واليوم وقد بلغنا نقطة تحول فاصلة، ووصلنا إلى مرحلة حاسمة في المصير، وجدت من الخير أن نقف عند هذه المرحلة موقف التفكير المنظم وهذا التفكير المنظم لابد أن يقوم على أساس. وهذا الأساس هو ما سميت به الصورة المركبة من المتفرقات التي أشرنا إليها. ولهذا العمل خطورته ومسئوليته وصعابه. وله أيضًا متعته. ولكنه جد لازم. وهو واجب وطني ينبغي على كل مواطن أن يحاول أدائه لنفسه بالقدر الذي يستطيع ».

ولقد كتب هذا التقديم لكتابه في مايو ١٩٥٢ حين كانت مصر تمر بمرحلة الغليان السابق على الثورة. ثم يستكمل هذا التقديم بتبيان نظريته إلى قيمة الشخصيات الفردية فيقول: « وقصة الرجال في تاريخ المفاوضات المصرية تكسب الموضوع متعة أي متعة: فلكل منهم شخصيته وصفاته، وفي كل واحد منهم عناصر القوة وعناصر الضعف لا يشارك غيره فيها ويكفي أن نذكر أسماء بعض من أصبحوا منهم في ذمة التاريخ لنستدل على ما في هذه الناحية من الموضوع من ثروة للمترجم: الملك فؤاد، سعد زغلول، حسين رشدي، عدلي يكن، عبد الخالق ثروت، إسماعيل صدقي، محمد محمود، أحمد ماهر، محمود فهمي النقراشي، عبد العزيز فهمي، وغيرهم. هؤلاء الرجال كانوا من طراز لم تعرفه مصر قبل حقبة المفاوضات. فقد تجمع في مصر في ثلاثين عامًا من ذخيرة العمل السياسي ما تجمع لدى غيرها من الأمم ما يماثله في قرن أو قرون من الزمان. ويحمل التجمع الغزير في الزمن القصير ما يحمل النبات ينمو في ظروف مصطنعة من

العلامات والخصائص، ولم يكن لمصر حيلة فيما حصل، وها هي ذي قد كسبت الاهتمام بالمسائل العامة فعلية أن تكسب تنظيم الاشتغال بالسياسة والعناية بالتربية الوطنية .

بعد هذه الإمامة بطريقة تفكير غربال ومنهجه في الدراسات التاريخية، أعود فأحاول أن أطبق هذه الملاحظات على أهم مؤلفاته سلسلة زمنياً، وبذلك أتجنب - بقدر الإمكان - إغراء التعميمات التي لا شك لها خطورتها من حيث تقييم الجهد التاريخي .

سأبدأ برسالته التي حصل بها على درجة الماجستير من جامعة لندن، وهي الرسالة التي أشرف عليه في أثناء تحضير مرحلة منها الأستاذ أرنولد توينبي، ثم نُشرت في عام ١٩٢٨ بعنوان: (The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise Of Mohamed Ali)

اختار موضوعاً لدراسته إذا فترة مهمة من تاريخ مصر: وهي الفترة الواقعة ما بين مجيء الحملة الفرنسية في عام ١٧٩٨ وعقد صلح بوخارست بين روسيا وتركيا في عام ١٨١٢.

وأهم ما في هذه الرسالة أنها تربط أحداث مصر بالموقف الدولي: بحروب نابليون ودبلوماسية وبالسياسات الأوروبية العامة؛ كما تربطها بالمسألة الشرقية وتاريخ تركيا.

والفترة التي اختارها غربال موضوعاً لدراسته فترة حاسمة في تاريخ كل من مصر وتركيا: إنها بداية المرحلة الإيجابية من المشروعات التوسعية الأوروبية في العالم العربي، وبداية مرحلة جديدة في تاريخ المسألة الشرقية بكل ما في طياتها من محاولات للإصلاح في تركيا، ومن حركات قومية من نوع خاص في البلقان التركي، وما بين هذه الحركات القومية والدول الأوروبية الكبرى - وبخاصة روسيا - من صلات، ومشكلة البوغازين وموقف إنجلترا منهما ومن البحرية الروسية في البحر الأسود. لهذا كان العنوان الجانبي للبحث: « دراسة لدبلوماسية العهد النابليوني - مبنية على دراسات في دور الوثائق البريطانية والفرنسية ».

وقد أهدى غربال الرسالة لتوينبي باعتباره: « معلماً عظيماً وأستاذاً مُلهِماً » وقدم توينبي للرسالة المنشورة بكلمات تبرز أهمية البحث، مؤكداً أنه قد استفاد من الإشراف عليه أكثر مما أفاد، مشيداً بصفات غربال المؤرخ الناشئ: فهو على اتصال بالشرق والغرب، وهو بعيد كل

البُعد عن الأهواء والميول التي تُحيط بموضوع دراسته، بحيث لو أن اسمه لم يُطبع مع البحث لكان من الصعب القول بأن المؤلف إنجليزي أو فرنسي أو مصري أو ينتسب إلى بلد آخر غير إنجلترا ومصر وفرنسا.

وقد أشاد توينبي بهذا التجرد الذي اُتسم به غربال حين كتب رسالته الأولى، مؤكداً أن ذلك أمرٌ صعبٌ نسبة إلى الرواسب التي خلفها لدى المصريين ما كان من ذكرى علاقاتهم السياسية بإنجلترا منذ أكثر من قرن وأضاف إلى ذلك ما انتصف به غربال المؤرخ الناشيء من إلمام بعلم استخراج المادة التاريخية من الوثائق، وعرض الحقائق التي يصل إليها.

وأُتبع توينبي تقديمه بدراسة مقارنة لمصر العصور الوسطى ومصر الحملة الفرنسية، وهي الفترة التي نكبت فيها مصر بالركود، بحيث حين جاءت الحملة الفرنسية، واصطُرِع الفرنسيون والإنجليز على الأراضي المصرية كان ذلك بالنسبة إلى المصريين وإلى مؤرخهم الجبرتي وكأنه مجموعة من السوبرمن، تحارب مجموعة أخرى من السوبرمن، على حين أن الفرنسيين والإنجليز كانوا بشرًا، إنما بشر من نوع خاص: توصلوا إلى طرائق حديثة في العلم والمعرفة والتنظيم.

ولم يدرك هذه الحقيقة من المصطرعين المسلمين على السلطان في مصر بعد جلاء الحملة سوى محمد علي الذي أكمل الاتجاهات التي عرفت مصر بمجيء الفرنسيين، ووجه مصر وشعب مصر وجهات جديدة. لم يكمل غربال قصة محمد علي، وإنما انتهى عند الفترة التي ثبت فيها محمد علي سلطانه ووضع أسس حكمه. ومنذ ذلك الوقت أخذت المسألة المصرية تشق طريقًا خاصًا بها إما في ثنايا المسألة الشرقية العامة أو منفصلة عنها.

رسالة غربال هذه عن أصول المسألة تُثَمِّلُ لها أهميتها في الكتابة التاريخية في مصر. فمؤلفها اعتمد على الوثائق الأوروبية غير المنشورة، وهذا أمر جديد في تاريخ الدراسات التاريخية في مصر. سبقته لا شك أبحاث من هذا النوع منها- على ما أذكر - بحث الدكتور سيد كامل عن « مؤتمر الآستانة والمسألة المصرية في عام ١٨٨٢ »^(١)، وهو البحث الذي نُشر بالفرنسية في عام ١٩١٣.

(١) La conference Constantinople et La Question Egyptienne en 1882.

بُنِيَ هذا البحث حقيقة على الدراسة الوثائقية. ولكنه لم يعتمد سوى على الوثائق والحوليات المطبوعة- وله في ذلك عذره؛ إذ أن دور الوثائق لا تسمح بالاطلاع على الوثائق إلا بعد مرور فترة معينة، بحيث لا يتضمن الاطلاع على الوثائق الرسمية إفشاء W للأسرار التي تَمَس السياسة العامة للدولة المعنية.

الملحوظة الثانية على هذه الاتجاهات الرائدة: أنها نظرت إلى الأحداث والسياسات من وجهة النظر القانونية، مثل الدكتور سيد كامل في ذلك مثل الدكتور محمد حسين هيكل حين وضع بحثه عن « دَين مصر العام »، وهو البحث الذي حصل به على درجة الدكتوراة من إحدى الجامعات الفرنسية أيضًا. ربما كان مرجع ذلك أن التاريخ بشكله المنظم لم يكن حينئذ قد أصبح علمًا مستقلًا قائمًا بذاته، وأنه لم يكن قد ظهر في مصر مؤرخون متخصصون بمعنى الكلمة. وبهذه المناسبة يجدرني أن أشيد بالجهد الذي بذله في هذا المضمار الدكتور محمد صبري « السوربوي » الذي تعتبر أبحاثه عن عصري محمد علي وإسماعيل و « نشأة الرأي العام في مصر »، وهي الأبحاث التي وضعها باللغة الفرنسية، مما لا غنى عنه لكل من يدرس تاريخ الفترات التي تناوَلها. بيد أن بحث غربال عن بداية المسألة المصرية كان أسبق من الناحية الزمنية، وإن يكن يبدو أن هذين الرائدتين كانا يُحَصِّلان الدرس في فترة واحدة: إذ كان الدكتور صبري- وهو طالب في فرنسا- ممن اتصلوا بسعد وبالفود في باريس في أعقاب الحرب العظمى الأولى.

لهذا نستشف في مؤلفات صبري الأولى الروح القومي الذي لا نستشفه عند غربال الناشئ. فصبري أديب مؤرخ؛ على حين أن غربال مؤرخ أديب- ولكل من الرجلين قيمته، ولمنهاج كل منهما وزنه. وفرقٌ بين التزمَت الإنجليزي البارد في العلم كما تَلَقَّتهُ غربال في إنجلترا، وبين العاطفية والنزعة الفنية، والشاعرية الفكرية التي جعلت من باريس فترة ما- وربما إلى اليوم- قبلة المفكرين والفنانين الكبار من شتى أنحاء العالم.

وقد أرشدت هذه البداية غربالاً إلى الطريق الذي لا بد منه في توجيه دراسات تلامذته الذين اعتمد الرعيل الأول منهم على وثائق دور المحفوظات المصرية وتناولا بالدراسة موضوعات

مهمة في تاريخ مصر الحديث. وأسهم هو بدوره في هذا المجال، مُسلِّطًا الأضواء على فترات أو شخصيات لها أهميتها؛ إذ كان غربال يعرف كيف يختار موضوعه: واختيار الموضوع ذاته يعتمد على نوع الشخصية التي تختار. كان غربال إما يحرص موضوعه أو يضع الاتجاه ذاته والخطوط العريضة، تاركًا الدراسات الجانبية لتلامذته ومن يحذو حذوه.

ومما نستعرضه من مؤلفاته نجده يبتعد - قدر الاستطاعة - عن الدراسات الكلية الشاسعة، وبخاصة فيما يتعلق بالفترات أو الشخصيات التي لم تسلط عليها الأضواء بعد؛ إذ أنه كان يدرك أن حقل تاريخ مصر الحديث بكبر، وأنه قبل التصدي للكتابة لابد من نشر الوثائق وأدوات البحث الأخرى.

وفي عام ١٩٣٢ نشر بحثه عن « الجنرال يعقوب والفارس لسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١ » وفي هذا البحث أبرز فكرة استقلال مصر عن تركيا، على أساس التفاوض في العواصم الأوروبية، كما تخيلها يعقوب حنا ولسكاريس بعد جلاء الفرنسيين عن مصر، وقد بنى هذا البحث على المصادر العربية والإفريقية؛ وكعاداته في مثل هذه التأليف، واستمرارًا لرسالته التي أشار فيها إشارة سريعة إلى هذا المشروع، نجده يربط هذا البحث رابطًا محكمًا بالموقف الدولي وبأوضاع مصر ذاتها ومستوى أبنائها وأحوالها الاجتماعية.

وفي عام ١٩٣٦ نشر بحثه: « مصر عند مفرق الطرق - رسالة حسين أفندي الروزنامجي ». في هذا البحث يتناول مجموعة الأسئلة التي وجهها إستيف مدير الإدارة المالية في عهد الحملة الفرنسية إلى حسين أفندي الروزنامجي أحد أفندية الروزنامة في مصر، وإجابات حسين أفندي على هذه الأسئلة. وهذا البحث أنموذج للتحقيق العلمي، ولا يزال حتى الوقت الحاضر من المصادر الأساسية لأحوال مصر العثمانية.

وبداية الحملة الفرنسية، ومشروع يعقوب حنا ولسكاريس الخاص باستقلال مصر في سنة ١٨٠١، ومصر عند مفرق الطرق... كل هذا لابد أن يغري غربال بالدخول الى عصر محمد علي جملة وتفصيلًا. والموضوع ذاته جدير بالاهتمام ولا يزال مثارًا للنقاش حتى الوقت الحاضر

طبقاً لنوع النظرة التي تحيط بمن يتناول عصر محمد علي والرجل ذاته ونوعية مستوي الشعب المصري في الفترة التي تولى فيها محمد علي الحكم والتي أرسى فيها دعائم هذا الحكم، ثم حول مجرى تاريخ مصر الحديث شاء هذا الحكم من يقرأ تاريخ محمد علي أم لم يشأ.

ظهر كتاب «محمد علي الكبير» في عام ١٩٤٤. وهذا الكتاب قمة من قمم الدراسات التاريخية التي كتبت باللغة العربية على الإطلاق. ورغم القِلّة النسبية لعدد صفحاته، فإنه يفرض علينا وقفة خاصة: إذ أنه أنموذج متكامل، وربما كان الأنموذج الوحيد، للكتابة التاريخية كما يراها غربال.

فمحمد علي هنا ليس شخصية تتحرك في الزمان والمكان؛ ولكنه محور لدراسات: تبدأ الدراسات بمصر العثمانية، ثم الحملة الفرنسية؛ وتنتقل إلى أوروبا وتركيا، ثم إلى أحوال المجتمع المصري كما تسلمه محمد علي، ثم التحول البطيء لهذا المجتمع وفق ما أرثاته له مشيئة محمد علي. مجتمع ينتقل من حال إلى حال، على الأقل في دوائره العليا، إذ مسائل التغير الاجتماعي لا يمكن تناولها بنظرتنا إلى مسائل التغير المادي.... مجتمع مصري مُتَخَلَّف توضع له أدوات وأركان التغير التقدي ولو بعد حين طويل، وغربال يحاول أن يخلق على محمد علي خطة محكمة هي التي أفضت إلى بناء قواعد الدولة الحديثة في مصر، ويصوره لنا يدفع جيل الفلاحين والعمال والجنود المصريين إلى آفاق فسيحة، ويحاول أن يبرر شدته على الشعب والماليك وتبنيه «للأرستقراطية التي تتكلم اللغة التركية».

وعلى أي حال فالمؤرخ ليس القاضي الذي يمسك بيديه موازين العدالة، ويوزع الخير والشر كما يحاوله، وإنما هو يحكم على الأشخاص والأعمال في نطاق الطبيعة البشرية.

نُشر هذا الكتاب في «سلسلة أعلام الإسلام» - وهو يختلف عن مؤرخي مصر الحديثة الذين ينظرون إلى مصر العثمانية باعتبارها جزءاً من تاريخ مصر، في حين أن غربال يعتبر مصر العثمانية ومصر محمد علي جزءاً من تاريخ الإسلام. وقد برر هو ذاته اختياره محمد علي علماً من أعلام الإسلام، على اعتبار أن مصطلح «إسلامي» لا يقف عنده فترة تاريخية معينة. ثم جعل من محمد علي محوراً لدراسة عصره في الشرق والغرب، مصطنعاً أسلوب التحليل

والتركيز والربط كأحسن ما يكون الاصطناع .

وصدر في هذا الكتاب عن تمكن تام من موضوعه، وعن أسلوب للتعبير يصطنع الدقة المتناهية في اختيار اللفظ، وطرق العرض الفلسفية وطرائق علم النفس ومناهج علم الاجتماع . وهو في هذه الترجمة إسلامي بالمعنى الواسع . يربط موضوعه في إطار تجسيم ما قد قام به محمد علي مع الرفق الشديد حين يُعَدِّد له الهنّات الهيئات . انظر إليه يُقارن بين مصر المماليك المتأخرين ومصر المماليك الأول : « مصر بيبرس محور ذلك العالم العربي الذي اكتسب مقوماته وانفرد بشخصيته على أثر انهيار الخلافة العباسية . وهو اجتماع يتركب من طوائف وجماعات لها شخصيتها وقانونها وعُزفها ووظيفتها . فمن أصحاب السيوف الى أصحاب الأقلام ، ومن أهل الفلاحة للأصناف (أصحاب الصناعات) ومن أرباب السجاجيد إلى هيئات التدريس - وهلم جرا . ويكتسب ذلك الاجتماع الصاحب حيويته من حكم الجماعات نفسها بنفسها ، كما يكتسب لونًا من التنسيق والانسجام من شخصية السلطان ؛ يدفع الناس بعضهم ببعض ، ويحاول أن يخضع الأهواء والمصالح لجهود عامة في تحقيق مُثُل غلبا تهم الناس جميعًا . ولكن كانت آفة ذلك الاجتماع ما صَحِبَهُ من سرف وتبديد كان من شأنهما على توالي الزمن وضع أعباء على الطوائف المنتجة من أهل الفلاحة والصناعة والتجارة ، أنهكت قواها الحسية والمعنوية . وكانت آفته الأخرى من أول الأمر انصراف الناس نحو شئونهم الخاصة بأشخاصهم وجماعاتهم ، وابتعادهم عن الشئون العامة واعتبارهم إياها « سياسة عليا » ، كما نقول الآن ، هي مما ينبغي النظر فيه للسلطان والأمراء ، وليست مما ينبغي للرعية . وقد وجدوا في تعليم أئمتهم ما يُبرر إيثارهم العافية » .

وفي هذه الفترة أيضًا صدرَ غربال للكتاب الذي أصدرته « دائرة المعارف الإسلامية » عن : « تونس الخضراء » بمقدمة سياسية تناولت الوضع الدولي السابق على فرض فرنسا حمايتها على تونس ؛ إذ لا يمكن فهم هذا التطور في السياسة الفرنسية إلا بربطه بأوضاع المسألة الشرقية والحرب الروسية - التركية (١٨٧٧ - ٨) ، ثم مؤتمر برلين وما طرح فيه على بساط البحث من تقسيم للإمبراطورية العثمانية وهذه المقدمة القصيرة المركزة تدخل بنا إلى المقدمات الأخرى

المركزة التي وضعها غريبال لكثير من مؤلفات وترجمات طلبته والعاملين معه .

وتمتاز هذه المقدمات بالشمول ، وتهيئة الذهن للموضوع ؛ بل إن بعضها مما يغني الدارس غير المتخصص عن الإيغال في تفاصيل الموضوع ذاته .

وفي عام ١٩٥٢ نشر غريبال الجزء الأول والأخير من كتابه عن « تاريخ المفاوضات المصرية - البريطانية » ، وهو أطول ما كتبه غريبال باللغة العربية ويُحِيل إلى أن غريبال لم يعط نفسه فسحة من الوقت لصقل هذا الكتاب ومراجعته . ولذا فإننا نجد مراحل الأولى تختلف عن مراحل الأخيرة التي يُسرف فيها في عرض النصوص الكاملة لمشروعات الاتفاقات ومحور المفاوضات بين الإنجليز والمصريين . وكان يستحسن أن يلخص مضمونها، على أن تُورَد النصوص في ملاحق مستقلة .

على أن غريبال - باعتباره رائدًا من رواد التاريخ الحديث ، وتاريخ مصر الحديثة بالذات - يُلفت النظر في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى مصادر التاريخ المصري الحديث ، على الأقل في فترة دراسته . هناك مثلاً المجموعات الرسمية التي أصدرتها الحكومتان المصرية والإنجليزية ، أو مجموعات الكتب الملونة : بيضاء وخضراء وزرقاء .

وهناك الصحف والمضابط البرلمانية . وأهمية كل ذلك نسبية طالما أن الوثائق الرسمية الأصلية لم يُكشَف عنها اللثام بعد : فالوثائق الرسمية المصرية تقف عند عام ١٨٧٩ ، أي قبل موضوع بحث غريبال بسنوات ثلاث ؛ والوثائق الإنجليزية - على ما أعلم - تقف عند عام ١٩١١ وللآن لم تقم دراسة وثائقية للفترة التالية على عام ١٨٨٢ فيما يتعلق بالعلاقات بين مصر وإنجلترا سواء بالإنجليزية أم بالعربية .

ثم ينتقل في هذا الموضوع إلى المذكرات الخاصة ، فيقول إن كتابتها لم تتأصل بعد بين رجالنا - حتى مذكرات الدكتور هيكل في السياسة المصرية هي لديه أقرب إلى التاريخ منها إلى المذكرات لأنها لم تكتب وقت حدوث الوقائع ، بل بعدها بوقت ما .

وينتقل بعد ذلك إلى التراجم ، فيسجل قلتها إن لم يكن عدمها ونوّه بترجمة عباس محمود العقاد لسعد زغلول ، ونقد بعض جوانبها، وخرج إلى أنها بحث ممتع ؛ ولكنه لا يُعين كثيراً على

الترجمة لسعد زغلول .

وقد انتقل غربال في آخر هذا الفصل إلى الدراسة التاريخية، ونوه بمجهود الأستاذ الراجعي في جمع مادة تاريخ مصر الحديثة منذ أواخر العهد العثماني وأخذ عليه طريقته في الحكم: الميزان ذو الكفتين؛ وهذه طريقة وإن يكن لها وزنها في دنيا القضاء والقوانين إلا أنها لا تصدق على التاريخ. فالعدالة في الحكم التاريخي- عند غربال لا تتحقق على هذا الوجه السهل، ولا تتم إلا بالتقدير العام لسياسة أو لموقف .

على أن بحث غربال في تاريخ المفاوضات يُشتم منه التفاعل بالأحداث والخروج بعض الشيء عن التجرد الذي لمسنه فيه حين وضع رسالته عن «أصول المسألة المصرية وظهور محمد علي» فهو يكتب في موضوع حساس عاش معظم فترته وكشأن المواطن الذي لا بد مهتم بمصائر بلده، نجد غربال يبتعد عن تزمت المؤرخ، ويمسك بالميزان الذي أخذ على الراجعي أنه جعله ذا كفتين: فهو له آراؤه الخاصة في المواقف والرجال، وهو مصري بشكل واضح ينبغي على قومه الفرقه التي لم يكن لها أحياناً ما يبررها واستشهد بقول الشاعر:

قوي همو قتلوا أميم أخي فإذا رميت يصيبني سهمي
فلئن عفوت لأعفون جلالاً ولئن سطوت لأوهن عظمي

وتتضح هذه المصرية بشكل أكيد في سلسلة المحاضرات التي ألقاها في الإذاعة الأوروبية ونُشرت في أصلها الإنجليزي أولاً بعنوان The Making of Modern Egypt ثم ترجمها الأستاذ محمد رفعت في عام ١٩٥٧ تحت عنوان: «تكوين مصر» .

وهنا يتضح النهج التي سبق أن لمسنه في كتاب «محمد علي الكبير»، مع مسحة حضارية تناسب الموضوع الشاسع في الحيز الضيق. خَفَّت في هذه المحاضرات المؤثرات العثمانية-الإسلامية، وتبلورت فيه الصورة المصرية مجرّدة عن كل ما يمكن أن يفرق بين المصريين، بحيث حين تأتي المرحلة العربية من اتجاه مصر الحديثة، وهي المرحلة التي اتضحت بشكل بارز بعد ثورة ١٩٥٢، يكون غربال قد مهّد نفسه لصقل الصورة العربية العامة وموضع مصر من هذه الصورة.

في هذه المحاضرات نجد غربال عاشقاً لمصر خلال العصور كلها . « وهذا على الرغم من أنني أعرف أنه ليس في مقدور الرجل منا أن يحيط بالأدوات والدراسات كافة اللازمة لكل قسم من أقسام تاريخ مصر المعروفة دع عنك الإحاطة بها جميعاً . بيد أن الأخصائي والقارئ غير الأخصائي كلاهما يجد متعة ذهنية ومغناً في آنٍ واحدٍ لو حاد بين الفينة والفينة عن طريق التخصص؛ الطريق الضيق واضعاً نُصِبَ عينيه أن هناك « مصر » دائماً، وأنها تسمو فوق هامات الحقب والعصور » .

بعد هذه المقدمة الشيقة نجده يتناول موضوعات الاستمرار والتغيير في تاريخ مصر؛ الحكومة والمجتمع في مصر؛ الإنسان والمجتمع في مصر؛ المدينة والريف في تاريخ مصر؛ مصر والعهد القديم؛ مصر والهيلينية؛ مصر والمسيحية؛ مصر والإسلام؛ وأخيراً مصر والغرب .

إن هذه المحاضرات تُمَثِّلُ نوعاً فريداً في طريقة العرض التاريخي في العالم العربي - الإسلامي، شأنها في ذلك شأن كتاب « محمد علي الكبير » هنا، وهنا بحق، نجد غربال تلميذاً لأرنولد توينبي دون أن يتقيد بجرفية منهاج أستاذه في تفسير التفاعل الحضاري وانتقال المؤثرات الحضارية من مكان إلى مكان .

فمن الإسراف وضع قانون ثابت أو قوانين ثابتة لحركات المجتمعات التي هي المادة الحية للتاريخ بمعناه الواسع . ذلك أن الإنسان لا يصدر في سلوكه الفردي والجماعي عن أنماط ثابتة من السلوك بحيث تكون الاستجابة على قَدْر المؤثر - كما هو الحال في القوانين الطبيعية ولدي الأنماط الدنيا من الكائنات الحية . إنه ليس آلة صماء يسهل التحكم فيها .

فأرنولد توينبي - مثلاً - يبني دراسته للتاريخ على قانون ثابت يقوم على التحدي والاستجابة؛ وقد لقي تفسيره للتطور الحضاري كثيراً من المآخذ في إنجلترا، وإن كنا لا نستطيع إنكار قيمة الجهد الذي قام به . وكارل ماكس يربط بين حركة التاريخ الصاعدة وبين العامل المادي - الاقتصادي . ومدرسة السلوكيين في علم النفس تستمسك بالفعل المنعكس الشرطي القائم على تجارب العالم الروسي بافلوف على الكلاب . وفرويد يضع الغريزة الجنسية وراء كل دافع بشري .

وربما كانت نظرة «أرنولد توينبي» أكثر مرونة من غيرها؛ فالإنسان - مع تمتعه بقسط وافر من حرية الاختيار لا يستطيع فكاً من إسار الطبيعة وبيئته المادية. ونحن لا نستطيع أن ننكر أثر تحدي الطبيعة للإنسان وتحدي الإنسان للإنسان في مجرى النشاط البشري العام. ولكننا الآن - في النصف الثاني من القرن العشرين - نجد الإنسان وقد توافرت له الأدوات التي لا شك سَتَمَكَّنُه - لو أحسن استخدامها - من التغلب على الطبيعة والتخفيف من إسارها الذي كان بالنسبة إلى الإنسان القديم، بل ربما حتى الوقت الحاضر في مجالات شاسعة، قدرًا غالبًا وحتمية قهرية.

إن إنسان النصف الثاني من القرن العشرين هو الذي يتحدى. ومع ذلك فليس في طاقتنا أن نتنبأ بخطوط تفصيلية محددة للتطور البشري. فمهمة المؤرخ هي ترتيب ما يتجمع لديه من الوقائع التاريخية وتحليلها وتفسيرها. وليست مهمته التنبؤ أو الحدس سواء فيما يتعلق بالحاضر أو بالمستقبل، إلا أن يكون ذلك من قبيل الافتراض العلمي.

أدرك غربال كل ذلك إدراكًا واعيًا، فلم يشأ أن يخضع لفلسفة تاريخية معينة. فهو يأخذ من كل تفسير بِقَدَر، طبقًا للملابسات التي تُحيط بموضوعه، وحيثما تُصادفه قضية كبرى من قضايا التطور الاجتماعي نجده يستشهد بآراء كبار المفكرين التي قد تُقَسِّرُ الزوايا المختلفة لهذه القضية، دون أن يربط نفسه كليًا بهذا أو بذاك.

هذا وغربال - لا شك - كان على علم وثيق بأهم المناهج التاريخية وبالأنماط المختلفة من كبار المفكرين. ولكن طبيعته السمحة واتساع أفقه وإيمانه الواضح بحرية الإنسان مما جعله يتحرَّز من الانتماء لمدرسة معينة في تفسير التاريخ. وبين هذا وذاك نجد لديه تمشيًا مع أستاذه «أرنولد توينبي» في الأخذ بقيمة الصفوة الخالقة *élite* في مجال النشاط البشري بشتى زواياه. وهذه نقطة جوهرية هي باستمرار مثار للنفاس وبخاصة بعد ظهور التحدي الاشتراكي في المجالين الاجتماعي والفكري، وهو التحدي الذي خلع على الجماهير من الوعي ما لم يخلعه الكتاب من قديم الزمن.

أما المحاضرات التي ألقاها غربال في معهد الدراسات العربية ونُشرت قبيل وفاته بعنوان : « منهاج مُفَصَّل لدراسة العوامل الأساسية في بناء الأمة العربية كما هي عليه اليوم » ، فهي آخر مجهودات غربال في مجال الكتابة التاريخية، وإن لم تكن آخر ما طُبع له ؛ فقد جمعت دار الإذاعة متفرقات من أحاديثه تحت عنوان « من زاوية القاهرة » سنّهي بها حديثنا عن غربال .

في « المنهاج المفصل » نجد غربال يضع الخطوط العريضة للتفاعل والصراع في العالم العربي تحت الحكم العثماني وبعد الحكم العثماني .

والمُحاضرات تنقسم قسمين :

القسم الأول : لمحة سريعة عن العالم العربي والدول المختلفة القائمة فيه : الموقع الجغرافي لكل منها واقتصادياتها وتعداد سكانها.

أما القسم الثاني : فهو القسم المهم، وفيه يعرض المؤلف للعالم العربي والأوضاع القائمة فيه والتيارات الفكرية التي غلبت على الناس ، وكانت سبباً في تأخر العالم العربي .

فالاتجاه العام قبل التحدي الأوروبي هو أن العرب المسلمين عاشوا في جو خيالي نابع من معتقداتهم الدينية : فقد تصوروا أنهم بعزلتهم لهم الجنة وأن لغيرهم النار . لهذا لم يتطلّعوا إلى الاستزادة من العلم التطبيقي الأوروبي . وساعد على ذلك أن الحكم العثماني كان يحول بينهم وبين التطور، وذلك برغم حركة التنظيمات المستوحاة من التفوق الأوروبي خصوصاً في جوانبه المادية . وقد جاء التوتر السياسي في العالم العربي نتيجة لمحاولة الدولة العثمانية تقوية قبضتها على البلدان العربية ، وهو ما عرف بحركة التتريك .

ثم تلا ذلك سقوط الإمبراطورية العثمانية ووقوع العالم العربي تحت التبعية الأوروبية . وقد أبرز المؤلف دور حركة الشريف حسين ودور المثقفين الذين عقدوا مؤتمرهم في باريس في عام ١٩١٣، وكيف أن الفريقين قد ركبا متن الشطط ، وانتهزت كل من إنجلترا وفرنسا الفرصة لتقسيم العالم العربي ووضعه تحت نفوذهما المباشر . ولكن المد القومي الصاعد ما لبث أن تبلور وتجمع متمثلاً في رفض المعاهدات التي أملت والوضع غير العادل الذي آذخر لفلسطين .

وما لبث العالم العربي في مشاركته ومغاربته أن تصدّى للحصول على استقلاله ، خاصة وأن البلدان العربية في مجموعها مجيدة التاريخ سواء قبل أن تصبح عربية وبعد أن أصبحت عربية .

وصفات العرب كما كانوا عليه تحت الحكم العثماني ليست هي الصفات الأصيلة فيهم؛ بل هي صفات دخيلة بحكم الركود والجمود . فمقومات التاريخ العربي - كما يذكر غريبال في إحدى محاضراته الإذاعية المطبوعة - متوسطة بين طرفي الإفراط والتفريط : فارتقاء الحسيات يقابله ارتقاء ممائل للمعنويات ؛ والعناية بالزراعة وما يتصل بها من الغراسات والتفنن في الاستنبات والبراعة في جر المياه وصرفها ، لا تقل عن العناية بالصناعات ، والزراعة والصناعة شأنهما لا يقل عن شأن التجارة وما يتصل بها من تنظيم وطرائق إنهاء الحقوق والادخار والائتمان .

وهذا ينطبق على الحياة العقلية : فهي تعنى بالأبحاث النظرية دون إهمال للتطبيقات العملية ، وكذلك الحال فيما يتعلق بالحياة الروحية : فلا إسراف عمومًا في رعاية ما يوجب حق الجماعة وما يقتضيه حق الفرد . وهو يرى أن اللغة العربية هي جماع عقل وروح الأمة العربية، وهي أعظم ما خلق العرب، لماضيهم وحاضرهم ولستقبلهم.

في المجموعة الأولى من هذه المحاضرات نجد غريبالاً يتناول موضوعات حضارية بحتة أدرجت تحت عنوان نظرات في التاريخ العربي: العرب بين الأمم؛ تعبير الفن عن الشخصية العربية؛ تعبير العلم عن الشخصية؛ الشعبية القديمة والشعبوية الجديدة؛ المدينة العربية حكومتها في الماضي والحاضر.

وفي هذه المحاضرات نجد غريبالاً يختار النقاط البارزة في الحياة العربية، محاولاً تحديد مفهومي عربي وإسلامي .. ووصف إسلامي - لديه - أعم وأصدق .

ثم هو يُسَجِّل للعرب مُحافظتهم على حيويتهم ومقوماتهم منذ القرن السادس عشر برغم التغلغل الأوروبي والسيادة التركية العثمانية ، ويحثهم أولاً أن يكونوا أقوياء: « فالقوي لا ينفع نفسه فحسب ، ولكن ينفع الناس جميعاً بقوته » .

كذلك نجده يحاول مقارنة الشعبية القديمة بالشعبوية الحديثة في داخل العالم العربي ، وأن

هذه الأخيرة لن تنال من العالم العربي أكثر مما نالت الشعوبية القديمة : إذ المجتمع العربي قد التقت فيه العناصر الوافدة والأصلية وتفاعلت وأثمرت ، وأن هذا المجتمع مجتمع الجميع ، وأن التاريخ العربي ملتقى التواريخ .

أرأيت كيف انتهى غربال محددًا لنفسه موقفًا إيجابيًا من قضية الحرية والالتزام ؟ إنه بصفته من رواد الفكر لا بد له من وقفة إيجابية إزاء مجتمع يتحرك ويتطور ويتطلع إلى آفاق جديدة .
وأنتهي كلمتي هذه بطرح قضية الحرية والالتزام على هذه الجمعية الموقرة القائمة في صمت على خدمة الدراسات التاريخية المتشحة بالشوب العلمي ، مقتبسًا الفقرة الآتية من الميثاق الوطني :
« إن العلم للعلم في حد ذاته مسئولية لا تستطيع طاقتنا الوطنية في هذه المرحلة أن تتحمل أعباءها .

لذلك فإن العلم للمجتمع يجب أن يكون شعار الثورة الثقافية في هذه المرحلة .
على أن بلوغ النضال الوطني لأهدافه سوف يسمح لنا في مرحلة متقدمة من تطورنا بأن نساهم إيجابيًا مع العالم في العلم للعلم » .



الأستاذ الكبير
 مُحَمَّد شَفِيقُ غُرْبَالٍ وَتَلَامِيذِهِ
 (حديثُ الذِّكْرِيَّاتِ)

أ.د. محمد محمود الشُّروجي
 أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
 كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

يحسن بنا قبل أن ندخل في تفاصيل تلاميذه أن نلقي نظرة سريعة على حياة الأستاذ محمد شفيق غربال (٤ يناير ١٨٩٤-١٩ أكتوبر ١٩٦١) لبيان منهجه في دراسة التاريخ وأثر ذلك على تلاميذه، ولد محمد شفيق غربال في مدينة الإسكندرية، وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بمدرسة رأس التين الثانوية، ولكي يستكمل دراسته انتقل إلى القاهرة والتحق بمدرسة المعلمين العليا، وتخرج منها عام ١٩١٥ فهو إذاً سكندري المولد، وقاهري التكوين، ثم أرسل في بعثة إلى بريطانيا خلال فترة الحرب العالمية الأولى رغم ما يكتنف هذا السفر من أخطار، والتحق بجامعة ليفربول للحصول على درجة البكالوريوس، ونجح بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩١٩.

عاد بعد هذا إلى مصر حيث عمل بإحدى المدارس الثانوية بالإسكندرية لفترة ثلاث سنوات، عاد بعدها مرة أخرى إلى بريطانيا مرة ثانية، للحصول على درجة الماجستير من مدرسة الدراسات التاريخية التابعة لجامعة لندن، وهناك التقى بالمؤرخ الكبير أرنولد توينبي الذي أشرف على رسالته وعنوانها: "بداية المسألة المصرية وظهور محمد علي"

Ghorbal, S. The Beginning of The Egyptian Question and The Rise of Mohamed Ali.

وتم له ذلك في عام ١٩٢٤ وحصل على مرتبة الشرف.

وفي مقدمة الرسالة المنشورة سنة ١٩٢٨م أشاد توينبي بأهميتها، وبموضوعية تلميذه وحياده وربطه بين المسألة المصرية والمسألة الشرقية، وكان لها دوي في الأوساط العلمية في مصر لاعتمادها على الوثائق الأصلية.

وبعد عودته إلى مصر عام ١٩٢٥ عين مدرساً للتاريخ بمدرسة المعلمين العليا، ومنها نقل إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة حالياً) بدرجة أستاذ مساعد عام ١٩٢٩، وظل بها إلى أن عين أستاذ كرسي التاريخ الحديث عام ١٩٣٦، خلفاً للأستاذ جرانت Grantt، وكان معظم أساتذه الكلية وقتئذ من الأجانب ومن ثم كان أول مصري يتولى هذا المنصب، وفي عام ١٩٣٩ انتخب عميداً للكلية.

وبعد عام واحد نقل إلى وزارة المعارف كوكيل مساعد لها، حتى عام ١٩٤٢ حيث عاد أدراجه

إلى الجامعة مرة أخرى، ولكنه لم يلبث بها سوى ثلاث سنوات ليعين بعدها مستشاراً فنياً لوزارة المعارف ثم وكيلاً لها، إلى جانب تعيينه أستاذ غير متفرغ بكلية الآداب عام ١٩٤٩. وخلاف i مع حكومة الوفد لأسباب علمية نقل إلى وظيفة وكيل وزارة الشؤون الاجتماعية لمدة قصيرة، عاد بعدها وكيلاً لوزارة التعليم حتى عام ١٩٥٤.

وبما لاشك فيه يعتبر محمد شفيق غربال مؤسس مدرسة التاريخ الحديث بمصر، ولا سيما أنه أعطى تلاميذه جل اهتمامه ورعايته، ليواصلوا بحثهم بجدية وإتقان وليكونوا باحثين في التاريخ الحديث والمعاصر ولذا نجد رغم سعة اطلاعه وثقافته الواسعة ودقة تحليله وبعده عن الهوى، وقدرته الفائقة على استخلاص الحقائق من مظانها الأصلية، فإن إنتاجه العلمي كان قليل، ولكن وفرة إنتاج تلاميذه من بعده قد عوض هذه القلة، وحقق هدفه في تخريج أجيال تواصل عطاءه من بعده.

ولما كان البحث العلمي يحتاج إلى إنشاء دور للوثائق للرجوع إليها، وخصوصاً في التاريخ الحديث، فقد وجد في الملك فؤاد خير معين، فنظرًا لاهتمامه بكتابة تاريخ الأسرة العلوية، شكل لجنة في عام ١٩٢٥ برئاسة حسين باشا نشأت لجمع الوثائق الموجودة بدار الوثائق بالقلعة وبالدور الحكومية وتصنيفها، وترجمة الوثائق التركية منها، بالإضافة إلى جمع ما كتبه قناصل دول أوروبا في مصر، ووضعه في قصر عابدين تحت اسم "دار الوثائق السرية والمحفوظات التاريخية الملكية"، كما كلف عددًا من المؤرخين الأجانب بكتابة تاريخ أسرته مثل دوان Douin وكرابيتس Crabités وسماركو Sammarco وغيرهم.

واستطاع الأستاذ غربال أن يوجه تلاميذه بالدراسات العليا إلى دراسة كل نواحي النشاط الإنساني في مصر من زراعة وصناعة وتجارة وتعليم في القرن التاسع عشر على وجه الخصوص، مستعينًا بالوثائق المحفوظة في دار الوثائق التاريخية، فوضع بذلك أساس بناء مدرسة التاريخ الحديث بأيدي مصرية وعقول مصرية.

أما عن دراساته وبحوثه فنجد بحته القيم عن تطور مصر في القرن التاسع عشر، وعنوانه

"مصر عند مفرق الطرق" وهو عبارة عن تحقيق مخطوط "ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية" كما بينه حسين أفندي الروزنامجي من خلال الأسئلة التي وجهت إليه من قبل المسيو إستيف Estève مدير الإدارة المالية للحملة الفرنسية، لمعرفة أوضاع مصر الإدارية والمالية قبل مجيء الحملة، ويعد هذا التحقيق العلمي مثالاً يحتذى لنشر النصوص التاريخية.

ونشر أيضاً بحثاً عنوانه «الجنرال يعقوب والفارس لسكارس» وهو عبارة عن مجموعة محاضرات ألقاها في الجمعية الجغرافية، تناول فيه موضوع استقلال مصر عن الدولة العثمانية، بعد جلاء الفرنسيين عن مصر عام ١٨٠١، وذلك عن طريق التفاوض مع الدول الأوروبية الكبرى. ونشر في عام ١٩٤٤ كتاباً بعنوان «محمد علي الكبير» وهو من أحسن ما كتب عن أصول المجتمع المصري في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وما طرأ عليه من تغيرات كبيرة، وكيف نجح محمد علي في إنشاء سلطة مركزية قوية معتمداً على القوة والعلم والمال، بعكس ما حدث في الدولة العثمانية من فشل محاولات محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩) في الإصلاح لاعتماده على القوة العسكرية وحدها.

وقسم الأستاذ غربال موقف محمد علي من الدولة العثمانية إلى قسمين، القسم الأول محاولة الوقوف إلى جانب السلطان العثماني والعمل على تقويته حفاظاً على الدولة العثمانية الإسلامية، ولكن تغير هذا الموقف إلى محاولة الاستقلال عن الدولة العثمانية بعد صلح كوتاهية عام ١٨٣٣.

وفي عام ١٩٥٢ نشر كتاب "تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية" منذ الاحتلال ١٨٨٢ إلى معاهدة التحالف المصرية البريطانية عام ١٩٣٦. تعرض فيه للحركة الوطنية المصرية.

وكتاب «منهاج مفصل لدراسة العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ما هي عليه اليوم» وهو آخر ما كتبه الراحل، وهو عبارة عن مجموعة محاضرات ألقاها على طلبة معهد الدراسات العربية بالقاهرة، وأوضح في هذا الكتاب أن بناء الأمة العربية اعتمد على ثلاثة عوامل هي: الأوضاع الداخلية للعالم العربي، وأثر الحكم العثماني في الأمة العربية، ثم الأثر الأوروبي فيها. واعتبر أن التقاء هذه العوامل الثلاثة هو الذي بنى الأمة العربية على ما هي عليه اليوم.

ومن آثاره الباقية حتى يومنا هذا إنشاء الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ورئاستها، وإنشاء متحف الحضارة المصرية عام ١٩٤٩، وانتخابه عضواً بالمجلس التنفيذي لليونسكو عام ١٩٤٦. واختارته هيئة اليونسكو عام ١٩٥١ لعضوية لجنة من اثني عشر مؤرخاً على مستوى العالم ليكون مستشاراً في شئون تاريخ العالم.

كذلك كان عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، وعضواً بالمجمع العلمي المصري، ومجلس الآثار الأعلى، والجمعية الجغرافية.

وتولى منصب مدير معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية بعد تقاعده، واختار له صفوة من الأساتذة ليحاضروا فيه في مختلف الدراسات الأدبية، والتاريخية، والاقتصادية، والسياسية مع نشرها.

وفي أخريات أيام حياته أشرف على إخراج أول دائرة معارف عربية صغيرة باسم «الموسوعة العربية الميسرة». وكان رئيساً لمجلس إدارتها. ولكن لم يطل الأجل ليراهها مطبوعة إذ انتقل إلى لقاء ربه في ١٩ أكتوبر ١٩٦١.

تلاميذه

نشأ على يديه جيل من الأساتذة الذين أثروا المكتبة التاريخية بالعديد من المؤلفات القيمة. يأتي على رأسهم الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، والأستاذ الدكتور عبد العزيز الشناوي، والأستاذ أحمد أحمد الحته، والأستاذ الدكتور حسن عثمان، والأستاذ الدكتور محمد رفعت رمضان، ولكنني سأكتفي بذكر ثلاثة منهم هم :

١- أحمد عزت عبد الكريم.

٢- محمد مصطفى صفوت.

٣- محمد محمود السروجي.

١- الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

(١٩٨٠-١٩٠٩)

ولد أحمد عزت عبد الكريم عام ١٩٠٩ بمدينة شبين الكوم، وحصل على شهادة الليسانس عام ١٩٣٠ بدرجة ممتاز من كلية الآداب جامعة فؤاد الأول (القاهرة حالياً)، وعلى دبلوم معهد التربية العالي عام ١٩٣٣، وعلى درجة الماجستير من كلية الآداب جامعة فؤاد الأول عام ١٩٣٦، والدكتوراه من الكلية نفسها بمرتبة الشرف الممتازة عام ١٩٤٦ تحت إشراف الأستاذ محمد شفيق غربال.

وبعد حصوله على درجة الليسانس عمل مدرساً بوزارة التربية والتعليم، ثم معيداً ومدرساً وأستاذاً مساعد بكلية الآداب، وفي عام ١٩٦١ تولى عمادة كلية الآداب بجامعة عين شمس، ورئيساً لها في عام ١٩٦٨ إلى أن أحيل إلى المعاش في العام التالي. ويعتبر الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم من أشهر تلامذة الدكتور غربال ومن أحرصهم على اتباع منهج أستاذه في البحث العلمي، وفي العناية بتلاميذه في الدراسات العليا، وفي توجيههم لمسح التاريخ الحديث للوطن العربي، وتوزيعهم على دراسة أجزائه

سمنار التاريخ الحديث:

منذ عام ١٩٥٥ أقام حلقات دراسية نقاشية، وهو ما أطلق عليه اسم «سمنار التاريخ الحديث» في بيته أولاً، وعندما كثر عدد رواده نقل إلى كلية الآداب جامعة عين شمس، حيث يعقد مساء كل خميس.

وفي هذا السمنار كان يتابع مدى تقدم طلبته في بحوثهم، ومحاولة تذليل العقبات التي تعترض طريقهم. كذلك كان يطرح للنقاش الكتب الحديثة التي صدرت في التاريخ الحديث والمعاصر من كبار المؤرخين وذلك ليلم طلبته بآخر ما وصل إليه العلم من تقدم، وكنت أواظب على حضور هذا السمنار كلما أتيت لي فرصة الوجود بالقاهرة.

مؤلفاته:

- تاريخ التعليم في مصر في عصر محمد علي ١٩٣٨.

- تاريخ التعليم في عصر خلفاء محمد علي ١٩٤٥.
- البندقية جمهورية أرستقراطية ترجمة ١٩٤٨.
- المجمل في تاريخ مصر. ألفه مع آخرين.
- دراسات في التاريخ العربي الحديث ١٩٧٠.
- التنظيم الإداري بسوريا في العصر العثماني (حوليات كلية الآداب).
- التغير الاجتماعي لمجتمع القاهرة في القرن التاسع عشر.
- أزمة الفكر العربي في مطلع العصر الحديث.
- المؤتمرات التي اشترك فيها:
- مؤتمر التاريخ والآثار في المغرب عام ١٩٥٨.
- مؤتمر التاريخ الآسيوي في الهند عام ١٩٦١.
- مؤتمر التاريخ الدولي في بغداد.
- بالإضافة إلى المؤتمرات والندوات التي ينظمها سمنار كلية الآداب بجامعة عين شمس بصفة دورية.

الإعارات:

- عمل أستاذًا بجامعة دمشق .
- أستاذ بجامعة بنغازي بليبيا ١٩٦٠-١٩٦١.
- أستاذ بجامعة بيروت العربية ١٩٦١-١٩٧٠.
- الهيئات العلمية التي عمل بها:
- أسهم سيادته في العديد من الهيئات العلمية وهي:
- مقرر للجنة العلمية الدائمة لتعيين أساتذة التاريخ الحديث في الجامعات المصرية.

- عضو بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.
- رئيسًا للجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
- رئيسًا لقسم القومية العربية بمعهد البحوث والدراسات العربية.
- مديرًا لمركز دراسات الشرق الأوسط.

تلاميذه:

من أشهر هؤلاء التلاميذ الأستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم، وقد تخصص في منطقة الخليج، وله العديد من المؤلفات منها:

- تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ٥ أجزاء، دار الفكر العربي، ١٩٩٦.
- دولة البوسعيد في عمان وشرق أفريقيا (١٨٤١-١٨٦١) القاهرة ١٩٦٨.
- دراسة لتاريخ الإمارات العربية المتحدة (١٨٤٠-١٩١٤).
- دراسة لتاريخ الإمارات العربية (١٩١٤-١٩٤٥) القاهرة ١٩٧٣.
- ومن تلاميذه أيضًا الأستاذ الدكتور عبد العزيز سليمان نوار، وقد تخصص في تاريخ العراق، وأهم مؤلفاته:
- تاريخ العراق الحديث منذ نهاية حكم داوود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، القاهرة، ١٩٦٨.

- المصالح البريطانية في أنهار العراق، القاهرة، ١٩٦٨.

وكذلك من تلاميذه الأستاذ الدكتور عبد الله محمد عزباوي، وأهم مؤلفاته :

- المؤرخون والعلماء في مصر في القرن التاسع عشر، القاهرة، ١٩٩١.
- الشوام في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، القاهرة، ١٩٨٦.

الجوائز والأوسمة:

نال وسام الاستحقاق السوري عام ١٩٤٨، وجائزة الدولة في العلوم الاجتماعية من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية عام ١٩٧٥، وسام الجمهورية من الطبقة الأولى من الحكومة المصرية عام ١٩٧٥. وظل يؤدي عمله مجدية وإخلاص رغم تدهور حالته الصحية، وضعف بصره، إلا أن ذاكرته ظلت قوية وقادة حتى آخر لحظة من حياته. رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه خيرًا عما قدمه لوطنه والأمة العربية من خدمات.

٢- الأستاذ الدكتور محمد مصطفى صفوت

(١٩١١-١٩٦٠)

إذا ما ذكر تلاميذ الأستاذ الكبير محمد شفيق غربال، لا يذكر اسم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى صفوت من ضمنهم؛ وذلك لأنه حصل على درجة الدكتوراه من المملكة المتحدة عام ١٩٣٩. والحقيقة أن الدكتور صفوت قد التحق بكلية الآداب جامعة الملك فؤاد الأول (القاهرة حاليا) في عام ١٩٣٠، ودرس التاريخ الحديث على يدي الأستاذ غربال، وتخرج من الكلية عام ١٩٣٣، وكان ترتيبه الأول على دفعته بتقدير ممتاز. وفي عام ١٩٣٥ حصل على دبلوم معهد التربية العالي، وكان ترتيبه الأول بتقدير ممتاز.

أرسل في بعثته إلى المملكة المتحدة بتعريض من أستاذه للتخصص في التاريخ الحديث، ونال في عام ١٩٣٧ درجة الماجستير من جامعة ليفربول ودرجة الدكتوراه تحت إشراف الأستاذ «سيتون واطسون» Seton Watson من جامعة لندن في عام ١٩٣٩، وكان عنوانها

Tunis and the Great Power 1878-1881 P.F. Baganis, Alex, 1943.

وفي خلال تلك الفترة قام بدراسات وبحوث في دور الوثائق بلندن، وباريس، وبرلين، وفيينا، وفي معهد الدراسات التاريخية بلندن، وعندما عاد إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول، حصل على الدرجة الخامسة في يوليو ١٩٣٧، ورُقّي إلى الدرجة الرابعة (مدرس أ) في يوليو ١٩٤٤. ولما انشئت جامعة فاروق الأول (الإسكندرية حاليا) نقل إلى كلية الآداب بها، ورقي إلى أستاذ مساعد، وفي

أول أغسطس ١٩٥٠، ثم إلى درجة أستاذ كرسي التاريخ الحديث في عام ١٩٥٥.

ورغم قصر عمره - فقد توفي في عام ١٩٦٠ قبل أن يتم الخمسين - فله الكثير من المؤلفات القيمة، ومن باكورة إنتاجه العلمي بحث «التاريخ، أهميته وطرق تدريسه»، ونشر في مجلة العلوم التي تصدرها جمعية المعلمين بالقاهرة عام ١٩٤٢، وفي العام نفسه نشر بحثاً عن «مصر المعاصرة ١٨٧٩-١٩٣٧»، وهو عبارة عن فصل من كتاب «المجمل في التاريخ المصري». كما نشر له بحث في مجلة كلية الآداب - جامعة الملك فاروق الأول بالإنجليزية عنوانه:

British- Italian Relation in 1878. ، وذلك في عددها الصادر عام ١٩٤٣. ونظراً

لاهتمامه بتاريخ تونس فقد نشر بحثاً بالإنجليزية عن:

A British Consul General in Tunis Richard Wood 1856-1879.

كما اهتم بالتاريخ العثماني فأصدر كتاب «السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية» أوضح فيه نهاية الدولة البيزنطية، وكيف أن هذا الحادث الجلل قد هز كيان الدول الأوروبية. فضلاً عن فتوحاته الأخرى بالبندقية وجنوه وشبه الجزيرة الإيطالية، وتوسعه في المجر، البوسنة والهرسك وبلاد الأغرريق.

ثم اتجه بدراساته نحو مصر الحديثة والمعاصرة، فكتب كتابه القيم عن «الاحتلال الإنجليزي لمصر، وموقف الدول الكبرى إزاءه» عام ١٩٥٢، معتمداً اعتماداً أساسياً على الوثائق الإنجليزية والفرنسية والألمانية.

وفي عام ١٩٥١ قامت الجمعية الملكية للدراسات التاريخية بنشر كتابه الثاني عن مصر وهو «إنجلترا وقناة السويس ١٨٥٤-١٩٥١» وفي عام ١٩٥٦ أعاد طبعه مُهدياً إياه إلى أستاذه الكبير محمد شفيق غربال، مضيئاً إليه أحداث الفترة من ١٩٥٦-١٩٥١، حيث أتمت مصر قناة السويس. وأوضح سيادته بأن بريطانيا منذ أن نجحت في شراء أسهم الخديو إسماعيل في القناة عام ١٨٧٥، وهي تخطط للاستيلاء عليها إلى أن تحقق لها ذلك في عام ١٨٨٢، وبذلك تسيطر وحدها على مصر والقناة. ولكي ترضي الدول الأوروبية الكبرى، عقدت معها معاهدة القسطنطينية عام ١٨٨٨،

أعلنت فيها حرية الملاحة في القناة لجميع الدول على السواء في وقت السلم والحرب.

كما نشر في عام ١٩٥٧ كتابه عن «مؤتمر برلين ١٨٧٨ وأثره في البلاد العربية» وهو عبارة عن مجموعة محاضرات ألقاها على طلبة قسم الدراسات التاريخية بمعهد الدراسات العربية العالية، التابع لجامعة الدول العربية، وأوضح فيه سيطرة النفوذ الألماني على أوروبا، وسياستها في تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية، وأثر تلك السياسة على النشاط الاستعماري وقتئذ.

وألحقه في العام التالي ١٩٥٨ بكتاب «المسألة الشرقية ومؤتمر باريس» وهو أيضاً مجموعة محاضرات ألقى على طلبة معهد الدراسات العربية ويتعلق بحرب القرم ١٨٥٣-١٨٥٦ التي حدثت بين الدولة العثمانية وروسيا، والتدخل الإنجليزي لمساندة الدولة العربية، وهو ما أتاح للدولة العثمانية الاحتفاظ بممتلكاتها حتى قيام الحرب التركية الروسية ١٨٧٧/١٨٧٨، وعقد مؤتمر برلين.

وعندما تمت الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨، وتأسست الجمهورية العربية المتحدة، وأصدر كتاب «الجمهورية الحديثة»، تناول فيه نشأة الجمهوريات في العصر الحديث، مثل الجمهورية الفرنسية، وجمهورية الولايات المتحدة الأمريكية، والجمهوريات الأوروبية والأسبوية والأفريقية، والجمهورية المصرية، والجمهورية العربية المتحدة.

الرسائل العلمية:

أشرف الأستاذ الدكتور صفوت على الكثير من طلاب الماجستير والدكتوراه، وكنت أحدهم حيث أشرف على رسالة الماجستير وعنوانها «الجيش المصري في عهد الخديو إسماعيل ١٨٦٣-١٨٧٩» وحصلتُ عليها بمرتبة الشرف عام ١٩٥١، وكذلك أشرف على رسالة الدكتوراه وموضوعها «تاريخ مصر السياسي والحربي ١٨٦٣-١٨٧٩» وحصلت عليها عام ١٩٥٥ بمرتبة الشرف الأولى. وكما أشرت من قبل ناقشني في الرسائل الأستاذ محمد شفيق غربال، والأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن علاقتي بأستاذاي كانت علاقة حميمة، فهو لم يكن مشرفاً علي ومرشدي، بل كان صديقي أيضاً، وكنت ساعده الأيمن في النواحي العلمية، إذ لم يكن بفرع

التاريخ الحديث سوانا نحن الاثنين رغم كثرة عدد المواد، ومن ثم كان العبء الأكبر في التدريس يقع على كتفي.

ونظرًا للتعاون الوثيق بيننا فكان يطلب مني أن أجلس على مقعد بحجرتي طوال فترة العمل، لأكون قريبًا منه لإنجاز ما يريد، ولما وجد أن جلوسي بحجرتي يحرمني من استخدام مكتبي الموجود بحجرة المدرسين، أمر بنقله إلى حجرتي، فأحدث هذا نوعًا من التذمر لدى أساتذته الفروع الأخرى؛ لأن هذا سيشتجع المدرسين الآخرين على أن يطلبوا معاملتهم بالمثل. وفتاحوا أستاذي في هذا الأمر، فرد عليهم برد جميل أوضح فيه أن ما تم هو لصالح العمل، ولراحتنا نحن الاثنين، وليس في هذا العمل اعتداء على أحد، وكل إنسان حر في حجرتي.

وكان رحمه الله دمث الخلق، أنيقًا في ملبسه، مخلصًا لعمله، عطوفًا على تلاميذه، محبًا للخير، وأسكنه الله فسيح جناته، وجزاه على ما قدمه للعلم ولوطنه من خدمات.

الأستاذ الدكتور محمد محمود السروجي

ولدت بالإسكندرية وتلقيت تعليمي الابتدائي والثانوي والجامعي بها، والتحق بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول (الإسكندرية حاليا) عندما أنشئت عام ١٩٤٢، وحصلت على الليسانس من قسم التاريخ عام ١٩٤٦، وكان ترتيبني الأول على دفعتي بتقدير ممتاز (نظام الامتياز) وذلك أثناء عملي لوظيفي.

حصلت على الماجستير بمرتبة الشرف الأول عام ١٩٥١، وعلى شهادة الدكتوراه من الكلية نفسها عام ١٩٥٥ بمرتبة الشرف الأولى تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد مصطفى صفوت. ومن حسن حظي أن ناقشني في الرسائل الأستاذان محمد شفيق غريال، والأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، أي إنني أصبحت تلميذًا للأساتذة الثلاثة الكبار في الوقت نفسه. والحقيقة أن صلتي لم تنقطع بالأستاذين الكبيرين منذ مناقشة رسالة الماجستير، وكنت على اتصال دائم بهما، واستفدت من توجيهاتهما في الإعداد لرسالة الدكتوراه الشيء الكثير.

التدرج الوظيفي:

- أمين مكتبة كلية الآداب جامعة فاروق الأول (الإسكندرية حالياً) عام ١٩٤٨.
- مدرس مساعد بالكلية نفسها عام ١٩٥١.
- مدرس بقسم التاريخ بالكلية عام ١٩٥٥.
- أستاذ مساعد بالقسم في أوائل عام ١٩٦٢.
- أستاذ كرسي التاريخ الحديث والمعاصر بالكلية إلى أن أحلت على المعاش.

المهام العلمية:

كلف من الكلية بمهمة جمع الوثائق والمخطوطات بدير سانت كاترين في أواخر عام ١٩٦٣، بالاشتراك مع جامعتي برنستون Princeton ومتشجان Michigan بالولايات المتحدة الأمريكية.

وفي عام ١٩٧٥ قمت بزيارة العراق بدعوة من اتحاد المؤرخين العرب للتعرف على نظم الدراسة بالجامعات العراقية، والقاء بعض المحاضرات بها، وفي ١٩٧٦ زرت المملكة العربية السعودية بدعوة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وذلك لوضع لأئحة للدراسات العليا، واقتراح المناهج الدراسية.

الإعارات:

أُعيرتُ أستاذًا للتاريخ الحديث والمعاصرة لمدة عامين (١٩٧٠-١٩٧٢) لجامعة بنغازي بليبيا. وفي عام ١٩٧٦ أعيرت لكلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية للتدريس لطلبة الدراسات العليا والإشراف على الرسائل (الماجستير والدكتوراه) واستمرت الإعارة أحد عشر عامًا.

لجان الترقيات:

كنت عضوًا بلجنتي ترقيات الأساتذة والأساتذة المساعدين قبل إعارتي للسعودية وخلال

فترة الإعرارة اشتركت في ترقية عدد كبير بالسعودية، وبجامعة بغداد والمستنصرية والموصل بالعراق، وجامعة الأردن والكويت، وما زالت هذه الجامعات تستعين بي حتى يومنا هذا.

الرسائل العلمية:

أشرفت على عدد كبير من طلبة الماجستير والدكتوراه داخل مصر وخارجها. كما وصل مجموع عدد الرسائل التي أشرفت عليها، والتي ناقشتها على المستوى المصري والعربي ما يربو على المئتي رسالة.

عضوية الجمعيات العلمية:

- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
- عضو اتحاد المؤرخين العرب منذ نشأته في العراق.
- عضو بالمركز القومي للدراسات النابليونية وتاريخ جزيرة ألبا بإيطاليا.
- Centro Nationali Di Studi Napolconici E Di Storia D'ell Elba.
- عضو بجمعية الآثار بالإسكندرية.
- عضو بجمعية الآثار بالقاهرة.
- عضو لجنة مستشاري الاقتناء بمكتبة الإسكندرية الجديدة.

شهادات التقدير:

- شهادة تقدير بمناسبة الاحتفال باليوبيل الذهبي بكلية الآداب جامعة الإسكندرية عام ١٩٩٢.
- شهادة تقدير من اتحاد المؤرخين العرب ببغداد عام ١٩٩٦.
- شهادة العضوية الشرفية لجمعية المؤرخين المغاربة عام ١٩٩٩.
- ميدالية ذهبية بمناسبة مساهمتي في مؤتمر «المملكة العربية السعودية» في مائة عام، الرياض ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩

- درع اتحاد المؤرخين العرب بمناسبة احتفالية تكريم شوامخ المؤرخين ٢٠٠٩.

المؤلفات:

تسعة عشر (١٩) كتابًا، والاشتراك في موسوعة المرجع في تاريخ الأمة العربية، الجزء السادس، ببحث عن "الأوضاع العسكرية: بدايات قيام الجيوش الوطنية وآثارها في تدعيم نظام الدولة الحديثة"، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس ١٩٩٧.

الكتب التذكارية:

- كتاب تذكاري لتكريم المؤرخ التركي المعاصر خليل الساحلي أوغلو، مؤسسة التميمي، تونس ١٩٩٧.

- كتاب تذكاري لتكريم المؤرخ الفرنسي المعاصر أندريه ريمون، مؤسسة التميمي، تونس، ٢٠٠٤.

- كتاب تذكاري في عدد خاص من مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، لتخليد ذكرى الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم، ٢٠٠٨.

- كتاب تذكاري في عدد خاص من مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، لتخليد ذكرى الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، ٢٠٠٨.

البحوث المنشورة بالدوريات العلمية:

عدد هذه البحوث سبعة عشر (١٧) بحثًا في مختلف موضوعات التاريخ الحديث والمعاصر.

الندوات والمؤتمرات:

أشرتكت في ست وسبعين (٧٦) ندوة ومؤتمر، قدمت فيها تسعة وأربعين (٤٩) بحثًا في مختلف موضوعات التاريخ الحديث والمعاصر، منها ثلاثة بحوث بالدول الأوروبية: البحث الأول في جزيرة إلبا بإيطاليا عام ١٩٦٩، والثاني ببلدة Spa ببلجيكا في المدة من ١٦-١٩ سبتمبر ١٩٧١، والثالث بمدينة غرناطة بإسبانيا من ٩-١٣ ديسمبر ٢٠٠٣.

علاقتي بالأستاذ الكبير محمد شفيق غربال:

سبق أن نوهت بأن الأستاذ الكبير ناقشني في رسالة الماجستير عام ١٩٥١ وعنوانها "الجيش المصري في عصر الخديو إسماعيل ١٨٦٣-١٨٧٩"، وفي رسالة الدكتوراه عام ١٩٥٥ وعنوانها "تاريخ مصر السياسي والحربي ١٨٦٣-١٨٧٩"، وقد أبدى إعجابه الشديد بهما.

وقد شجعني مالمقيته من إعجاب وتشجيع في مناقشة الماجستير أن أواصل التقرب منه، وأن أزوره في بيته للاستفادة من المكتبة القيمة التي يكتنيها، واستمرت هذه العلاقة الطيبة إلى أن لقي ربه في ١٩ أكتوبر ١٩٦١.

وفي عام ١٩٦٠ توفي أستاذي الدكتور محمد مصطفى صفوت فجأة بعد وعكة صحية استمرت أيام، ففقدت بموته سنداً قوياً، إذ لم يكن رحمه الله أستاذاً ومرشداً فحسب لي، وإنما كان صديقاً وقيماً، قلما نفترق عن بعضنا. وترتب على ذلك أن وقع عبء تدريس مواد التاريخ الحديث على عاتقي وحدي، وفي هذه السنة نشرت أول كتاب لي وهو «العلاقات بين مصر وأثيوبيا في القرن التاسع عشر» بعد وفاة أستاذي الأستاذ الدكتور محمد مصطفى صفوت، فطلبت من الأستاذ غربال أن يتكرم بكتابة المقدمة له. فرحب بذلك.

اتجه نظري إلى الاستعانة بأستاذي الكبير محمد شفيق غربال لمعاونتي في التدريس، ولا سيما وأنا أعرف مدى حبه للإسكندرية التي نشأ بها. والحقيقة أن استعانتي به لم يكن لعدم مقدرتي على تدريس المادة التي اختارها، ولكن لأمل الفراغ النفسي الذي تركه وفاة أستاذي، رحب الأستاذ غربال بذلك، وحدد يوماً معيناً للتدريس في الصباح، وقد اعتاد على النزول بفندق بوريفاج برمل الإسكندرية، وفي حجرة معينة. واعتاد سيادته على الاتصال بي تليفونياً عند وصوله الفندق للحضور، حيث نجلس في حديقة الفندق نتجاذب أطراف الحديث إلى أن يحين موعد نومه، وكثيراً ما كان يستحضر معه إحدى المجلات العلمية الإنجليزية، ويطلب مني الاطلاع على بحث منشور بها لأحد المؤرخين الأجانب، على أن نتناقش فيما ورد به من آراء في الأسبوع القادم. وكان يهدف من وراء ذلك - على ما اعتقد - إلماي بمدى التقدم العلمي في مجال التاريخ الحديث

في الدول الأوروبية، ولعلمه بعدم قدرتي على شراء تلك الدوريات أو الحصول عليها.
ولقد وجدت في سيادته نعم العون عن فقد أستاذي، لا سيما وأنه حبابي من الرعاية والعطف
الشيء الكثير.

لم يطل به الأجل إذ توفي في ١٩ أكتوبر ١٩٦١، وقد انتدبتني كليتي لتشجيع جنازته إلى مثواها
الأخير، حيث دفن بمقابر أسرته بالعامود بالإسكندرية.
رحم الله الأستاذ الكبير محمد شفيق غربال رحمة واسعة جزاء ما قدمه للعلم من خدمات.



لماذا شَفِيقُ غُرْبَالٍ من شَوَامِخِ المؤرِّخين؟

١. د. رَأْفَتُ غَنِيمِي الشَّيْخ

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب - جامعة الزقازيق

مُقَدِّمَةٌ :

خيرًا أحسنت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بتخصيص ندوة عن المؤرخ محمد شفيق غربال، حيث إن تذكر شوامخ المؤرخين المصريين من جانب أهم مؤسسة علمية ترعى تاريخ مصر وعلاقاتها العالمية يمثل جهدًا كبيرًا مشكورًا، كما أنه كان مطلوبًا.

ومن ثم جاء اختياري لورقة العمل التي أتقدم بها للندوة بعنوان: لماذا شفيق غربال من شوامخ المؤرخين، بتسجيل حياته العلمية بوصفه مؤسس للجمعية التاريخية المصرية، وعضواً بمجمع الخالدين (مجمع اللغة العربية).

وبالمناسبة فإنني أقترح أن تصدر الجمعية موسوعة بعنوان: «المؤرخ مصري» يشترك فيها جميع المتخصصين في التاريخ القديم والإسلامي والوسيط والحديث والمعاصر لترجمة حياة الأعلام والشوامخ من المؤرخين القدامى والمحدثين، بما يسمح لشباب المؤرخين الاستفادة من جهود الشوامخ من مؤرخي مصر.

ورؤيتي في إصدار هذه الموسوعة تتمثل في الأمور الآتية:

- ١- زيادة المؤرخين المصريين في الدراسات التاريخية على المستوى المحلي والعربي والدولي.
- ٢- إبراز الدور الوطني للمؤرخ المصري الذي لا يوجد من يباريه في الوطنية والإنتاج العلمي المتميز.
- ٣- إثبات أن المؤرخ المصري وطني لحماً ودمًا وفكرًا وإنتاجًا ومكانة عربية وعالمية، كما أنه ضمن المنظومة العربية التي تمثل مصر قلبها وعقلها.
- ٤- أن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية التي تضم كبار أساتذة التاريخ المصري المعاصرين وشباب المؤرخين - امتداد للرواد والأساتذة ومقرها مدينة القاهرة عاصمة جمهورية مصر العربية.
- ٥- أن اتحاد المؤرخين العرب مقره مدينة القاهرة، تأكيدًا على مكانة شوامخ المؤرخين المصريين

عبر العصور التاريخية، وفي كل تخصصات المؤرخين، والاتحاد يمثل عقل وفكر مؤرخي الأمة العربية، وفي مقدمتهم المؤرخين المصريين.

وهكذا تبجى ندوة شفيق غربال تأكيداً لأصالة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية على أمل الاستمرار في هذا النهج العلمي الوطني.

لماذا غربال من الشوامخ؟

أولاً - نشأته وتربيته والتعليم الذي تربى فيه:

ولد محمد شفيق غربال بمدينة الإسكندرية في ٤ يناير عام ١٨٩٤م، في حي يحمل اسم عائلته (حي غربال)، وكانت أسرته من أثرياء الثغر بما يمتلكون من زراعات وبما يمارسون من تجارة، وقد هيأت له الأسرة الإعداد المتميز سواء في التعليم بمصر أو خارج مصر.

التحق محمد شفيق غربال بالمدرسة الابتدائية بحي غربال، ثم التحق بمدرسة رأس التين الثانوية حيث حصل على شهادة التوجيهية (الثانوية العامة) عام ١٩١٢م، وبعدها التحق بمدرسة المعلمين العليا بالقاهرة وتخرج منها عام ١٩١٥م، وكان محمد شفيق غربال مغرمًا بقراءة كتب التاريخ، حيث قرأ كتاب: وفيات الأعيان كاملاً لابن خلكان وهو تلميذ بالمدرسة الثانوية.

ورغم سنوات المعارك الحربية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٩م)، فقد وافق على السفر إلى بريطانيا في بعثة رسمية للحصول على درجة الليسانس (البكالوريوس) في التاريخ الحديث بجامعة ليفربول Liverpool حيث درس إلى جانب التاريخ علوم: الاقتصاد، الفلسفة، الجغرافيا، ومناهج البحث وطريقة قراءة الوثائق واستخراج الحقائق التاريخية منها.

التعليم الذي تربى فيه شفيق غربال:

يتأثر التعليم في أي بلد بالأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البلد، ومن ثم فإننا عند مناقشة إنجازات التعليم في عهد كل من الخديو محمد توفيق والخديو عباس حلمي الثاني لا بد من استعراض - في عجالة - الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في ظل

الاحتلال البريطاني لمصر من ١٨٨٢-١٩١٤م.

ففي المجال الاقتصادي سيطر الأجانب على هيكل الاقتصاد المصري، كما انتعشت الرأسمالية المصرية المتمثلة في بعض المصريين والمتمصرين، إلى جانب التخلف الاقتصادي المتمثل في التخصص الزراعي أي الاعتماد على محصول واحد هو القطن، وانتشار البطالة وانخفاض مستوى المعيشة وتأخر الحرف والصناعات القائمة.

وفي المجال السياسي كان الصراع قائماً على النفوذ السياسي في البلاد بين سلطات الاحتلال بزعامة اللورد كرومر المعتمد البريطاني، وبين السراي مقر الخديو، وبين الأحزاب السياسية التي بدأت في أوائل القرن العشرين وأهمها الحزب الوطني وحزب الأمة وحزب الإصلاح وغيرها.

وفي المجال الاجتماعي كان المجتمع المصري يتكون من كبار الملاك الزراعيين، ومن الفلاحين والعمال الحرفيين الذين يمثلون سواد الشعب المصري، ومن المثقفين في الطلاب والموظفين والعسكريين وأصحاب المهن الحرة، ومن الطوائف غير المصرية المتمثلين في الأوروبيين والأتراك والأرمن والشوام.

ورغم أن سياسة الاحتلال التعليمية اقتصرت على تقليص التنمية التعليمية بالتقليل من عدد المدارس والمعلمين، إلا أن الفرص التعليمية التي أتاحتها سلطات الاحتلال أمام المصريين استخدمت أداة للقهر السياسي بتربية الشباب على النفاق والخنوع والخوف من خلال وجود مستشار إنجليزي لوزارة المعارف المصرية ينفذ هذه السياسة. كما قامت سياسة الاحتلال التعليمية في مصر على استخدام التعليم أداة للجمود الاجتماعي من خلال تقليل الإنفاق على التعليم وفرض المصروفات على طلاب التعليم، والتشدد في أعمال الامتحانات. كما أن التعليم في عهد الاحتلال استخدم أداة للتخريب الثقافي بمحاربة اللغة العربية وفرض تعلم اللغة الإنجليزية، وتشجيع النشاط التربوي الأجنبي من خلال المدارس الأجنبية للأوروبيين والأمريكيين واليهود^(١).

أقول رغم هذه السياسة التعليمية الموجهة لسلطات الاحتلال البريطاني في مصر فقد كانت

(١) سعد مرسي وسعيد إسماعيل: تاريخ التربية والتعليم، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٤٤٤-٤٧٦.

هناك جهود وطنية مصرية لمواجهة هذه السياسة تمثل إنجازًا حضاريًا لمصر تمثل في الآتي:

أ- اهتمام الحركة الوطنية المصرية بتعليم أبناء الشعب لزيادة الوعي بالقضية الوطنية المتمثلة في جلاء الإنجليز عن الأرض المصرية ورفع الأيدي الأجنبية المتسلطة على أمور مصر السياسية والاقتصادية. فكانت سياسة مصطفى كامل ومحمد فريد والحزب الوطني الدعوة لإنشاء مدارس ليلية لتعليم العمال والفلاحين واهتمام أعضاء الجمعية العمومية بضرورة إشراف الحكومة على التعليم النهوض به.

وقد تمثلت الجهود الوطنية في التعليم من خلال الجمعيات الخيرية الإسلامية، والقبطية التي اهتمت بنشر التعليم، مثل الجمعية الخيرية الإسلامية التي تأسست بالقاهرة عام ١٨٩٢م وجمعية العروة الوثقى الخيرية الإسلامية بالإسكندرية والتي تأسست أيضًا ١٨٩٢م. ومثل جمعية المساعي الخيرية وهي أول جمعية خيرية مسيحية أسست في مصر عام ١٨٩١م، وجمعية الإيمان القبطية عام ١٨٩٩م، وجمعية المحبة بالظاهر وأنشأت عام ١٩٠١م، وجمعية ثمره التوفيق بالفجالة وتأسست عام ١٩٠٨م^(١).

ب - إنشاء الجامعة الأهلية:

يمكن التأريخ لفكرة إنشاء جامعة أهلية مصرية منذ عام ١٩٠٠م عندما دعا مصطفى كمال بإنشاء مدرسة جامعة وتتكون من المراحل الثلاث الأولى والوسطى والعلوية، وعاود مصطفى كامل الدعوة لإنشاء الجامعة المصرية أعوام ١٩٠٤، ١٩٠٥م وعام ١٩٠٦م خلال كتاباته وأحاديثه، وكما دعت جريدة المؤيد في مقال نشر عام ١٩٠٦م إلى تأييد فكرة إنشاء الجامعة المصرية، كما شاركت عدة صحف أخرى في تأييد الفكرة.

وبدأت خطوات تأييد الفكرة بالدعوة إلى التبرع لصالح إنشاء الجامعة، وكان أول المتبرعين مصطفى بك كامل الغمراوي أحد أغنياء بني سويف الذي تبرع من تلقاء نفسه بمبلغ خمسمائة جنيه، ثم اتفق المؤيدون للفكرة على الاجتماع في منزل سعد زغلول بك المستشار في محكمة

(١) جرجس سلامة: أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القومي في مصر ١٨٨٢-١٩٢٢م، القاهرة ١٩٦٦، ص ٤٠٠-٤١٤.

الاستئناف الأهلية يوم ١٢ أكتوبر ١٩٠٦ ونشروا في الصحف الدعوة للاجتماع وقد تقرر في الاجتماع ما يلي:

١- إنشاء لجنة تحضيرية من كل من: سعد زغلول بك وكيلاً للرئيس العام، وقاسم أمين بك سكرتير اللجنة، وحسن سعيد بك أميناً للصندوق. وعضوية كلاً من: عثمان أباطة، ومحمد راسم بك، وحسن جمجوم بك، وحسن السويدي بك، وأخنوخ أفندي فانوس، وزكريا أفندي نامق، ومحمود الشيشيني بك، ومصطفى كامل الغمراوي بك.

٢- تأجيل انتخاب الرئيس العام إلى الجلسة القادمة.

٣- نشر الدعوة في جميع الصحف المحلية عربية وفرنسية.

٤- تسمى هذه الجامعة "الجامعة المصرية".

٥- الاجتماع مرة أخرى بدعوة خصوصية لانتخاب الرئيس وأعضاء اللجنة النهائية.

٦- دعوة أبناء الشعب المصري لتأييد الفكرة وتدعيمها مادياً ومعنوياً.

وعندما عُيِّن سعد زغلول ناظرًا للمعارف انسحب من عضوية اللجنة وحل محله قاسم أمين بك، وقبل الخديو عباس حلمي الثاني وجعل اللجنة تحت رعايته وجعل ولي عهده رئيس شرف لها، وبذلك أعلن الأمير أحمد فؤاد رئيساً للجامعة في جلسة ٣١ يناير ١٩٠٨م. وقد احتفل رسمياً بافتتاح الجامعة المصرية في القاعة الكبرى بمجلس شورى القوانين بحضور الخديو عباس الثاني في ٣١ ديسمبر عام ١٩٠٨، وعاشت الجامعة من البداية على تبرعات أفراد الشعب واعتمدت في المحاضرات على طائفة من الأساتذة المصريين والأجانب واستقرت حينئذ في دار "جاناكليس" وكانت الحكومة تقدم معونة للجامعة، وأرسلت الجامعة بعثات إلى أوروبا.

وقد اعترفت الحكومة بالجامعة المصرية، وبادر حسين رشدي باشا أحد أعضاء الجامعة بتقدير إعانة سنوية من وزارة الأوقاف قدرها خمسة آلاف جنيه كل سنة ابتداء من عام ١٩٠٨م. وكان اعتراف الحكومة بالجامعة قد جاء في خطاب من مصطفى فهمي باشا ناظر الداخلية إلى

الأمير أحمد فؤاد باشا رئيس مجلس إدارة الجامعة بتاريخ ١٦ يونيو عام ١٩٠٨م^(١).

وقد تبرعت الأميرة فاطمة إسماعيل بمساحة من الأرض بنيت عليها كلية الآداب بالجامعة المصرية كما تبرع آخر هو حسن بك زايد بخمسين فدان وقفها للجامعة، وتم ضم بعض المدارس العليا إلى الجامعة بعد أن صارت جامعة حكومية لتكون بعض كلياتها، ثم افتتاح الجامعة المصرية كجامعة حكومية في عام ١٩٢٥م^(٢) ووضع حجر الأساس للمدينة الجامعية ومساكن الطلاب بيد الملك فاروق الأول بتاريخ ١١ فبراير ١٩٤٦م. وهي الآن جامعة القاهرة بعد أن كانت جامعة فؤاد الأول، حيث تغير الاسم بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.

ذلك كان نظام التعليم الذي تربى فيه محمد شفيق غربال، ثم كان طموحه لاستكمال تعليمه

وفي عام ١٩١٩م حصل محمد شفيق غربال على درجة البكالوريوس الممتازة بمرتبة الشرف في التاريخ الحديث، ولم يتوقف عند هذا الحد، بل واصل دراسته للحصول على درجة الماجستير في التاريخ الحديث من جامعة لندن بإشراف العالم والمؤرخ البريطاني الشهير آرنولد توينبي Arnold Toynbee وقد أجازته المشرف بعد أن انتهى من إعداد رسالته للحصول على درجة الماجستير في التاريخ الحديث بعنوان: مصر بين عهدين، بداية القضية المصرية، وظهور محمد علي.

حصل محمد شفيق غربال على الماجستير عام ١٩٢٤م بإشراف المؤرخ العالمي آرنولد توينبي^(٣)، وكانت هذه الدرجة الجامعية حدثاً علمياً استرعى أنظار الأساتذة والباحثين، خاصة وأنها اعتمدت على الوثائق الأوروبية، غير المنشورة، وكان هذا الأمر جديداً في تاريخ الدراسات التاريخية في مصر، كما أن الرسالة اتسمت بالتحليل والموضوعية واستقراء الأحداث.

(١) جرجس سلامة، المرجع السابق، ص ٤١٥-٤٢٥.

(٢) سعد مرسي وسعيد إسماعيل: المرجع السابق، ص ٤٨٠.

(٣) المؤرخ البريطاني العالمي الموسوعي آرنولد توينبي المشهور بمؤلفاته وأهمها مؤلفه المكون من ١٠ مجلدات بعنوان دراسة للتاريخ A study Of History كما كانت مواقفه الموضوعية في قضايا العالم مثل النازية، ومذابح اليهود للعرب في فلسطين. ونضيف أفكار توينبي ومنهجه في دراسة التاريخ باعتباره أستاذاً لشفيق غربال الذي تأثر بها في إعداد كاستاذ في جامعة فؤاد الأول (القاهرة) ..

ثانياً - وظائفه:

كانت أول وظيفة تقلدها محمد شفيق غربال بعد عودته من بريطانيا حاملاً درجة البكالوريوس في التاريخ الحديث عام ١٩٢٥م هي وظيفة مدرس للتاريخ بكلية المعلمين العليا - الكلية التي تخرج منها قبل بعثته إلى بريطانيا - ثم نقل إلى وظيفة أستاذ مساعد للتاريخ الحديث بكلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة فؤاد الأول) عام ١٩٢٩م.

وبهذا كان محمد شفيق غربال أول مصري يقوم بتدريس التاريخ في الجامعة المصرية، حيث كان الأجانب يحتلون معظم كراسي التدريس بالجامعة، وعندما تم الاستغناء عن المؤرخ البريطانيين جرانت Grant عام ١٩٣٦م تم ترقية محمد شفيق غربال أستاذاً للتاريخ الحديث؛ وبذلك كان محمد شفيق غربال أول مصري يتولى كرسي الأستاذية في قسم التاريخ بكلية الآداب، وفي عام ١٩٣٩م تم تعيين محمد شفيق غربال وكيلاً لكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ثم انتخب عميداً لها.

وبسبب عدم الاستقرار في وزارة المعارف العمومية (وكانت الجامعة تخضع لإشرافها) خاصة أثناء سنوات الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) نُقل محمد شفيق غربال للعمل مستشاراً فنياً لوزارة المعارف العمومية عام ١٩٤٠م مع استمراره في إلقاء المحاضرات على طلاب كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول، حتى تم تعيينه وكيلاً مساعدًا لوزارة المعارف العمومية، واستمر يجمع بين العملين حتى عام ١٩٤٢م.

وعندما عاد للعمل كأستاذ بجامعة فؤاد الأول تاركاً وظيفته التي نقل إليها في وزارة المعارف العمومية في ديسمبر ١٩٤٢م، شعر بأنه عاد إلى مكانه الطبيعي فأعطى كلية الآداب كل جهده، وتابع تلاميذه ومكنهم من البحث العلمي، وبعد ثلاث سنوات أعيد نقل محمد شفيق غربال إلى وزارة المعارف العمومية مستشاراً فنياً لها، ثم وكيلاً للوزارة إلى جانب تعيينه أستاذاً غير متفرغ بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول عام ١٩٤٩م.

وبعد بلوغ محمد شفيق غربال سن التقاعد تولى منصب مدير معهد البحوث والدراسات

العربية التابع لجامعة الدول العربية، وفي عهد إدارته للمعهد أخرج المعهد عددًا من الدراسات العلمية القيمة في الأدب والتاريخ والاقتصاد والسياسة وعمل على توجيه الطلاب المصريين والعرب الملتحقين بالمعهد إلى تاريخ الأمة العربية الحديث والمعاصر وأشرف على عدد من رسائلهم التي اتخذت هذا الاتجاه .

تأثر محمد شفيق غربال بالظروف المعاصرة وأرنولد توينبي :

عاش أرنولد توينبي من ١٨٨٩ إلى ١٩٧٣م أي أنه شهد تطورات خطيرة في العالم في تلك الفترة فقد جاء إلى الحياة وقد بلغت الثورة الصناعية أوجها، كما اتسعت الأطماع الاستعمارية العالمية في البلاد التي كانت مهدًا للحضارة القديمة مثل مصر والهند والصين والعراق والشام وغيرها إلى جانب بقية شعوب القارة الأفريقية والقارة الآسيوية.

كما شهد أرنولد توينبي اندلاع الحرب العالمية الأولى سواء في أوروبا أو في الشرق الأوسط، تلك الحرب التي قادتها العسكرية الألمانية وسط تحالفات واتفاقيات بين أطراف الصراع في أوروبا المتمثلة في إنجلترا وفرنسا والروسيا وإيطاليا، تلك الحرب التي انتهت بتوقيع العقوبات على ألمانيا المهزومة وكانت عقوبات قاسية تجعل من الصعب على الألمان الاستمرار في الخضوع لها دون محاولة تغييرها بالقوة.

كما شهد أرنولد توينبي اندلاع الحرب العالمية الثانية بين معسكرين حضاريين حضارة حديثة في غرب أوروبا وشرقها وفي أمريكا وفي شرق آسيا، معسكر يتمثل في الحضارة الجرمانية ومعه حضارة اليابان في الشرق الأقصى إلى جانب الحضارة الإيطالية المعاصرة وريثة الحضارة اللاتينية القديمة، والمعسكر الثاني يتمثل في الحضارة الأنجلوسكسونية إلى جانب الحضارة الفرنسية المعاصرة مع الحضارة الأمريكية المزدهرة إلى جانب حضارة الاتحاد السوفيتي بشرق أوروبا.

لقد عايش أرنولد توينبي الصدام بين المعسكرين الحضاريين المتصارعين، وشاهد الدمار الذي تخلف عن هذا الصدام فانفعل بالأحداث المعاصرة وشعر بالقلق عن مصير الحضارة الغربية المعاصرة من الزوال، فانكب يدرس الحضارات القديمة لمعرفة أسباب تدهورها وفنائها.

حياة أرنولد توينبي وأفكاره :

ولد أرنولد توينبي عام ١٨٨٩م في إنجلترا ودرس اللغتين اليونانية واللاتينية، وأحاط بالحضارة الهيلينية التي تعتبر في رأيه أساسية في فهم الحضارة الغربية المعاصرة، وعاش أحداث الحربين الأولى والثانية فافعل بها، وجاءت نتيجة ذلك موسوعته الضخمة "دراسة للتاريخ" التي قضى في تأليفها حوالي ٤٠ سنة من عام ١٩٢١م إلى عام ١٩٦١م في عشرة مجلدات اختصرت بعد ذلك إلى أربعة مجلدات ترجمت إلى اللغة العربية بمعرفة الأستاذ فؤاد شبل.

وقد ألف أرنولد عدة كتب أخرى منها: تاريخ الحضارة الهيلينية، معالجة مؤرخ للدين، محاكمة الحضارة، الحرب والحضارة، أمريكا والثورة العالمية، الثورة الصناعية، التجربة الحاضرة في الحضارة الغربية، العالم والغرب^(١).

يشير أرنولد توينبي إلى أن ميدان الدراسة القابل للفهم بذاته هو المجتمع الذي يضم عددًا من الجماعات من النوع الذي تمثله بريطانيا، لا بريطانيا وحدها، ولكنه يضم فرنسا وإسبانيا وهولندا وبلجيكا والبلاد الإسكندنافية وغيرها.

ويضيف أن العوامل المؤثرة في المجتمع لم تكن قومية الطابع ولكنها صدرت عن أسباب أوسع مدى تؤثر على جزء من الأجزاء، كما أن المجتمع الذي يضم هذه الأجزاء يجابه أثناء حياته مشكلات متتابعة تفرض على كل عضو فيه أن يحلها لنفسه على خير ما يستطيع وتعتبر كل مشكلة تحديدًا لعضو المجتمع تفرض عليه محنة يجتازها، وتؤدي تلك السلسلة من المحن إلى تمايز أعضاء المجتمع بالتدرج بعضهم عن بعض^(٢).

كما أن أرنولد توينبي يرى أن حقل الدراسة التاريخية متسع للغاية ولا حدود له، ولكن على المؤرخ أن يستعيد ويميز الوحدات الحضارية، ويقوم بدراسة العلاقات على المستويين الخارجي والداخلي ويركز توينبي اهتمامه على مجتمع غرب أوروبا المسيحي فيدرسه دراسة تراجعية حتى

(١) أحمد صبحي: المرجع السابق، ص ٢٥٩.

(٢) أرنولد توينبي: مختصر دراسة التاريخ، ج١، ص ٧.

يصل إلى جذوره الأولى، ثم يطبق المنهج نفسه على الحضارات الأربع المتبقية التي هي أكثر قدمًا من حضارة غرب أوروبا، ويفيض في دراسة العلاقة بين هذه الحضارات الخمس.

ويذكر أرنولد توينبي أن هناك خمسة مجتمعات حضارية قائمة حتى اليوم هي:

١- مجتمع مسيحي كاثوليكي وبروتستانتي تمثله أوروبا الغربية.

٢- مجتمع مسيحي أرثوذكسي في جنوب شرقي أوروبا.

٣- مجتمع إسلامي يمتد من المحيط الأطلسي عبر شمال أفريقيا والشرق الأوسط حتى الواجهة الخارجية من سور الصين العظيم.

٤- مجتمع هندوكي في القسم الاستوائي من الهند.

٥- مجتمع الشرق الأقصى في المنطقتين شبه الاستوائية والمعتدلة الممتدة بين المنطقة القاحلة في غرب آسيا والمحيط الهادي.

كما أضاف أرنولد توينبي أننا إذا أمعنا النظر فإنه يمكن أن نميز كذلك مجموعتين تبدوان كبقايا متحجرة من مجتمعات مشابهة اندرست أي اختفت في الوقت الحاضر هما:

(أ) المجموعة الأولى تشمل المسيحيين المينوفيستيين القائلين بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح في أرمينيا وما بين النهرين ومصر والحبشة، والנסاطرة المسيحيين في كردستان، والנסاطرة السابقين في ملابار، ويضاف إلى ذلك اليهود والمجوس.

(ب) المجموعة الثانية تشمل البوذيين المعتنقين مذهب "ماهايانا" وهم البوذيون الساكنون في الصين واليابان وغيرهما من مناطق آسيا الشمالية، في التبت ومنغوليا، وتشمل البوذيين أتباع مذهب "هيناياما" وهم بوذيو آسيا الجنوبية في سيلان وبورما وسيام وكبوديا، كما تشمل أتباع مذهب "الجين" وهم طائفة هندية غنية تنتشر في شمال غرب الهند بصفة خاصة وتؤمن باستقلال الروح عن الجسد وقمع الشهوات، ويحذرون من إيذاء كل حي تطبيقًا لمبدأهم في تقديس الأرواح، وهم في الهند^(١).

(١) أرنولد توينبي: المرجع السابق، ص ١٤-١٥.

ومع تسجيل هذه المجتمعات الحضارية على اختلافها فإن أرنولد توينبي انتقد مؤرخي الغرب القائلين بأن الحضارة الغربية أعظم الحضارات قيمة، وأن هذا القول راجع إلى سيادة الحضارة الغربية الحديثة في المجالين الاقتصادي والاجتماعي، وهي في رأيه أنانية تماثل ادعاء اليهود بأنهم شعب الله المختار أو قدامى اليونانيين أن غيرهم من الأمم برابرة.

© ومن وظائف محمد شفيق غربال الأخرى ما يأتي:

- ١- عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة^(١).
- ٢- عضواً بالمجمع العلمي المصري.
- ٣- عضواً بالجغرافية الملكية.
- ٤- عضواً بجمعية الاقتصاد والتشريع.
- ٥- عضواً بجمعية الآثار القبطية.
- ٦- عضواً بالمجلس الأعلى للآثار.
- ٧- عضواً بلجنة الترجمة بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.
- ٨- عضواً بمجلس جامعة عين شمس.

(١) نصّت المادة الثانية من قانون المجمع اللغوي (مارس ١٩٢٢م) أن: الغرض من هذا المجمع ترقية اللغة العربية وإحياء ما تدعو إليه الحاجة مما دثر في مفرداتها، وأول أعماله جمع المواد اللازمة لوضع معجم حسن الترتيب سهل التناول وشامل للألفاظ المدونة في المعجمات المتداولة الآن ولغيرها مما قد استعمله أولو الدراية ولا تأباه أقبية اللغة ولما يرتضيه المجمع أو يضيفه من أسماء المسميات الحديثة والمصطلحات العلمية والفنية ونحوها للوفاء بالحاجات المتجددة التي تقتضيها حالة العمران. د. عبد المنعم الدسوقي الجميبي: مجمع اللغة العربية دراسة تاريخية منشورات مصر النهضة - مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ١٩٨٣، ص ١٢١

هذا . وقد شارك محمد شفيق غربال في أنشطة مجمع اللغة العربية، حيث شارك في المؤتمرات الثقافية للجامعة العربية، منها الاشتراك في المؤتمر الثقافي العربي الثالث الذي عقد في بغداد في الفترة من ٨ إلى ٢٨ نوفمبر ١٩٥٧م، وكان موضوعه: مناهج التاريخ والجغرافيا في البلاد العربية، وقد مثل المجمع في هذا المؤتمر الدكتور منصور فهمي رئيس المجمع والأستاذ محمد شفيق غربال. د. عبد المنعم الدسوقي الجميبي: المرجع السابق، ص ٨٢.

٩- عضوًا بمجلس إدارة معهد البحوث والدراسات العربية.

١٠- رئيسًا للجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

ثالثًا- إنجازاته:

أنجز محمد شفيق غربال أثناء حياته العلمية التي امتدت حتى وفاته في ١٩ أكتوبر ١٩٦١م كثيرًا من الإنجازات العلمية التي تعد من مآثره وأفضاله على الدراسات التاريخية والأكاديمية من أهمها:

١- إنشاء الجمعية المصرية للدراسات التاريخية^(١).

٢- إنشاء متحف الحضارة المصرية عام ١٩٤٩م.

٣- خدم مصر أثناء قيامه برئاسة وفد مصر في الجمعية لليونسكو.

٤- كما خدم مصر أثناء عضويته بالمجلس التنفيذي لليونسكو من عام ١٩٤٦ حتى عام ١٩٥٠م ممثلًا للشرق الأوسط.

٥- كما خدم مصر كذلك عام ١٩٥١م عندما تم اختياره لعضوية لجنة من أبرز مؤرخي العالم ليكونوا مستشارين لليونسكو في شئون تاريخ العالم.

(١) بعد عودة شفيق غربال من بعثته بالجلترا سعى من أجل إنشاء الجمعية التاريخية حتى صدر المرسوم الملكي في عام ١٩٤٥م بإنشاء الجمعية وتعيينه نائبًا لرئيس الجمعية، ثم انتخب عام ١٩٥٦م رئيسًا للجمعية، حيث أنشأ مكتبة الجمعية بتزويدها بالكتب المتخصصة والمصادر الأصلية، وقد أشرف على إصدار مجلة الجمعية التي تصدر سنويًا، وإصدار مجموعة من مطبوعات الجمعية القيمة. وقد شارك شفيق غربال خلال الموسمين الثقافي للجمعية ١٩٥٨/١٩٥٩م بعدة محاضرات ألقاها بالجمعية، كان أهمها:

١- التاريخ والمؤرخون في أوروبا في القرن السابع عشر والثامن عشر.

٢- الأصول التاريخية للديمقراطيين المعاصرين.

٣- المؤرخون ووحدة العالم.

٤- توينبي Toynbee المؤرخ والديانات.

د. عبد المنعم إبراهيم الدسوقي الجميبي: الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، دراسة تاريخية لمؤسسة علمية (١٩٤٥-١٩٥٨) ص ١٤٧-١٤٨، القاهرة، ١٩٨٥م.

٦- أشرف على إخراج الموسوعة العربية الميسرة، وهي أول دائرة معارف عربية صغيرة أصدرتها موسوعة فرانكلين، وقد أتاح له إشرافه على هذا العمل أن يخرج للقراء عملاً عربياً خالصاً، فكان رئيساً لمجلس إدارتها، ومشرفاً على تحرير المواد التاريخية، لكنه لم ير هذا العمل مطبوعاً حيث توفي بعد مرض قصير.

رابعاً- مؤلفاته:

دَرَسَ محمد شفيق غربال الأصول التاريخية التي كَوَّنت تطور مصر في القرن التاسع عشر ومنها:

- ١- بحث عميق بعنوان: « مصر عند مفرق الطرق » .
- ٢- بحث بعنوان: « الجنرال يعقوب والفارس لسكاريس ومشروع استقلال مصر سنة ١٨٠١م »، وتناول فيه فكرة استقلال مصر عن تركيا على أساس التفاوض في العواصم الأوروبية.
- ٣- كتاب « محمد علي الكبير »، صدر سنة ١٩٤٤م، ويعد هذا الكتاب على صغر حجمه من أفضل الدراسات التاريخية التي كتبت باللغة العربية.
- ٤- بحث نُشر عام ١٩٥٢ بعنوان: « تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية منذ الاحتلال البريطاني سنة ١٨٨٢م إلى معاهدة التحالف المصرية البريطانية في سنة ١٩٣٦م » .
- ٥- آخر ما كتبه بعنوان: « منهاج مفصل لدراسة العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ما هي عليه اليوم »، والكتاب ليس تاريخاً للأمة العربية، ولكنه فلسفة لتاريخها، وهو في الأصل محاضرات ألقاها على طلاب معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة.
- ٦- على الرغم من شدة اهتمام محمد شفيق غربال بالترجمة باعتبارها وسيلة لتزويد المكتبة بروائع الفكر الأجنبي، فإنه لم يمارس الترجمة كثيراً، والكتاب الوحيد الذي ترجمه إلى العربية هو: « المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن الثامن عشر » .

هذا وقد أورد الأستاذ الدكتور عبد المنعم الدسوقي الجميبي في كتابه عن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، قائمة بأوراق محمد شفيق غربال أودعها بالجمعية نجله الدكتور مراد محمد شفيق غربال بعد وفاة والده، وهي تشمل ما يأتي ويمكن إضافتها مع مؤلفاته. وهي:

- ١- مخطوط تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان للتونسي.
- ٢- تاريخ في شأن الوزير محمد علي باشا للخليل بن أحمد الرجي.
- ٣- رسائل خطابات بالإيطالية متبادلة بين بعض زعماء المماليك «مراد بك والبرديسي وغيرهما».
- ٤- ذكر التراجم الموجودة في تاريخ الجبرتي «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» للسنوات ١٢١٣ و ١٢١٤ و ١٢١٥ م.
- ٥- تراجم مشاهير الإيطاليين المقيمين في مصر أو بخارجها في أيام الوالي محمد علي باشا.
- ٦- تاريخ حياة إسكندر باشا فهمي.
- ٧- مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين للجبرتي.
- ٨- تقرير بالإنجليزية عن الإحصائيات الاقتصادية لسوريا مقدم من دكتور بورنج إلى لورد بالمرستون عام ١٨٤٠.
- ٩- مخطوط عربي عن سورية ومعه مقال بالإنجليزية عن اتفاقية الحدود السورية ١٨٠٠-١٩٥٠.
- ١٠- مجموعة أوراق مطبوعة بالفوتوستات تتعلق بحكيكيان بك المهندس في عصر محمد علي.
- ١١- مجموعة مراسلات من بورنج إلى بوغوص بك.
- ١٢- رسالة دكتوراه بعنوان «العلاقات المصرية الإنجليزية وأثرها في تطوير الحركة الوطنية في مصر» للدكتور أحمد فريد علي.
- ١٣- «مصر المستقلة» ترجمة عربية لكتاب محمد أمين يوسف Independent Egypt.

- ١٤- مقررات كلية المعلمين بمصر الجديدة.
- ١٥- موجز رسالة للأستاذ محمود صالح منسي.
- ١٦- رسالة دكتوراه مقدمة من الأستاذ أحمد طربين موضوعها «أزمة الحكم في جبل لبنان منذ سقوط الأسرة الشهابية حتى استقرار عهد المتصرفين».
- ١٧- كراسات تحوي ترجمة عربية قام بها الأستاذ أحمد خاكي وزميل له لفصل كتبه باللغة الإنجليزية المؤرخ محمد شفيق غربال في موضوع «آراء وحركات في التاريخ الإسلامي».
- ولأهمية هذه الأوراق شكل مجلس إدارة الجمعية التاريخية لجنة للنظر فيها ثم تقديم تقرير عنها مع ذكر وسائل صيانتها ومدى الاستفادة منها وما تراه اللجنة صالحاً للنشر من هذه الأوراق، وقد تشكلت اللجنة من الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى والدكتور محمد محمود الصياد والدكتور الشاطر بوصيلي أعضاء والدكتور عبد الرحمن زكي مقررًا.

خامسًا : الدراسات عن شفيق غربال :

- تعددت - على قلتها - الدراسات عن محمد شفيق غربال ، ومنها:
- ١- شفيق غربال مؤرخًا، د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، مجلة الجمعية التاريخية المصرية، عام ١٩٦٣م.
- ٢- شفيق غربال: مكتبة العرب.
- ٣- محمد شفيق غربال وصناعة المؤرخين، من إسلام أون لاين نت.
- ٤- محمد شفيق غربال: عبد الرحمن بيطار، الموسوعة العربية.



شفيق غُرْبَال
ومدرسة التاريخ الوطني

أ. علي بركات
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة حلوان

في مقدمة كتابه «عجائب الآثار» تحدث الجبرتي عن تلك النظرة الهابطة التي كان ينظر بها معاصروه إلى التاريخ بقوله: «ولم تنزل الأمم الماضية من حين أوجد الله هذا النوع الإنساني (من المعرفة) تعني بتدوينه سلفاً عن خلف إلى أن نبذه أهل عصرنا وأغفلوه وتركوه وأهملوه وعدوه من شغل البطالين»^(١).

غير أن هذه النظرة الهابطة للتاريخ أخذت تتغير تدريجياً خلال القرن التاسع عشر. حيث إنه ابتداء من عام ١٨٣٧ أصبح التاريخ علماً معترفاً به ضمن مناهج الدراسة بمدرسة الألسن، ثم بمدرسة دار العلوم بعد ذلك، هذا التطور في النظرة إلى التاريخ وبالتالي الاعتراف به كعلم كان وراءها عدد من العوامل:

١- التطور الذي حدث في النظام التعليمي ابتداءً من عهد محمد علي وإدخال التعليم الحديث في مصر، وما صاحب ذلك من إرسال البعثات إلى أوروبا في معظم التخصصات المعروفة في ذلك الوقت. وعودة هؤلاء المبعوثين والدور الذي لعبه هؤلاء في عملية تطوير التعليم، وخاصة رفاعة رافع الطهطاوي، وقد نتج عن ذلك إدخال التاريخ كعلم في برامج الدراسة في مدرسة الألسن عام ١٨٣٧، وقد صاحب عملية تدريس التاريخ بهذه المدرسة ترجمة لمؤلفات تاريخية مهمة قام بها رفاعة وتلاميذه، وعندما أنشئت مدرسة دار العلوم كجزء من النهضة التعليمية التي شهدتها عصر إسماعيل والتي قادها علي مبارك أصبح التاريخ ضمن مناهجها، وكان التاريخ العام ضمن المواد التي شملتها خطة الدراسة التي تم وضعها عام ١٨٧٤، وعندما عين الشيخ محمد عبده مدرساً للتاريخ بمدرسة دار العلوم عام ١٨٧٨ كان يقوم بقراءة مقدمة ابن خلدون على طلابه كجزء من مقرر التاريخ.

٢- انتشار الطباعة: التي بدأت بشكل فعلي بإنشاء مطبعة بولاق عام ١٨٢٢ التي تطورت لتصبح أكبر مطبعة عربية في العالم العربي في القرن التاسع عشر، بالإضافة إلى المطابع الأخرى التي أنشئت خلال عصر محمد علي، وفي هذه المطابع طبعت الكتب التاريخية مترجمة ومؤلفة

(١) عجائب الآثار، مطبعة بولاق ١٨٨٠، ج ١، ص ٥.

مما جعلها متاحة حتى لغير المتخصصين ، فيذكر أحمد عرابي في مذكراته: أن سعيد باشا أهدها كتاب تاريخ نابليون بالعربية ويقول «إن اطلاعه على ذلك الكتاب كان سبباً في مطالعته لكثير من التواريخ الغربية»^(١).

٣- الدور الذي لعبته الصحافة في نشر المعرفة التاريخية : فقد عرفت مصر الصحافة منذ الحملة الفرنسية لكنها توقفت بخروج الفرنسيين، ثم أنشأ محمد علي الوقائع عام ١٨٢٨، لكنها توقفت عن الصدور خلال عهدي عباس وسعيد، إلا أن الصحافة قد شهدت ازدهاراً خلال عصر إسماعيل حيث ظهرت العديد من الصحف، وإن كان بعضها لم يعمر طويلاً إما بسبب صعوبات مالية أو بسبب موقف الحديو إسماعيل منها، وخلال تلك الفترة والفترة الأولى من عهد الاحتلال كانت أهم دور النشر في مصر يملكها مهاجرون سوريون. غير أن الفترة التالية شهدت زيادة كبيرة في عدد الصحف الذي وصل عددها إلى ١٧٦ صحيفة في القاهرة وحدها عام ١٩٠٤م، كما تم كسر احتكار السوريين للملكية الصحف، وأصبحت الأحزاب والتنظيمات السياسية التي ظهرت في ذلك الوقت لها صحفها الخاصة بها والتي تعبر عن وجهة نظرها، وأصبحت الصحف تنقل المعلومات المباشرة على صفحاتها إلى كل ركن في مصر بما في ذلك المعلومات التاريخية، وكانت صحيفة «روضة المدارس» منذ عهد إسماعيل تنشر مقالات ذات طابع تاريخي لرفاعة رافع بل إن كتاب «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز» قد بدأ رفاعة في نشره على حلقات بهذه المجلة .

٤- الجمعيات العلمية: ولعل أبرزها الجمعية الجغرافية التي أُنشئت عام ١٨٧٥ ، وكان الهدف من إنشائها العناية بالأبحاث الجغرافية والأبحاث العلمية بشكل عام . وفي هذا الاتجاه نشرت الجمعية أبحاثاً أثرية وتاريخية لمؤرخين من أمثال محمود الفلكي وأحمد كمال وغيرهما.

٥- وهناك عامل آخر يتعلق بانتشار الثقافة وارتفاع وعي الشعب خلال التحرك الوطني في أواخر عصر إسماعيل ، وهو التحرك الذي انتهى بقيام الثورة العربية، وعملية التعبئة الشعبية

(١) في هذا راجع: جمال الدين الشيال، التاريخ والمؤرخون في القرن التاسع عشر، القاهرة، ١٩٥٨، ص ١٦٦ ..

التي صاحبته والتي لعب فيها عبد الله نديم دورًا واضحًا^(١).

هذه العوامل خلقت وعيًا بأهمية التاريخ لدى المجتمع، وعلى هذا فقد شهد القرن التاسع عشر كتابات تاريخية تختلف من حيث المنهج عن كتابات المؤرخين السابقين على القرن التاسع عشر، كما ظهر نوع جديد من الكتابة التاريخية يمكن أن يصنف ضمن المذكرات السياسية التي كتبها أولئك الذين عاشوا تجربة الثورة العربية وعاشوا أحداثها، من أمثال: أحمد عرابي وعبد الله نديم، والشيخ محمد عبده، ومحمود فهمي.

وفي هذا الاتجاه يقال أن الشيخ محمد عبده قد ألف كتابًا في فلسفة الاجتماع والتاريخ كان يضم محاضراته التي ألقاها في مدرسة دار العلوم خلال عامي ١٨٧٨/ ١٨٧٩ عن ابن خلدون وآرائه في الاجتماع^(٢).

وفي ظل الاحتلال البريطاني تصدت العناصر الأجنبية والمتصرة لكتابة تاريخ تلك الفترة، فكتب ملنر كتابه «إنجلترا في مصر»، وكتب كرومر كتابه «مصر الحديثة»، كما كتب خليل نقاش «مصر للمصريين». وكلها تقوم على تشويه الثورة العربية وإدانتها كحركة وطنية، ويبدو أن ذلك كان وراء ظهور تلك المذكرات السياسية وفي مقدمتها مذكرات أحمد عرابي التي كتبها بعد عودته من المنفى وانتهى من كتابتها في ٢٦ يوليو سنة ١٩١٠، والتي لم تنشر نشرًا كاملاً إلا بعد قيام ثورة سنة ١٩٥٢. ومن الواضح أن هذه المذكرات قد كتبها أحمد عرابي للرد على تلك الكتابات التي حاولت تشويه الثورة فهو يقول في مقدمتها: «أما بعد فإنني قد اطلعت على كثير من الجرائد والتواريخ العربية والأجنبية الموضوعة في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العربية فلم أجد فيها ما يقرب من الحقيقة أودشني غليل روادها، لذلك رأيت أن أكتب للناس كتابًا يهتدون به إلى تلك الحقيقة، تمحيصًا للتاريخ من درن الأهواء الفاسدة والمفتريات الباطلة»^(٣).

(١) المرجع السابق، ص ١٦٧.

(٢) المرجع السابق.

(٣) كتاب الهلال، عدد مايو ١٩٩٠، ص ١١، ١٢.

وكتب محمد عبده كتاب: تاريخ أسباب الثورة العربية، نشرت بعض أجزائه في كتاب محمد رشيد رضا «تاريخ الأستاذ الإمام»، كما استفاد منه صبري السريوني في إعداد رسالته للدكتوراه في الجزء الخاص بالثورة العربية، ويقول جمال الدين الشيال أن اختفاء ذلك الكتاب وعدم نشره يرجعان إلى ما احتواه من معلومات وحقائق عن أسباب الثورة ورجاها.

وكتب عبد الله نديم مذكراته السياسية والتي نشرها محمد أحمد خلف الله وقدم لها عام ١٩٥٦ وهي تلقي بعض الضوء على مقدمات الثورة العربية وأحداثها. كما كتب محمود فهمي مذكراته التي قدر لها أن تنشر تحت عنوان «البحر الزاخر في أخبار الأوائل والأواخر».

أما ما كتبه رفاة رافع الطهطاوي في مناهج الألباب عن فائض القيمة في العمل الزراعي فهو يقترب من التفسير المادي للتاريخ^(١).

وعلى هذا فإن شفيق غربال ينتمي إلى جيل النهضة الفكرية التي شهدتها مصر الحديثة والتي بدأها رفاة رافع الطهطاوي، وقد تضلع كثيرون من أبناء ذلك الجيل في الثقافتين العربية والإسلامية، وأضافوا إليهما الكثير من المنجزات الفكرية التي شهدتها أوروبا خلال عصر الاستنارة، فضلاً عن تمكنه من المنهج التاريخي الذي يقوم على الربط والتحليل والمقارنة مع قدرته على الأداء اللغوي، وكان هذا الأداء والمنهج في التاريخ موضع إعجاب طلابه؛ فقد كان المنهج الجديد لم يسبق للمؤرخين المسلمين أن مارسوه بهذا الشكل المستند إلى أنماط جديدة لم تكن معروفة في الفكر العربي.

ويمكن فهم الفكر التاريخي عند غربال على ضوء ثلاثة عوامل^(٢):

الأول: «إن غربال» قد تلقى المراحل العليا من دراسته على يد المؤرخ البريطاني المعروف «أرنولد توينبي» الذي حاول التوصل إلى العوامل التي تحكم قيام الحضارات وانهارها. وكان أهم القوانين التي توصل إليها في هذا المجال هو قانون التحدي والاستجابة ودور النخبة والقادة

(١) مطبعة الرغائب بمصر، ١٩١٢، ص ٩٣-٩٤.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى، في تقديم كتاب محمد علي الكبير، كتاب الهلال، عدد أكتوبر، ١٩٨٦.

في دفع عجلة التاريخ ، ومن ذلك ذهاب توينبي إلى القول بأن قيام الحضارة المصرية القديمة كان مرتبطًا بالتحدي الذي شكله النيل بفيضانه المدمر أحيانًا والمنخفض أحيانًا أخرى، الأمر الذي استلزم قيام سلطة الفراعنة ونخبهم المكونة من الكهنة والفنيين^(١).

وتقوم نظرية التحدي والاستجابة عند توينبي على أن الحضارة ليست نتائج جنس معين أو بيئة جغرافية معينة ، وإنما هي نتيجة للاستجابة لتحديات معينة تتسم بالصعوبة وتشتت الإنسان للقيام بمجهود في التغلب على تلك الصعوبات. وأولها البيئة الطبيعية ، ومن أجل التغلب على الطبيعة استطاعت شعوب معينة أن تصنع حضارة متقدمة ؛ فحضارة الصين القديمة نتجت من طبيعة النهر الأصفر الذي لم يكن صالحًا للملاحة في بعض مناطقَه فضلًا عن أن مياهه تتجمد في شهور الشتاء وقد كان ذلك دافعًا لظهور حضارة الصين..

وقد يكون التحدي بشريًا كما هو الحال في حالة إسبرطة وضيق مساحة أراضيها الزراعية، ويرى توينبي أن نشأة الحضارة وتطورها نتجت عن التحديات التي واجهها الإنسان وتمكن من التغلب عليها ، وقد أوضح توينبي أن الظروف الطبيعية التي واجهها الإنسان هي التي حفزته للتقدم باستثارة قوى الإبداع فيه.

وقد يأتي التحدي من ظروف بشرية كعدوان أو تهديد خارجي. ويرى أرنولد توينبي أن التحدي المثير للاستجابة لا يجب أن يكون ضعيفًا بحيث لا يحفز الطرف الآخر على الاستجابة، ولا يكون بالغ الشدة بحيث يحطم روح الطرف المقاوم ؛ وإنما يكون التحدي في مستوى يستثير الطاقات المبدعة لدى الشعب الواقع عليه التحدي، ومعه تصبح الاستجابة للتحدي عملية تؤدي إلى ارتقاء المجتمع في جوانبه الروحية والفكرية. وعلى هذا فالتاريخ من هذا المنظور سلسلة من التحديات والاستجابة لها. وأن هذا التحدي تقوم به أقلية مبدعة، وأن عمليات الإبداع الاجتماعي هي نتيجة أعمال أفراد عباقرة، أو أقليات عبقرية وأن صناعات التاريخ هم تلك الشخصيات الخلاقة التي تقوم بأعمال يعجز غيرهم عن القيام بها ، ويظهر أولئك الأفراد

(١) المرجع السابق..

في صورة فلاسفة وقديسين ورجال دولة ، وهؤلاء العظماء هم الذين يصنعون المدينيات ويعملون على تقدمها ..

وخلاصة رأي توينبي أن ظهور الحضارات هو نتيجة لتحد صادر إما عن البيئة المادية أو عمل بشري أو كليهما^(١).

ويجعل توينبي من قانون التحدي والاستجابة سبباً في انهيار الحضارات ؛ فتكرار التحدي التي تواجه حضارة معينة إما أن ينتهي بالاستجابة لذلك التحدي فتستمر تلك الحضارة في التقدم ، وإما أن تخفق تلك الحضارة في مواجهة ذلك التحدي فتتهار وذلك عندما تتكرر الاستجابات المخففة على تلك التحديات. ثم يذكر توينبي أسباب أخرى لانهيار الحضارات منها: إخفاق الأقليات المبدعة، وانصراف الجماهير عنها وذلك عندما تفقد الأقلية المبدعة طاقتها الإبداعية ومن ثم تتحول إلى أقلية متسلطة. عند ذلك تسحب الجماهير ثقتها من تلك الصفة المبدعة وتكف عن محакاتها عن ذلك يحدث انشقاق في الكيان الاجتماعي وتتداعى وحدة المجتمع^(٢).

وقد ضمن أرنولد توينبي نظريته في التحدي والاستجابة مؤلفة الضخم والذي استغرق إعداد حوالى أربعين عاماً وبلغت عدد صفحاته ٦٢٩٠ صفحة، وقد انتهى توينبي من ذلك العمل عام ١٩٦١ وجاء الأصل في عشر مجلدات. أضاف إليها توينبي مجلدين رد فيهما على الانتقادات التي وجهت لذلك العمل، وكانت وحدة الدراسة عند توينبي المجتمعات والحضارات وليس العصور والتي قسمها إلى ٢١ حضارة بخلاف الحضارة التي أسماها الحضارات المتحجرة ومنها الحضارة اليهودية^(٣).

وقد كان غربال شديد الإعجاب بأستاذه ونظرياته في تفسير التاريخ، الذي طبق غربال

(١) نيفين علم الدين، فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩١م

(٢) مختصر دراسة التاريخ، ترجمة فؤاد شبل، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٧، ص ١٦٠، ١٦٨، ٢١٤.

(٣) نيفين علم الدين : المرجع السابق .

جوانب منه على بعض دراساته خاصة كتابه «تكوين مصر»؛ ففي هذا الكتاب يتضح تأثر غربال بمنهج توينبي؛ ففي كتابه «تكوين مصر» حاول شفيق غربال دراسة تاريخ مصر على ضوء حقائق المكان. وهو هنا يسبق ما قدمه سليمان حزين في حضارة أرض الكنانة وجمال حمدان في شخصية مصر.

أما كتاب شفيق غربال «محمد علي الكبير» ففيه تضخيم لدور محمد علي في تاريخ مصر الحديث وواضح فيه أيضًا تأثر شفيق غربال بفكر أرنولد توينبي حول الصفوة المبدعة.

ثمة عامل آخر ساهم في تحديد الرؤية التاريخية عند شفيق غربال، هو إحساس غربال بدوره الثقافي الرائد ونزعتة الأرستقراطية التي جعلته يركز على دور النخبة ويهمل التيارات الجماهيرية وينظر إليها من عل. ومن ثم ارتباطه بالتكتلات السياسية التي عرفت بأحزاب الأقلية والتي كانت تستقطب عددًا غير قليل من مفكري مصر الذين مجوا «ديماجوجية» الوفد حزب الأغلبية حتى عام ١٩٥٢. واصطدامه بحزب الوفد في أوائل الأربعينيات حين كان وكيلًا مساعدًا لوزارة المعارف وعودته لقاءات الدرس. حتى إذا ما عادت أحزاب الأقليات للحكم عاد غربال لتولي بعض الوظائف الرئيسية في حقل التعليم. في حين كان حكم الوفد مؤذنًا في كل مرة بعودته إلى الجامعة والتدريس. هذا العداء للوفد لعب دورًا في التقريب بين غربال والقصر. لقد ركز شفيق غربال في كتاباته التاريخية على القلة الموجهة والزعامات الفردية خاصة في مجال الفكر، يتضح ذلك من الشخصيات التي عرض لها في أحاديثه الإذاعية كسقراط وأبي العلاء المعري وابن تيمية وجمال الدين الأفغاني وغيرهم والذين قال عنهم أنهم غيروا مجرى التاريخ^(١).

ثالثًا: وهو عامل يتعلق بتبني جيل الرواد من أمثال محمد رفعت ومحمد صبري السربوني وشفيق غربال لنظرية الرجل العظيم في كتابة التاريخ ويرجع ذلك إلى ثلاثة أسباب :

(١) أن جيل الرواد من المؤرخين المصريين قد شغلته قضية تمصير كتابة التاريخ المصري، بمعنى كتابته بأيدي مصرية ومن وجهة نظر مصرية بعد أن هيمن الأجانب على كتابة تاريخ

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، شفيق غربال مؤرخًا، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ١١، سنة ١٩٦٣.

مصر لبعض الوقت.

(٢) أن طلائع الباحثين المصريين الذين تعلموا في الغرب من أمثال محمد رفعت ومحمد صبري السريوني وشفيق غربال لم يلتفتوا إلى المعركة التي كانت تدور في الغرب في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بين المدرسة التقليدية التي ترى أن التاريخي هو علم تسجيل الحوادث، ووصفها وتسلسلها وترى أن الحدث التاريخي حدث متفرد، ومن الصعب أن نجد له أسباباً موضوعية لأنه يتم بطريقة عشوائية يلعب الأبطال فيها دوراً بارزاً، وبالتالي فإن التاريخ الأجدر بالدراسة هو تاريخ الأحداث السياسية، والوقائع العسكرية، وهو من هذا المنظور تاريخ عظماء الرجال من أمثال الإسكندر الأكبر، ويوليوس قيصر، ونابليون ومحمد علي وغيرهم من العظماء^(١).

وبين المدرسة التي كانت تعارض هذا الاتجاه وهي مدرسة إميل دوركايم التي ترى أن الظواهر التاريخية، تحكمها قوانين موضوعية وأنها قابلة للاكتشاف، وأن مهمة المؤرخ هي اكتشاف هذه القوانين، وأنه يمكن استنباط أفكار أو صيغ عامة لتفسير الظواهر الاجتماعية من خلال دراسة التاريخ، وترى هذه المدرسة أن التاريخ الحقيقي لأي جماعة من الناس هو تاريخها الاجتماعي. ذلك لأن الفرد لا يتحرك في فراغ بل هو جزء من المجتمع، والمجتمع ليس قطيعة معدوم الإرادة إزاء ما يتصوره القادة المبرزون :

لم يلتفت هؤلاء الباحثين إلى نتائج هذه المعركة، ومن ثم عادوا متأثرين بالفكر الليبرالي وما يرتبط به من تمجيد لدور الفرد والصفوة أكثر من تأثرهم بالمدرسة الاجتماعية في دراسة التاريخ^(٢).

(٣) الدور الذي لعبته الملكية في عهدي فؤاد وفاروق في محاولة كتابة تاريخ مصر الحديث، مع إبراز الدور الإيجابي الذي لعبته أسرة محمد علي في هذا التاريخ وخاصة فرع إبراهيم، ومحاولة اجتذاب المؤرخين المصريين النابهين من أمثال شفيق غربال إلى جانب من استعانت بهم من

(١) حول مدرسة الرجل العظيم في تفسير التاريخ يمكن مراجعة: غوردون تشايلد، التاريخ، ترجمة عدلي برسوم،

مكتبة القاهرة، بدون، ص ٦٥ - ٧٠ .

(٢) علي بركات، مقدمة كتاب الملكية الزراعية بين ثورتين، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ١٩٧٩م.

الأجانب وفي هذا الاتجاه أنشئت الجمعية التاريخية الملكية التي أصبح شفيق غربال نائباً لرئيسها المنتسب إلى الأسرة المالكة^(١).

وأخيراً: فإن شفيق غربال كان واحداً من جيل الرواد الذين كان عليهم أن يخوضوا معركة ضارية من أجل تمصير الوظائف في الجامعة وتعريب الدراسة بها.

لقد كان جيل الرواد من المصريين لا يتعدى بضعة أساتذة كان معظمهم في الثلاثينيات من العمر مثل: طه حسين، ومصطفى فهمي، وأحمد أمين، وعالم المصريات سليم حسن، والمؤرخ شفيق غربال، ومحمد كامل مرسي أستاذ القانون، أما إبراهيم حسن أستاذ الطب المعروف فكان يكبرهم ببضع سنين حيث كان عمره يقترب من الأربعين عاماً عام ١٩٢٥ «العام الذي تحولت معه الجامعة إلى جامعة حكومية». وكان على هؤلاء أن يخوضوا معركة في اتجاهين، الأول تمصير الوظائف في الجامعة وقد كانت مقاومة الفرنسيين والإنجليز لعملية تمصير الجامعة ضارية، وكانت السفارة البريطانية لا تزال لها نفوذها. وقد استمرت عملية التمصير حوالي ثلاثين عاماً بعد صدور تصريح فبراير عام ١٩٢٢م^(٢).

وكانت كلية الحقوق أول كلية يتم تمصير منصب العميد فيها. وكانت الطب هي الكلية الثانية التي جرى تمصير وظائفها حيث حل المصريون محل الأجانب الذين تركوا الجامعة خلال الحرب الأولى وفي عام ١٩٢٩ أصبح على إبراهيم عميداً للطب وكان الأجانب يشغلون ذلك المنصب منذ عام ١٨٩٠.

وفي الآداب أصبح طه حسين عميداً للكلية عام ١٩٣٠ خلفاً لعميدها الفرنسي، وكانت العلوم هي الأخيرة من كليات الجامعة التي أصبح عميدها مصرياً عام ١٩٣٦، وكانت كلية دار العلوم هي الوحيدة الذي كان عميدها مصرياً من البداية.

(١) أسد رستم: مقدمة كتاب وثائق الشام في المحفوظات الملكية المصرية، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٤٠م.

(٢) Reid, D. M. Cairo University and the Making of Modern Egypt Cambridge University Press,

أما الاتجاه الآخر من المعركة فكان تعريب الدراسة في الجامعة ؛ ففي كلية الحقوق كان الطلاب المصريون يدرسون القانون بالفرنسية لعدة أجيال منذ أن كانت مدرسة للحقوق والتي كان عمرها يزيد على خمسين عامًا.

ففي كلية الحقوق والآداب سارت محاولات تعريب الدراسة جنبًا إلى جنب مع عملية تمصير وظائف أعضاء هيئة التدريس ، مع استثناءات محدودة لبعض المستشرقين الذين كانوا يحاضرون باللغة العربية وبعض المصريين في أقسام اللغات الأجنبية الإنجليزية والفرنسية. ويستثنى من ذلك كلية الطب وكلية العلوم التي استمر التدريس فيهما باللغة الإنجليزية، وإن كان قد جرى التأليف والتدريس فيهما باللغة العربية على الرغم من ذلك استمرت التعبيرات ذات المضمون العلمي تدرس بلغتها.

وفي مجال دراسة التاريخ فإن شفيق غربال وسليم حسن قد خاضا المعارك نفسها من أجل تمصير الوظائف ، وتعريب الدراسة ، وتمصير كتابة التاريخ ، في مواجهة الباحثين الأجانب الذين استعان بهم الملك فؤاد في كتابة تاريخ أسرة محمد علي ، والذين كان بعضهم يقوم بالتدريس في الجامعة^(١).

إن أهمية شفيق غربال تكمن في أن منهجه قد تأثرت به أجيال من طلابه حيث أشرف غربال على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه منها : تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، وتاريخ التعليم منذ أواخر عصر محمد علي إلى أوائل عصر توفيق لأحمد عزت عبد الكريم ، وعلاقة إسماعيل الباب العالي لأحمد عبد الرحيم مصطفى ، والفلاح المصري في عهد محمد علي ، وتاريخ الزراعة المصرية في عهد محمد علي لأحمد الحتة ، وتطور الصحافة المصرية لإبراهيم عبده ، وتجارة مصر في عهد محمد علي لأمين مصطفى عفيفي ، ويلاحظ أنها موضوعات يتصل معظمها بتاريخ مصر الاجتماعي^(٢).

(١) Ibid., P. 100 .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : شفيق غربال مؤرخًا، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ١١، لسنة ١٩٦٣.

بل إن كتاب علي الجريتلي: «تاريخ الصناعة في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر»، والذي نشرته الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عام ١٩٥٠ قد تم بتوجيه من شفيق غربال، وإلى شفيق غربال أيضًا، يرجع الفضل في لفت أنظار الباحثين إلى أهمية الوثائق غير التقليدية في كتابة التاريخ الاجتماعي، فقد ذكر وهو بصدد التقديم لدراسة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم «تاريخ التعليم في عصر محمد علي»: «مادة التاريخ هذه كل ما فيها له قيمة والمتعسف من المؤرخين هو الذي يعتبر تافهًا كل ما لم يتعلق بالسياسة العليا أو ما لم يصدر عن السلاطين أو ممثلي السلاطين، وأن دفترًا من دفاتر المحفوظات يدلنا على أرزاق الجند أو طعامهم ولباسهم، هو وثيقة لها خطرها، ولا يستطيع كتابة التاريخ إلا بها وبمثيلاتها».

إن هذه النظرة المقدرة لقيمة الوثائق وأهميتها، هي التي كانت وراء نشر شفيق غربال لواحدة من أهم وثائق تاريخ مصر الاجتماعي الحديث، وهي وثيقة حسين أفندي الرزنامجي، التي نشرها تحت عنوان «مصر عند مفرق الطرق ١٧٩٨ - ١٨٠١» عام ١٩٣٦م في مجلة كلية الآداب (جامعة فؤاد) وهي وثيقة تتحدث عن أوضاع مصر في الفترة السابقة للحملة الفرنسية.

وعومًا: فإن أهمية شفيق غربال ترجع إلى أنه أول مصري تولى وظيفة أستاذ التاريخ الحديث بالجامعة المصرية، كما أن الدراسات التاريخية قد تأثرت ولفترة طويلة باتجاه شفيق غربال وفكرته عن التاريخ. وإليه يرجع الفضل في طرق موضوعات تتصل بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي، والذي ظهر في كتابات أحمد الحتة ومصطفى عفيفي وعلي الجريتلي وأحمد عزت عبد الكريم.

مُحَمَّد شَفِيقُ غُرَبَال

من رُوَّاد المدرسة الأكاديمية الوطنية

أ. د. أحمد زكريا الشُّلُق

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب - جامعة عين شمس

شهدت حركة كتابة التاريخ في مصر في العقود الأولى من القرن العشرين مدرسة وطنية مصرية "أكاديمية" لكتابة التاريخ المصرى الحديث والمعاصر بدأت تبرز وتتشكل ملامحها في أعقاب ثورة مصر الوطنية عام ١٩١٩ أي أنها ارتبطت بتطور الحركة الوطنية التي واجهت النفوذ الاستعماري البريطاني، كما أنها ارتبطت أيضًا بمعركة تمصير الجامعة المصرية، خاصة بعد ضمها إلى وزارة المعارف عام ١٩٢٥، تلك المعركة التي سعت لإحلال الأساتذة المصريين محل الأساتذة الأجانب الذين كانت غالبيتهم من الإنجليز والفرنسيين، وحينذاك برزت أسماء لطفي السيد وطه حسين وسليم حسن ومحمد كامل مرسى ومصطفى عبد الرازق، كما برزت أسماء المؤرخين المتخصصين في تاريخ مصر الحديث والمعاصر وفي طليعتهم محمد رفعت ومحمد صبرى وشفيق غربال .

وفيما يتصل بمؤرخي مصر الحديثة فقد كان الأستاذ محمد رفعت بداية لجيل من المؤرخين الأكاديميين عندما ابتعث إلى بريطانيا ليدرس في ليفربول ويعود منها بدرجة الماجستير في نهاية الحرب العالمية الأولى ثم يلعب دورًا مهمًا في تعريب وتأليف الكثير من الكتب التاريخية لوزارة المعارف، يليه الدكتور محمد صبرى الذى أعد دراسته المهمة عن ثورة ١٩١٩ التي نشرها بالفرنسية وقت اشتعال الثورة ليثبت أنها ثورة وطنية عامة، ثم أعقبها بدراسة عن نشأة الروح القومية التي حاز بها درجة الدكتوراة من جامعة السوربون عام ١٩٢٤ ليصبح في طليعة هذا الجيل من المؤرخين الوطنيين المحترفين، الذين مارسوا الكتابة التاريخية استنادًا إلى المنهج العلمى وقواعده، وثالث فرسان هذه الكوكبة كان الأستاذ محمد شفيق غربال تلميذ المؤرخ البريطاني الكبير أرنولد توينبي، الذى أعد دراسته للماجستير عن «بداية المسألة المصرية وظهور محمد على» بجامعة لندن عام ١٩٢٤، وأصبح أول مصرى تولى وظيفة أستاذ التاريخ الحديث بالجامعة المصرية. ومن خارج الجامعة ظهر الأستاذ عبد الرحمن الرافعى الذى وضع مؤلفاته المعروفة عن تاريخ الحركة القومية المصرية بين عامى ١٩٢٩ - ١٩٥٩ .

نحن إذن في أعقاب ثورة ١٩١٩ أمام جيل جديد من المؤرخين ممن درسوا خارج مصر وقدموا دراساتهم، منطلقين من شعور قومى راسخ، مستندين إلى أسس المنهج العلمى الحديث ليسهموا

في نهضة الكتابة التاريخية المصرية، سواء داخل الجامعة أو خارجها، مشاركين في إعادة تشكيل الحياة الفكرية في مصر، حين نقلوا إليها طرائق البحث العلمى التى عرفها العالم الغربى المتطور بعد أن هضموها وتمثلوها وطبقوها عند تناولهم تاريخ مصر وأمتهم العربية الإسلامية، إنه جيل شكل نقلة في حركة التفكير التاريخي في مصر، ابتعدت بها عن المنهج الكلاسيكي الذي درج عليه كتاب السير والحوليات والمغازي والخطط والآثار والتراجم، ورسّخت أسس الكتابة العلمية للتاريخ.

محمد شفيق غربال:

ولد محمد شفيق غربال بالإسكندرية في يناير عام ١٨٩٤ في حي يحمل اسم عائلته غربال وتوفي في أكتوبر ١٩٦١، وكان قد واصل تعليمه الابتدائي في هذا الحي، ثم واصل تعليمه الثانوي بمدرسة رأس العين، والتحق بعدها بمدرسة المعلمين العليا بالقاهرة، تلك المدرسة التي خرجت لمصر عددًا من رواد النهضة الأدبية والعلمية، منهم الدكتور أحمد زكي وإبراهيم المازني والشاعر عبد الرحمن شكري ومحمد فريد أبو حديد وعبد الحميد العبادي وغيرهم.. وقد أتمّ دراسته بها عام ١٩١٥ ليحصل على بعثة حكومية لدراسة المواد الاجتماعية والتاريخ في جامعة ليفربول بإنجلترا، حيث حاز درجة البكالوريوس بمرتبة الشرف عام ١٩١٩، وعاد إلى مصر ليعمل مدرسًا بالتعليم الثانوي بالإسكندرية لنحو ثلاث سنوات، ابتعث بعدها إلى إنجلترا مرة أخرى لاستكمال دراسته العليا، فالتحق بمدرسة الدراسات التاريخية التابعة لجامعة لندن.

وفي جامعة لندن التقى بالمؤرخ الكبير "أرنولد توينبي" الذي أعجب بكفاءته فأشرف على رسالته التي نال بها درجة الماجستير عام ١٩٢٤ في موضوع عنوانه «بدايات المسألة المصرية صعود محمد علي» "The Beginnings of The Egyptian Question and the Rise of Mohamed Ali" التي نشرت في لندن عام ١٩٢٨ ولم يقدر لها أن تترجم إلى العربية رغم أهميتها، ليس فقط لأنها أهم أعماله المبكرة، ولكن لأنها كانت من الكتابات الرائدة الموثقة التي عالجت فترة مهمة من تاريخ مصر هي الفترة الواقعة ما بين حملة بونابرت عام ١٧٩٨ وصلاح

بوخارست بين روسيا والدولة العثمانية عام ١٨١٢، فربطت الدراسة بين أحداث مصر والموقف الدولي، كما ربطتها بالمسألة الشرقية وتاريخ الدولة العثمانية. وقد أهدى غربال رسالته إلى توينبي باعتباره « معلمًا عظيمًا وأستاذًا ملهمًا ».

بعد أن نال غربال درجة الماجستير لم يُقدَّر له أن يتم دراسته لمرحلة الدكتوراه، حيث انتهت مدة بعثته، فعاد إلى مصر عام ١٩٢٥ ليعين مدرسًا للتاريخ بمدرسة المعلمين العليا حتى عام ١٩٢٩ عندما نقل أستاذًا مساعدًا للتاريخ الحديث بكلية الآداب بالجامعة المصرية، في الوقت الذي كان فيه الأساتذة الأجانب يحتلون معظم كراسي الأستاذية في التاريخ الحديث خلفًا للمؤرخ الإنجليزي « آرثر جرانت » ليصبح أول مصري يتولى هذا المنصب الرفيع، ثم لم يلبث أن انتخب عميدًا لكلية الآداب عام ١٩٣٩ خلفًا للدكتور طه حسين، لكنه سرعان ما نقل إلى وزارة المعارف بعد نحو عام، ليعمل في خدمة التربية والتعليم كوكيل مساعد للوزارة حتى عام ١٩٤٢، حين أعادته وزارة النحاس باشا للعمل بالجامعة مرة أخرى لمدة ثلاث سنوات، عاد بعدها مستشارًا لوزارة المعارف، فوكيلًا لها، ثم نقل وكيلاً إلى وزارة الشؤون الاجتماعية لفترة قصيرة، وإن حرص على أن يظل أستاذًا غير متفرغ بالجامعة حتى بلغ السن القانونية عام ١٩٥٤. وكان من الواضح أن حفاظه على استقلاله وعدم تورطه في الحياة الحزبية - بالرغم من ميله المعروف إلى حزب السعديين خصوم الوفد - كان ذلك وراء كثرة تنقله ما بين الجامعة ووزارة المعارف.

ومن المعروف أن غربال أثناء عمله بوزارة المعارف لم يأل جهدًا في حركة التعريب والتمصير للمقررات التاريخية، كما قام بعدد من الإنجازات العلمية المهمة، حين ساهم في تأسيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عام ١٩٤٥ وأصبح نائبًا لرئيسها ورئيسًا لها عام ١٩٥٦. وفي العام نفسه اختارته جامعة الدول العربية رئيسًا لمعهد البحوث والدراسات العربية التابع لها، كما تولى رئاسة قسم الدراسات التاريخية به، خلفًا للأستاذ قسطنطين زريق، وقد اختار صفوة من العلماء ليحاضروا في المعهد، ودرس لجيل من المؤرخين العرب الذين ترأسوا أقسام التاريخ بالجامعات العربية.

وكان غربال عضواً نشطاً في جمعية الآثار القبطية المصرية، والجمعية الجغرافية المصرية، والمجمع العلمي المصري، ومجمع اللغة العربية، كما كان عضواً مؤسساً في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، والمجلس الأعلى للآثار، وقد مثل مصر في عدد من المؤتمرات التاريخية العالمية، وانتخب عضواً في المجلس التنفيذي لليونسكو ١٩٤٦ - ١٩٥٠ ممثلاً للشرق الأوسط.

وقد كرمته الدولة فمنحته جائزتها التقديرية في العلوم الاجتماعية عندما رشحته جامعة عين شمس عام ١٩٦٠ لنيلها، أي قبل وفاته بنحو عام، وكان قد دعا أستاذه توينبي إلى مصر لقضاء عطلة الشتاء، لكن القدر لم يمهله فتوفي في أكتوبر عام ١٩٦١ بعد مرض قصير، فرائه أستاذه بمقال في جريدة «التميز» رثاء علمياً رفيعاً فور علمه بوفاته، وعندما جاء إلى مصر شارك في حفل تأبينه بمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

مؤلفاته وآثاره :

لم يترك غربال مؤلفات كثيرة، رغم أنه عاش مؤرخاً ومات مؤرخاً، لقد تعرض لما تعرض له أمثاله من مناصب قيادية تسعى إليه ولا يسعى إليها، ولكنه كان يأخذ ذلك بشيء من الرفق، ولم ينسأ أو يتناسى جذوة المؤرخ الكامنة فيه. لقد كان مؤمناً بأن تعليم ومحاوره تلاميذه أكثر أهمية من تأليف الكتب، فأصبح أبرز تلاميذه أعلاماً في المدرسة التاريخية الحديثة وهم : أحمد عزت عبد الكريم ، وعبد العزيز الشناوي ، ومحمد رفعت رمضان ، وأحمد الحتة ، وحسن عثمان ، وعلي الجريتلي ، ومصطفى عفيفي ، وأبو الفتوح رضوان ، وإبراهيم عبده ، وغيرهم.

ويُعدُّ شفيق غربال أبرز رواد المدرسة العلمية الحديثة لكتابة تاريخ مصر الحديث والمعاصر، تلك المدرسة التي برز منها الدكتور محمد صبري «السوربوني» والأستاذ محمد رفعت، ممن تلقوا دراساتهم العليا في أوروبا خلال العشرينيات وعادوا ليعملوا بالجامعة المصرية وليؤسسوا جيلاً من المؤرخين الأكاديميين، وإن كانوا قد تأثروا بالفكر الليبرالي وما يرتبط به من تمجيد لدور الفرد ودور الصفوة أكثر من تأثرهم بالمدرسة الاجتماعية التي كانت قد برزت في حقل الدراسات التاريخية منذ أوائل القرن العشرين.

وتمثل أهمية شفيق غربال في حركة التفكير التاريخي في مصر في أنه يمثل نقلة لها وزنها، وفي أنه ترك انطباعات حية في تفكير ونهج من تتلمذوا عليه، لقد كان يمثل في حد ذاته - وفقاً لما قاله عنه الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى - ثورة في المنهج التاريخي في المشرق العربي، فهو يتميز بذهن ذكي غني بشتى المعلومات، وقدرة على التركيز والتلخيص وعلى التحليل والتركيب إلى جنوح للتعميق المتوغل إلى واقعية ساطعة ودقة في النقد. لقد كان غربال بعيداً كل البعد عن المنهج الكلاسيكي الذي درج عليه كتاب السير والتواريخ والمغازي والخطط والآثار والتراجم في العالم الإسلامي: سند دراساته بتفهمه لطبيعة عمله ومدارسه في الشرق والغرب، وطعمه بشيء من التذوق الأدبي - الغني، مع توسيع لقاعدة المعرفة التاريخية بالأدب والفلسفة وعلوم النفس والاجتماع. أما الدراسات والكتب التي خلفها غربال: فإلى جانب رسالته عن المسألة المصرية وصعود محمد علي والمنشورة بالإنجليزية سنة ١٩٢٨ نشر دراسته عن «الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر سنة ١٨٠١» وذلك عام ١٩٣٢ ثم أعقبها بتحقيقه ودراسته لمخطوطة «ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية كما شرحه حسين أفندى الرزنامجي» التي نشرها عام ١٩٣٦ تحت عنوان «مصر عند مفرق الطرق ١٧٩٨-١٨٠١».

وفي عام ١٩٤٤ نشر غربال كتابه صغير الحجم عظيم الفائدة «محمد علي الكبير» الذي قدّم فيه دراسة عميقة لأحوال المجتمع المصري في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، مع تقصٍ دقيق لما طرأ عليه من تغييرات كبيرة خلال هذه الفترة، لم يجعل محمد علي شخصية تتحرك في الزمان والمكان، ولكن جعله محور لدراسات تبدأ بمصر العثمانية ثم الحملة الفرنسية، وتنتقل إلى أوروبا والدولة العثمانية، ثم إلى أحوال المجتمع المصري كما تسلمه محمد علي، ثم تحول هذا المجتمع وفق ما أرتأته له مشيئة هذا الباشا، الذي استطاع إقامة سلطة مركزية تجمع كل القوى المتصارعة في إطار واحد والنهوض بحركة إصلاح وعمران واسعة في كل المجالات، معتمداً على القوة والعلم والمال، وليس على القوة العسكرية وحدها، وإن أبدى غربال ميلاً نحو إنجازات محمد علي حادّت به عن الموضوعية في بعض القضايا التي تناولها.

ومع بداية الخمسينيات انجذب شفيق غربال من دراسة القرن التاسع عشر إلى التاريخ المعاصر، فألف كتابه عن تاريخ المفاوضات المصرية - البريطانية، الجزء الأول، الذي تناول الفترة ١٨٨٢ - ١٩٣٦، ونشره عام ١٩٥٢ ولم يشأ الأستاذ أن يكتب جزءًا ثانيًا يصل به إلى عام ١٩٥٤ حيث وقعت اتفاقية الجلاء، ربما لقرب عهد المؤلف ومعاصرته للأحداث مما قد يبتعد به عن التجرد والموضوعية، لذلك ترك ذلك لتلاميذه لينجز أحدهم، وهو الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى الموضوع، عندما أصدر عام ١٩٦٨ كتابه «العلاقات المصرية - البريطانية ١٩٣٦ - ١٩٥٦».

وفي عام ١٩٥٧ ألقى غربال مجموعة من المحاضرات في الإذاعة الأوروبية، نشرت في أصلها الإنجليزي تحت عنوان The Making of Modern Egypt ترجمها الأستاذ محمد رفعت ونشرت تحت عنوان «تكوين مصر» كشف فيها عن عشقه لمصر خلال عصورها جميعًا.. «مصر التي تسمو فوق هامات الحقب والعصور». وقد رصد في محاضراته هذه موضوعات الاستمرار والتغير في تاريخها، الحكومة والمجتمع، الإنسان والمجتمع، المدينة والريف في تاريخ مصر، مصر والعهد القديم، مصر الهلنستية ومصر المسيحية، مصر والإسلام وأخيرًا مصر والغرب. وفي هذا العمل - كما يقول الدكتور محمد صابر عرب في تقديمه لطبعة دار الكتب له عام ٢٠٠٨ - وضع غربال يده على مفاتيح الشخصية المصرية، سواء من حيث المنهج الذي استخدمه أو من حيث الموضوعات التي تناولها. تلك الشخصية التي صاغها المصريون منذ بداية تاريخهم الطويل، حيث أعادوا صياغة كل الثقافات التي مرت عليهم بما يتلاءم مع تلك الشخصية الحضارية التي أذابت ما - ومن وفد إليها ولم تذب فيهم. لقد كان غربال يرى أن «العملية التاريخية» هي نتاج تفاعل متواصل بين اختيارات واندفاعات وإنجازات «الجموع» وبين إرادات «أفراد» بعينهم يصبحون رموزًا أو قادة أو زعماء وصفوة بفضل إبداعهم لأنواع جديدة من الحلول للتحديات القائمة أو المستجدة أمام المجتمع.

وكان آخر ما نُشر لغربال كتاب «من زاوية القاهرة» الذى ضم مجموعة من أحاديثه الإذاعية الأخيرة قبيل وفاته، فقد شاءت المراقبة الثقافية بالإذاعة المصرية - التي دأبت على نشر مختارات من أحاديث كبار الكتاب والمفكرين - أن تنشر هذه المجموعة التي كان غربال قد اختار عنوانها قبل وفاته، ذلك العنوان الدال الذى يشير إلى توسط مصر العالم العربي جغرافياً، فهي المرأة الصادقة لظاهرة عربية عامة، ظاهرة خلاصتها تركيب عجيب بين العناصر الأصيلة والعناصر الوافدة، فمن هذه الزاوية أطل غربال على عدد من رواد الفكر الإنسانى ممن أضاءوا للبشرية سبل الخير والحق والجمال، منذ سقراط حتى الأفغانى. وقد تناولت الأحاديث ما يتصل بالعرب وتاريخهم، فجاءت ردًا علميًا رصينًا على ما يُوجَّه للعرب من افتراءات، وما يُلصق بتاريخهم من أكاذيب وأضاليل للحط من شأنهم ومكانتهم فى التاريخ، فجعل الأستاذ يبرز كيف أضاف العديد من المفكرين العرب إلى الحضارة الإنسانية وتراثها الأخلاقي والعلمي إسهامات شتى.

ومما يُذكر لشفيق غربال أنه أشرف على تحرير «الموسوعة العربية الميسرة» التي أصدرتها مؤسسة فرانكلين، كما ترجم كتاب كارل بيبكر عن «المدينة الفاضلة»، فضلاً عن مراجعته وتقديمه لعدد من المؤلفات التاريخية والأدبية المترجمة عن اللغة الإنجليزية.

وفيما يتعلق بموقف غربال من قضية تفسير التاريخ، فقد كان يرى أن من الإسراف وضع قانون ثابت يفسر حركة المجتمعات البشرية التي هي المادة الحية للتاريخ بمعناه الواسع، فالإنسان ليس آلة صماء يسهل التحكم فيها، فاختلف بذلك عن أستاذه «تويني» الذي بنى دراسته للتاريخ على قانون ثابت يقوم على التحدي والاستجابة، ذلك القانون الذي لقي نقداً رغم قيمة الجهد الكبير الذي قام به تويني.

لقد كان غربال مدركاً لذلك، فلم يشأ أن يخضع لفلسفة تاريخية معينة، وجعل يأخذ من كل تفسير بقدر طبقاً للملابسات التي تحيط بموضوعه، وحيثما تصادفه قضية كبرى من قضايا التطور الاجتماعى، نجده يستشهد بآراء كبار المفكرين التي قد تفسر الروايات المختلفة لهذه

القضية، دون أن يربط نفسه كلياً بهذا أو بذاك.

لقد كان غربال دون شك على علم وثيق بأهم المناهج التاريخية وبالاتجاهات المختلفة لكبار المفكرين، لكن طبيعته السمحة واتساع أفقه وإيمانه الواضح بحرية الإنسان، جعله يتحرز من الانتماء لمدرسة معينة في تفسير التاريخ.

ذلكم هو محمد شفيق غربال، المؤرخ الأديب، والمفكر الوطني، أحد المؤسسين الرواد لنهضة الكتابة العلمية لتاريخ مصر المعاصرة خلال القرن العشرين.



غُرْبَال وَتَكْوِين مِصْر
(مدخل إلى فلسفة التاريخ)

بقلم: أ. فايز علي
باحث في العلوم الاجتماعية

يظل لتاريخ كل أمة خصوصية وتفرد، وإذا أمكن إدراجه في إطار رؤية فلسفية فإن مصر أولى بتلك الرؤية نظرًا لما يتميز به تاريخها من امتداد شاسع وتعدد في عوامله وعناصره. وحينما يقال مصر يتبادر إلى الأذهان الأهرام والمعابد القديمة الفرعونية، أو منار الإسكندرية فضلًا عن الكنائس والجوامع، وهلم جرا.

وحينما وضع مؤرخنا الكبير غربال كلمة "تكوين" قبل "مصر"؛ فقد وعى كل تلك الهيئات المختلفة، وشمل كل عصور تاريخ مصر بل ما قبل ذلك التاريخ الحافل، فارتفع فوق كل ما قد يبدو من تعارض بين المفكرين، أو تنافس بين التيارات والأحزاب السياسية^(١).

مؤرخ مصر الحديثة:

هكذا أعد محمد شفيق غربال أو أعد نفسه ليكون مؤرخًا لمصر الحديثة، تلك التي صارت مستعمرة بريطانية منذ سنة ١٨٨٢م أي قبيل ميلاد مؤرخنا (في سنة ١٨٩٤)، وهو ابن مدينة الإسكندرية، التي سُميت المدينة المتاخمة لمصر كما سيشير هو نفسه في "تكوين مصر"^(٢). إنها مدينة عالمية (كوزموبوليتانية) بل كانت حاضرة مصر كلها والعالم القديم منذ نشأتها المعروفة^(٣)، وظلت هكذا، فلم ينل من مكانتها ظهور عواصم تالية لمصر كانت القاهرة آخرها.

(١) عقب حادث دنشواي سنة ١٩٠٦م تأسس الحزب الوطني سنة ١٩٠٧ وأحزاب أخرى. وفي سنة ١٩٠٨ تأسست الجامعة المصرية، مما زاد من حراك المجتمع آنذاك. وجاءت جنازة مصطفى كامل سنة ١٩٠٨م لتزيد المشاعر تأججًا؛ فايز علي: حادث دنشواي والشعر، الجمعية التاريخية ٢٠٠٦.

(٢) كانت هذه مقدمة لدراسة عن "فلسفة التاريخ" ولكنها لم تظهر. راجع: حسام عبد الظاهر: أضواء جديدة على كتابات غربال - في تحقيقه ل: "تراث محمد شفيق غربال. البحوث والمقالات، دار الكتب، القاهرة ٢٠١٢، ج١ ص ٢٦.

(٣) أسسها الإسكندر الأكبر في شتاء سنة ٣٣٢-٣٣١ ق.م، وذلك في طريقه إلى سيوة، في مكان راقدة بلدة مصرية متاخمة لبحيرة مريوط، وأقام جسرًا يربطها بجزيرة فاروس ذكرت في أوديسا، فنشأ عنه ميناءان.. مجموعة مؤلفين: الموسوعة المصرية تاريخ مصر القديمة وآثارها: العصر اليوناني الروماني، هيئة الكتاب، ١٩٧٨، مجلد ١: ج٢: ص ٤٨٨. راجع أيضًا:

J.B.Bury, A History of Greece, Mod. Libr., New York, 1927, p. 758..

آفاق فكرية:

نعم غربال بجوٍّ أسري هائل يدفع إلى طلب العلم والمعرفة، بينما كانت مصر - وهو لم يزل في صباه - تروج بتيارات فكرية وسياسية واجتماعية متنوعة وفق تنوع المرجعيات. وظهرت الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨ نتيجة لتضافر شتى الجهود الوطنية المخلصة على تعدد مشاربها وانتماءاتها الفكرية^(١).

ودون إسهاب نرى أن مؤرخنا - وهو لم يزل بعد في طور الإعداد والتكوين - عاصر كوكبة من المفكرين والأدباء كانوا بمثابة المرشدين الروحيين له. منهم مثلاً العقاد وطه حسين ومحمد حسين هيكل، وأحمد أمين، وقبلهم أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد، ومدرسته «المصرية»^(٢).

وطبيعي أن يتأثر المؤرخ الناشئ آنذاك بالتيارات الفكرية المتباينة التي مثلها أولئك الرواد منذ مطلع القرن العشرين.

ولعل "تكوين مصر" كان أفضل عنوان يعبر عن مصر آنذاك - أي في الفترة التي بدأت آنذاك بتعبير أدق. تلك هي الدلالة المستقبلية الممكنة لذلك العنوان، وإن كان - كما تقدم - يحمل معنى شاملاً شمولية تاريخ مصر.

النزعة المصرية والتحديث:

انقلابات التاريخ حادة، فمصر - على عظمة تاريخها في مراحل كثيرة - تصبح

(١) راجع: عبد المنعم الجميبي: شفيق غربال - سيرة ونحبة، أيضًا:

P.J. Vatikiotis, The Modern History of Egypt, Weidenfeld Pbl., London 1969, p. 176f, 204 f.

(٢) ليست المصرية تخصصًا علميًا ولا انتماء سياسيًا بقدر ما هي أساس أصيل للشخصية، وقد نادي بها مفكرون مثل لطفي السيد.. راجع عنه: أحمد لطفي السيد: قصة حياتي، هيئة الكتاب، القاهرة ٢٠٠٠، شوقي ضيف: الأدب العربي المعاصر في مصر: ط ٧: دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩، ص ٢٥١ وما يليها (مقالاته في "الجريدة") أيضًا:

Vatikiotis, op. cit., p. 265 ff.

مستعمرة بريطانية حديثاً^(١) والجامعة الوليدة ترسل ابنها إلى إنجلترا لدراسة تاريخ مصر الحديثة واستجلاء أبعاده، فيعود غربال ليرود تمصير التاريخ. والتمصير لا يعني مجرد إحلال أساتذة مصريين محل الأوروبيين الذين كانوا يدرسون تاريخ مصر^(٢).

ولذا نجد «غربالاً» يرود أفق الحضارة المصرية التي شهدت عظمة وتفرداً - في مراحل حكم الفراعنة - لا يكاد يُدرك لهما شأو. وما له لا يفعل ذلك، والعالم كله مهتم بتلك الحضارة؟ والبحوث والتنقيبات عن الآثار القديمة تزداد وتيرتها منذ حملة بونا برت فصاعداً^(٣).

غربال والواقعية الجديدة:

مثل كل من وایتهد (١٨٦٤-١٩٤٧) وبرتراند راسل (ت ١٩٧٠م) المدرسة الواقعية (الإنجليزية)^(٤).

وأما أرنولد توينبي - الذي تتلمذ غربال على يديه - فقد كان هبة التاريخ، إذ أنزل مصر منزلتها اللائقة في صنع الحضارة الإنسانية وتطويرها على امتداد التاريخ، مقدماً رؤية فلسفية

(١) ثمة نظرية جاذبة أن أول ملوك بريطانيا القديمة كان مصرياً أسس مستعمرة مصرية هناك، ودفن في هرم Silbury ككفرعون..

J. Ivimy, The Sphinx and The Megaliths, Abacus Pbl., UK 1974, p. 147 f.

(٢) راجع تفصيلاً: لماذا شفيق غربال من شوامخ المؤرخين؟ لأستاذنا المؤرخ العلامة رأفت غنيمي الشيخ وقد تفضل سيادته بإدارة الجلسة التي أقيمت فيها هذه المحاضرة في الجمعية التاريخية يوم السبت ٢٩/١٢/٢٠١٢.

(٣) التاريخ علم موضوعي يقوم على إسهامات الجميع مصريين وأجانب، وغربال قدّم موسوعة «تاريخ الحضارة المصرية» لسليم حسن ونجيب ميخائيل ويول غليونجي وآخرين، وفي «الأدب المصري» القديم كتب سليم حسن أيضاً، وأما محمد كامل حسين فله: في الأدب المصري الإسلامي: ١٩٣٥.

(٤) فيلسوفان رياضيان وواقعيان، اتجاهاهما تحرري إنساني. يعلمان من شأن المبادرة الفردية، والمغامرة والإيمان والبطولة في نشأة الحضارة، أهـ جونسون: فلسفة وایتهد في الحضارة، ت.ع. ياغي، المكتبة العصرية، صيدا: ١٩٦٥. أيضاً:

Kunzmann- Weiss, dtv-Atlas Philosophie, I. Afl., dtv, Muenchen 1991, S.S. 221, 227.

للحضارة البشرية^(١).

وتعتبر دراسة غربال للتاريخ تطبيقاً لما وعاه مؤرخنا من رؤى نظرية لتفسير حركة التاريخ، وبالأحرى ظهور الحضارات وتطورها، وعلى رأسها نظرية التحدي والاستجابة^(٢) لـ: توينبي. إذ تقوم صفوة مبدعة مستنيرة بالاستجابة لتحديات الطبيعة على نحو بناء، قائدة خطى المجتمع نحو التقدّم. ومع فساد تلك الصفوة يحدث التدهور. فمدار الأمر إذن حول مبادرة رجال عظماء، وذلك تعبير نصادفه في "تكوين مصر" أيضاً^(٣).

وبقدر أهمية تلك الدراسة بقي الاهتمام بها كبيراً، لتعاد طباعتها مراراً. هي لبنة مهمة في صرح كبير، فما لها ظلت باقية ولم يتناول ذلك الصرح مثلما تناولت صروح الكرنك وهابو؟ لا بأس "فأعظم ما ترجوه ما لا تناله - وأكثر من لاقيت من لا يوافق".

عرض لبعض قضايا الدراسة :

التاريخ يعني نقد الوقائع وتمحيصها. وإذا قارنا التاريخ بالبناء بدا لنا تاريخ مصر أشبه بناطحة سحاب بين مجموعة من العمارات والقيلات. فإذا نظرنا إلى ساكن الطابق العلوي الأحداث بناء في كل تلك البناءات؛ تبين لنا أن مسئوليته تزداد بقدر ارتفاع البناء الذي يقيم فيه، وذلك بالنظر إلى حقوق الارتفاق التي تضبط علاقته القانونية بساكني الأدوار الأخرى التي تسبقه. أما الأساس الذي يقوم عليه تاريخ

(١) أولى توينبي حضارة مصر وديانتها القديمة وفكرها أهمية كبيرة في: "مختصر دراسة التاريخ": A Study of History، لخصها سرفيلد، وترجمها إلى العربية محمد فؤاد شبل.

راجع أيضاً: رأفت الشيخ: لماذا غربال؟ م.س.

راجع عن توينبي:

.Dtv. Lexikon, Brockhaus, Mannheim 1999, B. 18, S. 256

(٢) يرى ابن خلدون (ت ١٤٠٦) أن الدولة تمرّ بأطوار ثلاثة تبدأ بالقوة (العصبية) وتمرّ بالرفاهية، وتنتهي بالضعف تحلل العصبية ونشوء دولة أخرى (كالأشخاص). لقد وضع أسساً نقدية لدراسة الحضارة والتاريخ، سابقاً فيكون بنحو ثلاثة قرون: عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، دار الشعب، القاهرة، ص ١١٦، ١٢٨، ١٥٢ وما يليها.

البشرية فهو ما قبل التاريخ^(١). ولمصر إسهام عظيم في حضارات تلك الفترة المبكرة^(٢).
وأما تاريخ مصر فيبدأ تقريباً سنة ٣١٠٠ ق.م، باختراع الكتابة وتأسيس الدولة المركزية، وإن
أضيفت إليه فترة مهمة أطلق عليها تسمية "ما قبل الأسرات"^(٣)، وهي ذات أهمية قصوى، إذ
أسهمت في ظهور حضارة الأسرة الأولى الزاهرة.

وتمتد الأسرات المصرية منذ حوالي سنة ٣١٠٠ ق.م إلى سنة ٣٣٢ ق.م التي شهدت غزو الإسكندر
مصر، وعدة تلك الأسرات ثلاثون، تنقسم على ثلاث وحدات رئيسية، وفترات بينية أخرى^(٤).
وأما حكم إسكندر وخلفائه البطالمة فيمتد من سنة ٣٣٢ إلى سنة ٣١ ق.م - أي نحو ثلاثة
قرون، تصبح مصر بعدها مستعمرة رومانية، منذ انتصار أكتيوم في سنة ٣١-٣٠ ق.م حتى الفتح
العربي في سنة ٦٤١ م (٢١ هـ)^(٥).

(١) يمثل آخر مليوني سنة في عمر الأرض (حوالي ٤ مليارات سنة)، ويبدأ بالباليو ليتيك (العصر الحجري القديم)
وهو يعاصر البليستوسين، إذ عاش الهومينيد (أشباه البشر) ... وأما الإنسان العاقل فيقدر أنه ظهر منذ خمسين
إلى مائة ألف سنة.. راجع: فايز علي: فلسفة التاريخ، القاهرة، ٢٠٠١، ج ١: ص ١٧ وما يليها، وكذا دراستنا: إنسان
ما قبل التاريخ وحضاراته، القاهرة ٢٠٠٥، ٤ أجزاء، المقدمة.

(٢) فايز علي: ما قبل التاريخ: ٢: ٨١ وما يليها.

(٣) وتسمى خطأ بالأسرة صفر، وتسبق عصر التوحيد (الثاني) على يد ميتا أون نمرمر (حوالي ٣١٠٠ - ٣٢٠٠ ق.م)، إذ
أن ثمة توحيداً أول (حوالي ٤٤٤٢ ق.م) سرعان ما انفصلت عرا. راجع: فايز علي: ما قبل التاريخ: ٣: ٢٠٤ وما
يليها، فلسفة التاريخ: ١: ١٥ وما يليها. كذا دراسات: Hoffman, Baumgartel, Hayes, Adams

(٤) تلك القسمة المعتمدة في علم المصريات الآن، وترجع إلى مانيتون السمنودي المؤرخ المصري (ت ٢٤٥ ق.م)،
الذي فقد كتابه، ولم يصلنا إلا في إشارات ومقتطفات لدى يوليوس الأفريقي (٢١٧م) ويوسيفوس ت ٣٤٩م...
فايز علي: فلسفة التاريخ: ١: ١٠ وما عليها. وفيه إشارة إلى:

W.g. Waddell, Manetho Classical Libr., London 1940; Emery, Archaic Egypt; s.a. Posener
u.a., Lexikon der Aegyptischen Kultur, Loewit Vrlg., Wiesbaden 1960, S. 156.

(٥) في سنة ٦٤١ سقط حصن بابلون (مارجرس الآن بمصر القديمة) وكان أكبر حصون الرومان بمصر - في
أيدي العرب، ثم فتحت الإسكندرية سنة ٦٤٢، وكانت العاصمة

C.D.G. Mueller, Grundzuege des Chrislich - Islamischen Aegypten, WBG, Darmstadt 1969, S.

وتنقسم الفترة الممتدة منذ الفتح العربي فصاعدًا إلى عصور إسلامية نسبة إلى الأسرات التي حكمت مصر خلالها. وتدلّف مصر إلى العصر الحديث منذ نهاية القرن الثامن عشر^(١). تلك في تصورنا قسمة اعتبارية أو صورية محضة إذ لا مفرّ من تصور فلسفي محكم لمسيرة الروح المصري في الزمان حتى نصل إلى تصور مُرضٍ في هذا الشأن^(٢).

والآن نوضح كيف عالج مؤرخنا قضايا دراسته، وهي: مصر هبة المصريين، الاستمرار والتغير في تاريخ مصر، الحكومة والمجتمع، الإنسان والمجتمع، المدينة والريف، مصر والعهد القديم، مصر والهللينية، مصر والمسيحية، مصر والإسلام، وأخيرًا مصر والغرب.

أولاً- مصر هبة من؟ :

يتنازع توينبي وهيرودوت هذه الفكرة، فمصر هبة النيل عند الأخير، ظلت تضم برّكا ومستنقعات طائشة، ولم يهذبها إلا المصريون الأوائل^(٣).

كيف؟ كان تحدي الطبيعة الجاحمة إبان التحوّل المناخي الحاد في نهاية عصر الجليد. إذ سرعان ما تحوّلت مصر من غابات خضراء زاهرة إلى صحراء يشقها نهر لم يروّض بعد^(٤)، ومثل ذلك الوضع تحديًا وجوديًا للأقوام آنذاك.

(١) تبدو تسمية العصور (طولونية وأخشيديّة...) غير موضوعية، والأجدر أن نبحث فيها عن ملامح التنوير أو النهضة... إلخ. وفجأة يظهر العصر الحديث (مع محمد علي أو قبيله) وكأن لم يكن قبله أية إرهابات. راجع عن تاريخ مصر آنذاك: Mueller, op. cit.

(٢) وفق تعريف هيجل للتاريخ، وذلك مجرد افتراض، إذ يمكن اعتماد مفاهيم أخرى. راجع:

G.W.F. Hegel, Philosophie der Geschichte, in: Werke in 20 Bänden, B. 12, 3. Aufl., Suhr-Kamp, 1971, 1992.

(٣) محمد شفيق غريبال: تكوين مصر، مط. دار الكتب، القاهرة ٢٠١١، فصل: مصر هبة المصريين. ولهيرودوت مقولات سائرة: مصر أم الدنيا، والمصريون أكثر شعوب العالم تقوى، وقد سبقوا اليونان إلى أعياد الآلهة واحتفالاتهم... راجع: هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة: محمد صقر خفاجة، تقديم: أحمد بدوي، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٨٧، ص ١٥٩ ومواضع أخرى. وعن هيرودوت: Posener, Lexikon, S. 101

(٤) يرجح أن تلك الفترة الجافة (حوالي ٨٠٠٠ ق.م) سبقتها مراحل جفاف متناثرة. فمنذ نحو عشرة آلاف سنة حدث التصحّر في مصر، ليسجّل تحديًا خطيرًا للإنسان المصري.. فايز علي: إنسان ما قبل التاريخ: ١٠٥٠٠.. ومؤلفات: رينيس، هاولز، Knapp, Petrie, Hayes المشار إليها في الدراسة.

وكانت ثمة استجابات شتى، لعل أمثلها التحول من حياة القنص وجمع الغذاء إلى الرعي فيما تبقى من مراعي في الوادي وبعض الواحات.

هنالك تجلّت أهمية الكدح في سبيل الإفادة القصوى من ذلك الشريان الحيوي، الذي فرض الوحدة على الأهليين، فطفقوا يتعاونون في شق الترع والمساقى، وردم المستنقعات انتقاء لشُرور الملاريا والأمراض، وتوطئة لحياة المرعى ثم الزراعة^(١). هكذا فكروا في استئناس الحيوان بصورة أكبر، واستزراع النبات الذي كان ينمو بريًا من قبل^(٢).

أولئك الرعاة (الجدد) هم الصفوة المبدعة التي عناها توينبي، وغريبال بقي أمينًا لأستاذه، إذ يفترض أن من الرعاة من اتجه صوب الشمال، ليتلاءم مع مناخ أميل إلى البرودة مستغلًا أصواف رعيته من الحيوان في صنع ملابس تقيه البرودة، وأما الذين اتجهوا صوب الجنوب حيث المناخ يتراوح بين الحرارة المعقولة والمناخ الاستوائي أو شبه الاستوائي؛ فلا شك أنهم استحدثوا من المأوى والملبس ولوازم الحياة ما يلائم ذلك المناخ^(٣).

وإذا كانت المبادرة المناسبة تسعف صاحبها، فلا شك أن انعدام المبادرة الملائمة أدى بأصحابه إلى الفشل، فلم يبحثوا عن مكان جديد، ولم ينجحوا في تغيير أساليب حياتهم، فواجهوا الردى. وتلك الرؤية في تصوّرنا - لا ترفض القدر ولا تعاديه، فالإيمان بالقدر يدفع صاحبه إلى العمل إذا كان ذا همّة، وإنما التذرّع بالقدر المجهول هو الذي يقعد بالكسول.

(١) راجع: سليمان حزين: البيئة والإنسان والحضارة في وادي النيل الأدنى - في: تاريخ الحضارة المصرية، النهضة المصرية، مجلد ١، ص ٣٥ وما يليها، وله أيضًا: حضارة مصر - أرض الكنانة، ط١، دار الشروق، القاهرة ١٩٩١/١٤١١ وأيضًا: بريستند (جيمس هنري): تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ترجمة: حسن كمال، ط١، وزارة المعارف، القاهرة ١٩٢٩، ص ١ وما يليها.

(٢) شهدت تلك الفترة استخدامًا موسعًا للآنية الفخارية لحفظ الطعام وطهيهِ، وتطور معدّات الصيد أيضًا. فايز علي: ما قبل التاريخ: ٢: ١٠٥ وما يليها. وقد شهر تقسيمان للحضارة وفق آثار الفخار لـ: Petrie, Kaiser، أيضًا مادة فخار - لدى: سونيرون وآخرين: معجم الحضارة المصرية، ترجمة: أمين سلامة، هيئة الكتاب، القاهرة ٢٠٠١، ص ٢٥٢.

(٣) غريبال: تكوين مصر، ط. هيئة الكتاب ١٩٩٠، ص ١٨.

ونضيف كذلك أن حضارات ذلك العصر - وهي تدخل غالبًا في العصر الحجري الوسيط - تنتشر معظم مواقعها في الواحات الكثيرة التي بدأت آنذاك تجتذب الرحّل، بما ضمته من مصادر الحياة وأهمها الماء لتجتذب إليها الحيوان والبشر جميعًا. والواحات آنذاك كانت أكثر عددًا وأوسع نطاقًا من الآن. وأما في الوادي فمواقع السبيل بكم أمبو، والشيخ فضل بمصر الوسطى، وفي الكاب قرب إدفو، والمحلات القارونية بالفيوم، وفي حلوان أيضًا^(١).

هكذا تجلّى دور القلة الخالقة في نشأة المدينة بتعبير توينبي. "وليكن التفسير ما يكون، فإن مصر، مصر التي تشكلت على هذا النحو المفاجئ المثير، قد سيطرت هي أيضًا على مصائر أبنائها، واقتضتهم ثمن بقائها على الشكل الذي صنعوه. هذا هو موضوعنا"^(٢).

ولعلنا نقول إن الحضارة نشأت في مصر مزاجًا بين إرادة البشر والحتم الجغرافي، متمثلًا في النيل وعوامل المناخ الأخرى، فلم تكن مصر أبدًا هبة النيل وحده بل هبة المصريين أيضًا.

ثانيًا- الثبات والتغيّر:

هما مبدآن متناقضان لكنهما متلازمان، وقد تنازعا تيارات الفلسفة ومدارسها منذ القدم. وإذا كانت الطبيعة مبدأها الحتمية؛ فإن الروح - كما يقول هيجل - جوهره الحرية^(٣). وإذا كان الحتم الطبيعي قد يعني اطراد ظواهر الطبيعة حتى تبدو ثابتة؛ فإن الحرية تعني التغيّر فيما تعني.

(١) كان للشرق الأدنى دور كبير في حضارة تلك الفترة، فعرفت مثلاً الحضارتان النطوفية والغسولية في فلسطين. راجع: فايز علي: المرجع السابق: الموضع نفسه.

(٢) غربال: تكوين مصر ٢٠١١، ص ٩.

(٣) توجد هذه القسمة الثنائية أيضًا عند كانط (ت ١٨٠٤م) سلف هيجل العظيم. إذ تسود الضرورة عالم الفينومينا (الظواهر) ولا توجد الحرية حقًا إلا في عالم النومينا (الحقيقة) الذي لا يدركه إلا العقل العملي (الضمير). عن كانط:

وما انفك باحثو الحضارة يتحدثون عن الثابت والمتغير^(١) ويعرض مؤرخنا غربال لتصورات فلاسفة التاريخ والحضارة مثل كونت وشبنجلر، ويعتمد - مرة أخرى - منهج توينبي، الذي عدّله باريتو وغيره من فلاسفة الاجتماع.

ولا يلتزم مؤرخنا - عن حق - بمفتاح واحد بل يحتفظ بسلسلة من تلك المفاتيح والمداخل لفهم نشأة الحضارة المصرية وتطورها. فما النتيجة؟ جملة استنتاجات جديرة بالمدارسة. حينما زار إرنست رينان (١٨٢٣-١٨٩٢م) مصر تفقد كشوف مارييت باشا الأثرية العظيمة^(٢)، ولكن ماذا قال عنها؟ قال: "إن مصر ولدت شيخاً هرمًا. ومن الملائم ألا يبقى الإنسان شابًا طول عمره، ولكن ليس من الطبيعي ألا يمر الإنسان بمرحلة الشباب"^(٣). قول معناه أن الثبات جوهر الحضارة المصرية، منذ نشأتها، فأساليب معيشة الفلاح في القرن التاسع عشر لا تكاد تختلف عن تلك التي اصطنعها أسلافه منذ ألوف السنين. ودلالة ذلك أن لا تطور ولا ابتكار^(٤).

ونظرًا لتعصب رينان للحضارة الهلنينية ومقولات فلاسفتها ومن جاء بعدهم من مفكري أوروبا، يبدو من المفهوم أن يقول عنه غربال: "وخلاصة ما رأى [أي رينان] في مصر القديمة

(١) مثل جوستاف لوبون (١٨٤١ - ١٩٣١) الذي أعلى من شأن العقل الجمعي وأثره في سلوك الأفراد ناحيًا نحو الفلسفة الوضعية، ومن العوامل الثابتة أيضًا الأرض والإقليم والمناخ والعرف وعوامل الجغرافيا، وأما المتغير فيشمل عوامل كالهجرة والغزو والآراء الدينية: لوبون: سرّ تطور الأمم، ترجمة: فتحي زغلول، دار الفرجاني، القاهرة، ص ٩، ٢١، ٤٨..
(٢) كان مارييت رئيس هيئة الآثار، وأشرف على تنقيبات عدّة في معبد حور بإدفو والسيرايوم بسقارة، وأسس المتحف المصري (القديم)، ولما توفى سنة ١٨٨١ تم دفنه في حديقة المتحف المصري بالتحريم وإقامة تمثاله الكامل واقفًا أمام قبره. راجع:

J.P. Corteggiani, Das Museum Kairo, Nottbeck Vrlg., Koeln 1978, S. 9 ff.

(٣) غربال: تكوين مصر، ٢٠١١، ص ١٤-١٥ وعن مارييت ورينان ورحلته إلى مصر (١٨٦١ ثم ١٨٦٤م) راجع: ثروت عكاشة: مصر في عيون الغرباء من الرحالة والفنانين والأدباء القرن ١٩، هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٨٤، ج١، ص ٢٦٩.

(٤) يمكننا الرد على رينان بالإشارة إلى إبداعات المصريين الأدبية ذات الاتجاهات والأنواع المتباينة مثل تعاليم الوزير بتاح حتب (حوالي ٢٥٥٠ ق.م) والمملك خيتي الرابع (حوالي ٢٠٧٠ ق.م) وبردية اليائس من الحياة... وهي نماذج صارخة للتجديد والنقد... فايز علي: الأدب المصري: ج٢.

H. Brunner, Altaegyptische Weisheit, WBG, Darmstadt 1988.

أيضًا: سليم حسن: الأدب المصري القديم، ١٩٤٥، كتاب أخبار اليوم، عدد ٢٤، ديسمبر ١٩٩٠، ج١.

أنها حضارة قيدها الاستبداد الديني والسياسي^(١). ولا عذر لدى رينان - في تصورنا - في ضوء تلك الكشوف الباهرة من آثار مصر، التي نالت تقدير شمبليون وعلماء الآثار المصرية لا سيما الفرنسيين منهم إلا أن يكون التعصب رائده^(٢).

ولذلك يفند غربال - عن صواب - مقولة رينان غير المنصفة وأضرابها، فيوضح أن الأهرام والمعابد والمقابر المنيفة إن عبرت عن نضج الحضارة - لا شيخوختها؛ فلقد سبقتها أطوار من حضارات ما قبل التاريخ وما قبل الأسرات^(٣).

ما أجمل رد غربال! والحق أن البحث في حضارات ما قبل التاريخ مهم بل واجب حتى نفهم كيف ظهرت حضارة الأسرات، بيد أن ثمة صعوبات كثيرة تكتنف ذلك البحث، ومن أهمها عدم وجود وثائق إذ أن الكتابة لم تكن قد اخترعت بعد^(٤)، فضلاً عن قلة آثار تلك الفترة نظرًا لتعرضها لعوامل الفناء والضياع.

ويعبّر مؤرخنا سريعاً من العصر العتيق والدولة القديمة إلى عصر الانتقال الأول بالدولة الوسطى، التي تنتهي بحلول الهكسوس على سدة الحكم، وطردهم، وبذا تقوم الدولة العالمية

(١) غربال: المرجع السابق: ص ١٥ وما يليها. وكذا اعتبر رينان فلسفة المسلمين مجرد فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية تعصباً للجنس الآري.

(٢) كان تفسير الهيروغليفية خطوة أساس لفهم الحضارة المصرية.. وقد أسهم فيه تسويجه وأكريلاد وتوماس يونج وغيرهم، ولكن شمبليون كان أسعدهم حظاً. راجع:

B. Walterson, Introducing The Egyptian Hieroglyphs, Edinburgh, Posener, Lexikon, S. 103.

فايز علي: اللغة المصرية وكتابتها الهيروغليفية، القاهرة ٢٠٠١

(٣) ما قبل التاريخ يشمل: العصر الحجري القديم منذ نحو مليوني سنة، وعصوره الثالث أو الأدنى: حتى (حوالي ١٠٠٠٠ ق.م)، الثاني أو الأوسط: حتى (حوالي ٤٠٠٠ ق.م)، الأول أو الأعلى: حتى (حوالي سنة ٨٠٠٠ ق.م)، العصر الحجري الوسيط (٨٠٠٠ - ٥٠٠٠ ق.م) والعصر الحجري الحديث (٥٠٠٠ - ٣٨٠٠ ق.م) وأما ما قبل الأسرات فيشغل فترة تقريبية من (حوالي سنة ٣٨٠٠ إلى ٣١٠٠ ق.م). وفي ذلك الإطار تشعبات وأقسام عدة.

(٤) عرفت الكتابة الهيروغليفية في الأسرة الأولى. والرأي أن ثمة مراحل تمهيدية سبقت ظهورها في عهد ما قبيل الأسرات، وتلك استنتاجات مبنية على ما تجود به الحفائر.. كما فعل Breasted, Petrie, Kaiser, Dreier... ممن أشرنا إليهم ومؤلفاتهم في: ما قبل التاريخ.

(الدولة الحديثة) التي يُسميها مؤرخنا الإمبراطورية، ويقسمها آخرون إلى إمبراطوريتي التحامسة (الأسرة ١٨) والرعامسة الأسرتين (١٩، ٢٠)^(١).

ويفسر ثورة إخناتون الدينية بأنها كانت محاولة (الروح) للبحث عن الهدوء والطمأنينة المفتقدين رغم إنجازات (الإمبراطورية) العسكرية وراثتها المادي^(٢).

كذلك يرى أن ما تبقى من مصر في عصر الأسرات الأخيرة (من الأسرة ٢٠ حتى ٣٠) كان نواة متحجرة، نظرًا لثبات النظام الاجتماعي القائم على ضبط النيل، وانطواء مصر على نفسها بينما طفق العالم يتغير من حولها. ويمهد بذلك كله لمعالجة مقدم الإسكندر الأكبر^(٣).

ونقرر إجمالاً أن الدولة الحديثة لم تقم على التوسع الهجومي، ولذا فهي تختلف - في تصوّرنا - عن إمبراطوريات الإسكندر رغم فكره الإنساني المتطور والرومان من بعده، وكذا الإمبراطوريات

(١) يعتبر بريستد - عن حق - أن منخبيرع تحتس الثالث (من ٣ مايو ١٥٠١ ق.م - ١٧ مارس ١٤٤٧ وفق بريستد) أول رجل يؤسس إمبراطورية على وجه الأرض. وقد استكمل بالطبع جهود أسلافه، ولكنهم جميعًا لم يستهدفوا التوسع في ذاته بخلاف يونابرت مثلاً. وقد أحسن صنعًا مؤرخنا إذ لم يلقب تحتس بنابليون مصر. ويدخل في فترة حكمه المدينة عهدا تحتس الثاني وحتشبسوت، وثلاثتهم إخوة غير أشقاء، وأبناء تحتس الأول وفق بريستد أيضًا: تاريخ: ص ١٧٣، ١٨٨ وما يليهما، وعن تاريخ مصر آنذاك:

E. Hornung, Grundzuege der Aegyptischen Geschichte, WBG, Darmstadt 1978, 2. Aufl., S. 72 ff.

(٢) وإن ترتبت على انتصارات التحامسة والأنحتبيين وغيرهم غنائم وثراء، فإن حضارة مصر آنذاك كانت لها ركائزها المعنوية الروحية وفي صلبها عقيدة الخلود التي تجل صراع الخير والشر الواقعي، وهو ما يعكس عدم طمأنينة المرء في الدنيا، بينما تقدم كتب الآخرة فلسفة عميقة في انتصار الخير أخيرًا، وتلك هي الطمأنينة الحققة. راجع دراما الصراع في:

G. Roeder, Urkunden zur Religion des Alten Aegypten, I Aufl., Eugen Vrlg., Duesseldorf 1978, S.120.

(٣) لذلك قدمت شعوب البحار عن مصر صورة شعب متجهم على غير الحقيقة كما يرى مؤرخنا عن صواب. وشعوب البحار ظهرت حوالي ١٢٠٠ ق.م فصاعدًا لتقضي على الإمبراطورية الحيثية، ومنهم الدانان والشردن السردينيون؟ والتشكل صقليون؟ والترشو أجداد الإيتروسكان؟ والبرشت فلسطين والأخيرون من أصل إيجي... راجع: كوتريل: الموسوعة الأثرية العالمية، ترجمة: محمد عبد القادر، هيئة الكتاب، القاهرة، ص ٥٠٥-٥٠٦.

الأوروبية الحديثة.

أما مقبرة سيقي الأول (حوالي ١٣٠٩-١٤٩٠) فيضرب بها مؤرخنا المثل لحال عدم الاستقرار التي اعترت الروح المصري آنذاك، بيد أننا نرى في نقوشها تصويراً لصراع الحياة الأبدية وعوامل الفناء، وذلك صراع أصيل أدركه المصري في "كتب الآخرة" قبل هيراقليط بأزمان، الأمر الذي يعلي من شأن الفلسفة المصرية (القديمة).

كما أن انتساب ذلك الملك العظيم إلى ست (إله العواصف والصحراء) عبّر عن رؤية سياسية مهمة، وذلك أنه كان حامي البلاد ضد القادمين من الصحراء، وهم أعداء مصر^(١).

وعهد سيقي مهم جداً لأسباب منها أنه جاء بعد أزمة العمارة بنحو نصف قرن ليعلن عن إعادة الميلاد (وحم مسوت) renaissance أي عصر النهضة. وقد كان في جانبه الحربي محافة أمينة لجهود تحتمس الثالث (ربما كان أعظم الفاتحين القدماء)، وفي جانبه الحضاري إحياء للعمارة الرشيقة والفنون المتقنة (معبد أبيدوس) واستتباً لعقيدة آمون - رع^(٢).

ثالثاً- الحكومة والمجتمع والإنسان:

لعل أبرز ما يميز النظام الاجتماعي في مصر هو المحافظة التي تتجلى في التقاليد والعادات الراسخة، التي يبدو أنها لا تكاد تتغير عبر الأجيال، وإن تغيرت ففي ببطء شديد. ومعنى ذلك أن إلزام المجتمع يصير مقدماً على التزام الفرد.

(١) سيقي أي المكرس ل (ست)، وقد أنزل رع منزلة عالية.. بقيت موميأؤه مفخرة لخبراء التحنيط القدامى، إذ يبدو كالثائم ليشهد بعظمة مصر.. فايز علي: التحنيط ودلالاته الفلسفية والتاريخية، محاضرة بقصر ثقافة هليوبوليس ١٩٩٣. أيضاً:

A.- P. Leca, The Cult of The Immortal, New York.

(٢) في الجيل السادس بعد أخناتون الذي نحى آمون جانباً، وأحل محله أتون. ويقال - بترجيح مقبول جداً - إن معبدي أبو سمبل بُدئ في تشييدهما في عهد سيقي إ، وإن استكملها ابنه رمسيس الثاني، الذي ضحى بالإتقان الذي تتسم به عمارة سيقي، لينشر منشأته في كل مكان. وأما معبد أوزير بأبيدوس فمن أعاجيب العمارة في العالم. راجع:

A. Zayed, "Abydos", EAO (Egyptian Antiq. Org.), Cairo.

يمهد مؤرخنا بتعريفات علماء الاجتماع للوحدات التي ظهر منها الاجتماع البشري منذ فجر الحضارة^(١). ويخلص إلى أن الفرد - وإن كان عماد المجتمع في مصر - فقد كان ضحيته أيضاً، ويصدق هذا - من وجهة نظره - في العصور الأولى؛ حيث ولي الحكم ملوك آلهة ثم أتباعهم أنصاف الآلهة أو أشباههم، وحتى في عصر الديانات السماوية، ف«العقيدة الدينية لم ترجح كفة الفرد كما كان ينبغي لها أن تفعل»^(٢)، وذلك أن أولي الأمر كانوا هم «من يملك وسائل فرض الطاعة على الرعية»، كما أنهم افترضوا جموح الطبيعة البشرية نحو الشر.

ولعل مؤرخنا قد اعتمد - ضمناً - منهج الأطوار الثلاثة، الذي يفرق بين حكومة الملوك والآلهة (سواء الفراعنة أو خلفائهم من البطالمة والقيصرية) وحكومة الشرع السماوي (المسيحية والإسلام) ثم الحكومة الوضعية وفق أحكام العقل البشري^(٣)، وإن كان قد أقر مبدئياً أنه لا يجوز اصطناع مقارنة واحدة لتفسير التاريخ كله.

ويقف مؤرخنا ملياً بمسألة مهمة، وهي تحقق الوحدة المصرية الأولى بين مملكتي الشمال والجنوب^(٤). فيرى عن صواب - ربما - أنها تمت صلحاً لا قسراً كما يصور البعض^(٥). وكانت استجابة عظيمة لتحدي الطبيعة وعمادها النهر (فيضان النيل وتحاريقه وندرة المطر... إلخ) ولولا

(١) مثل البطن والعشر والقبيلة وعصبة القبائل. وتلك التجمعات البشرية نشأت عنها المحلات الأولى التي تطورت عنها القرى والمدن والأقاليم. راجع: أحمد الخشاب: علم الاجتماع، القاهرة ١٩٦٣.

(٢) غريبال: تكوين ١٩٩٠، ص ٤٧.

(٣) كما فعل أوجست كونت (ت ١٨٥٧) أحد ممثلي الفلسفة الوضعية: Positivism، وهي من المذاهب المعارضة للميتافيزيقا. وقسمته داخضة، فحضارة مصر القديمة قامت على علوم متطورة تعز محاكاتها حتى في عصرنا هذا، فكيف ندخلها قسراً في مرحلة الميتافيزيقا أو الأسطورة؟ راجع عن كونت والوضعية: dtv-Atlas, S. 165 f.

(٤) هي في الواقع الثانية، إذ سبقها عصر الاتحاد الأول حوالي سنة ٤٢٤٢ ق.م بزعم المعادي كما وضعنا.

(٥) غريبال: تكوين: ٣٧. واستنتج مؤرخنا يبدو سليماً، وأما المعارضون فيذهبون إلى أن نعرمر قد صور على لوحته وهو يقمع أعداءه من أهل الشمال أي الدلتا وذلك تفسير قسري. يراجع:

Hayes, Most Ancient Egypt, Chicago 1965; G. Maspero, Geschichte der Kunst in Aegypten, uebz. Rusch, 2. Aufl, Hoffm. Vrlg. Stuttgart, S. 23.

تلك الوحدة الطوعية لتعثرت جهود ضبط النهر وتقويم وادبه الذي كان يعجّ بالمستنقعات والأحراش . بيد أن القول إن مصر سادها حكم مركزي (مطلق في أغلب الأحيان) - كما يذهب مؤرخنا - فيه نظر. فلم يكن أبناء الشمس من ملوك الأسرة الخامسة مثلاً يتمتعون بسلطان أسلافهم: سنفرو وخوفو وخفرع من الأسرة الرابعة ولا أسلافهم من الأسرات الأولى وبعد نهاية الدولة القديمة سادت فوضى عارمة، وإن أسفرت عن قيام حكومات محلية لم تتمتع بسلطة مركزية بما في ذلك أسرة أهناسيا القوية (الأسرتان التاسعة والعاشره)^(١).

كذلك لا يمكننا الزعم بأن الدولة الوسطى تمتع ملوكها بسلطة مركزية مقارنة بالأسرة الثالثة أو الرابعة مثلاً، بل كانت أقرب إلى اللامركزية وهلم جرّاً^(٢). وصفوة القول إنه لا يوجد نسق واحد يمكن أن تندرج فيه كل فترات التاريخ المصري وعصوره، وهذا ما يخالف فيه أستاذنا.

ويبدع مؤرخنا فيقول عن حكومة مصر (الفرعونية) وهو يناقش آراء رينان: «إنها كانت حكومة الفنيين. والفنيون يكونون إذن أول طوائف مجتمعتنا المصري»^(٣). وكيف لا يكونون كذلك، والمعبود بتاح - إله الدولة القديمة أيضاً - كان ربهم، أي رب الحرفيين والصناع^(٤) وكان

(١) وهي من أئري فترات التاريخ بالأدب والفكر السياسي، مما يثبت أولية مصر على اليونان مرة أخرى. وقد وضعنا ذلك في: تعاليم الملك الفيلسوف - فلسفة السياسة قبل أفلاطون وأرسطو، القاهرة ٢٠٠٥، أيضاً في فلسفة تاريخ

مصر: ج٢، ص ١٠٤.. أيضاً: Brunner, Weisheit, S.S. 137 ff, 358-367.

(٢) أغفل بعض مفكري الحضارات - مثل راسل وتوينبي التباين الظاهر بين مراحل التاريخ المصري (الفرعوني) مما أضر باستنتاجاتهم الكلية على نحو ما وضعناه. وللأسف أن مؤرخنا تابع ذلك هو وبعض المفكرين مثل جمال حمدان في: شخصية مصر.

(٣) ذاك أبلغ رد على أندريه ريمون - وهو مؤرخ عظيم أيضاً؛ إذ يقول: إن مصر لم تعرف نظام الطوائف المهنية قبل العصر العثماني في: الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن ١٨، ترجمة: ناصر إبراهيم - باتسي جمال الدين، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥، ج ٢ ص ٧٣٤؛ هنالك تتضح أهمية الرؤية الكلية لتاريخنا.

(٤) تلك من الملاحظات المفيدة للمؤرخ. راجع: Ivimy, op. cit., P40 وتوضح فائدة القراءة التأملية للتاريخ. عن المعبود بتاح : Posener, Lexikon, S. 205 f; Roeder, op. cit., S.57ff.

منهم بالطبع مخترعو الكتابة^(١).

هكذا ظلت الوحدة قائمة على التركيب بين عنصرين أو أكثر. فالتاج مركب من تاج الشمال الأحمر وتاج الجنوب الأبيض^(٢). وهناك الشونتان والفيلقان في (الجيش الموحد)، ومقبرتا الشمال والجنوب (لفرعون)، والمعبودتان الحاميتان للمملكتين، ونباتا البردي واللوتس الرمزيّتان..

ويدعم مؤرخنا مبدأ المحافظة مرة أخرى، إذ عمد فرعون - في رأيه - على تقريب حديثي النعمة ورفعهم، كما أوصد أولئك الفنيون الأبواب أمام الدخلاء، وهكذا حافظ النظام على بقائه وبالأحرى جموده^(٣). وظلت القلة تستأثر بنتاج الغالبية من الكادحين، وإن عنيت الحكومة بالقوانين «لكفالة حسن السلوك والسيرة القويم». وأما في عهود البطالمة والقيصرية فقد عمّت البلوى، واستشرى الاستغلال، فلم يجن الأهلون من النظام القديم إلا مساوئته.

ومن جانبنا نقدّم نماذج داحضة لذلك التصوّر الذي ينال في الواقع قبولاً لدى مفكري الحضارات والاجتماع، منها مثلاً أدب عصر الانتقال الأول، الذي يعلي من شأن الفرد وفكره، ويشور بالأفكار والمعتقدات الموروثة، فيطرح الشك فيها علانية، ويحض إما على تشاؤم مفرط أو تفاؤل يقود إلى اغتنام الملمات^(٤). كذلك لا يمكن أن تدخل نماذج النحت الإبداعية

(١) كانت حرفة الكتابة عالية المنزلة (راجع تمثالي الكاتب باللوفر والمتحف المصري). إلخ. وتعاليم خيتي بن دوار.

إف راجع: سليم حسن: الأدب: ٢٢: ٨٧ ff. Maspero, op. cit., S. 87

وظلت الكتابة حرفة في التراث العربي أيضاً (كتاب الصناعتين - أي النثر والشعر - للعسكري مثلاً).

(٢) ظل اللونين رمزيتهما الطاغية عبر تاريخ مصر، فالأبيض أوزير والأحمر ست، والقاسمية والفقرارية من

(الممالك) حتى الزمالك والأهلي عن التاج المزدوج راجع مثلاً: Posener, Lexikon, S. 138.

(٣) لم يكن إيمحتب ولاحم يونو (معمارا زوسر وخوفو) ولا أضرابهما من حديثي النعمة، ولا كاهني أو بتاح حتب.. وأين نظراء نعرمر أو خع سخم وي أو سنقرو أو أمنمحات أو سنسرت.. إلخ. بين ملوك العالم؟ راجع عنهم: Posener, Ibid. ومراجع أخرى عن تاريخ مصر: بريستد، سليم حسن، زايد...

(٤) برهنا في: فلسفة التاريخ: ج٢: ص٤: أو ما يليها، ودراسات أخرى على سبق أولئك الأدباء لسارتر وكاميه ومفكري الوجودية والمذاهب الحديثة. وكذا دراستنا عن: الصورة الاجتماعية - مؤتمر الجمعية التاريخية: أبريل ٢٠١٢.

من الدولة الوسطى وفترة العمارنة. بل حتى من الدولة القديمة والدولة الحديثة في باب الفن التقليدي الجامد أبدًا. من تلك تماثيل أوسركاف من الأسرة الخامسة أو سنوسرت الثالث من الأسرة الثانية عشرة، وهلم جرا^(١).

ولا غرو أن تمتد مصر بفكرها وحضارتها إلى خارج حدودها في كل اتجاه بالعلم ثم لا تروى مجال الحرب إلا دفاعًا ضد الغزاة، وفيها نشأت الفلسفة، والفكر السياسي والاجتماعي، ومبادئ الأخلاق والإبداع الفني والأدبي قبل اليونان وروما وأوروبا الحديثة^(٢). وذلك كله ما يتعارض مع قول غربال السابق.

ويستنبط مؤرخنا حكمًا عامًا، وهو أن مصر ظلت ضيعة، وإن اختلف لقب حاكمها أكان سلطانًا من الممالك أم واليًا لقيصر روما.. إنه باختصار الحكم المطلق «والبلاء قديم قدم إنشاء مصر»^(٣)، ففرعون مصر ملك إله، توهم أنه خالق مصر، ومصر ملك خاص له، فكان ملكًا يخدم أهواءه ومسرته وتمجيده في هذه الدنيا.. فلا عجب أن نادى في الملأ (أنا ربكم الأعلى)^(٤). وهو حكم يستند في رأينا - إلى مقولة توينبي: «خلال الخمسة أو الستة آلاف من السنين الماضية استأثر قادة المدينيات المختلفة بثمرة كد الجماعات وحرمو أعبيدهم حقهم فيها دون تردد أو وخز ضمير»^(٥).

ويلتحق بالركب جمع منهم مثلًا جمال حمدان، الذي يقول: "لا يعرف تاريخ مصر من ينكر

(١) تقول برانتون إن رأس تمثال سنوسرت الثالث الجرانيتية تزري برأس نفرتيتي في متحف شارلوتنبرج في برلين

- حللنا الفن في الدولة الوسطى في: فلسفة التاريخ: ج٢، وقارن: Maspero, op. cit., S. 115 ff.

(٢) اعتبار تلك الأوليات لمصر - عن جدارة وموضوعية لا عن تعصب - هولب التصير - في رأينا - سواء في الجامعة أو في مراكز البحوث أو الإعلام.. وهلم جرا.

(٣) غربال: تكوين (٢٠١١): ٣٥-٣٨. وللأسف أن هيجل وصم الشرق القديم - ومصر منه - بالعبودية، وكذا كونت. وقد فندنا ذلك في: فلسفة التاريخ: ١: ٤٦، تعاليم الملك الفيلسوف، مواضع شتى.

(٤) القرآن لم يسم ذلك الملك، ومن غير المنطقي الحكم على كل ملوك مصر بمثل ذلك الحكم عدم استغراق الحد الأوسط في القياس. راجع مثلًا: الأعراف: ١٠٣، يونس: ٧٥، طه: ٦٣-٦٤، النمل: ١٢-١٤، وهلم جرا.

(٥) غربال: المرجع السابق: ٣٨. وحكم توينبي أيضًا غير مبني على استدلال منطقي سليم.

أن الطغيان والبطش من جانب، والاستكانة أو الزلفى من الجانب الآخر هي من أعمق وأسوأ خطوط الحياة المصرية عبر العصور^(١)... وهلم جرًا. واستناد تلك الأحكام إلى الحتم الجغرافي وسواه ليس مقنعًا.

وإذا كانت شؤون الإدارة والحكومة لم تبحث بتفصيل كاف بعد، فإن إصدار أحكام كتلك المتقدمة لا يستند إلى مقدمات راسخة، فما يقال عن فرعون الخروج لا يستند على وقائع - بله حقائق - تاريخية.

وأما الحكم بمقتضى "ماعت" أي العدالة فيصلح مقدمة منطقية للاستدلال. كذلك آيات الإبداع في التحنيط والبناء والفلك، وفي الأدب والفلسفة والفكر السياسي الاجتماعي قبل فلاسفة اليونان بقرون عديدة. ويصعب أن يكون للمرء أجداد مبدعون كأولئك الفراعنة ولا يساهي بهم، فلماذا توجه كل تلك الاتهامات إليهم بلامقدمات منطقية ولا مبررات؟.

بيد أن البطالة والقياصرة رفعوا من شأن الأغراب الذين « مارسوا شئون تجارة السلع وتجارة الفكر ». « واستنزفت دماء الأهلين إلى آخر قطرة »^(٢).

ومع مقدم المسيحية ثم الإسلام بُعثت الشخصية المصرية من جديد، ولكن حدّ من تحرّر الفرد إيمان الحكم بأن الشرّ متأصل في البشر، وأن الناس خلقوا في مراتب ودرجات متفاوتة. ورغم صلاح النظرية الإسلامية في إقامة العدل والمساواة والتكافل؛ فقد أوجب الواقع « أن الحكم ينبغي أن يكون في يد من يملك وسائل فرض الطاعة على الرعية ».

(١) في صيغة النصّ تجهيل لمن لا يسلم بحكم حمدان! وثقة بأن ما يقوله يقين مطلق مع أنه لم يبين ذلك الحكم على أية مقدمات منطقية مقنعة: شخصية مصر: دار الهلال، القاهرة ١٩٦٧ (عدد ٥٠٩، مايو ١٩٩٣) ص ٥٧. والعجيب أن يحمل كتابه ذلك العنوان! وقد فتدنا دعواه ودعاوى مماثلة في: السلطة والحق الإلهي في مصر، مؤتمر الجمعية التاريخية، القاهرة ٢٠١١.

(٢) يبدو أن خفوت شخصية الفرد وراء حجب التقاليد والعادات الاجتماعية حدّ من الإبداع الفردي. وقد ذهب العقاد في تفسير تخلف الشعر مذهبًا مقاربًا، فقد حفلت الساحة بالعروضيين التقليديين، وأما البارودي (ت ١٩٠٤م) فقد (بزغت مقومات الشخصية البارودية من وراء حجب الأوضاع وأعباء العرف والاصطلاح): العقاد: شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، النهضة المصرية ١٩٣٧/١٣٥٥، ص ١٣٢.

ومن جانبنا نرى أن النظرية الإسلامية التي يذكرها غريال هي اجتهاد بشري يصيبون ويخطئون. وجميل أن نركن إلى الالتزام الخلقي بوازع الضمير لدى الأفراد، ولكن حسن النوايا في تلك الأمور قد يقود إلى فوضى^(١). لذلك فالحزم مطلوب والإلا قوضت دعائم المجتمع.

ونؤكد من جهتنا أن تاريخ مصر منذ التوحيد الأول لم يخلُ من مبادرة أفراد مبدعين، منهم مثلاً إيمحتب الذي يعزى إليه تأسيس العمارة الحجرية، فضلاً عن تعاليمه الحكيمة التي فقدت هي وتعاليم كاجمني الأكبر (كايرسو)، ولكنها بقيت محفوظة ضمناً في تعاليم الحكماء من بعده: بتاح حتب وجدف جور وخيتي وأمنمحات... حتى آني وأمنموت^(٢).

رابعاً- المدينة والريف :

تقدّم أن مؤرخنا ابن الإسكندرية (المصرية أيضاً). ولعلّ عبارته الرئيسية في هذا الفصل: أن الحضارة المصرية (قديماً) ظلت ذات ثقافة ريفية بالأساس مما يوحي بأن ثمة تعارضاً - ولو لم يكن جوهرياً - بين الريف والحضر، مع أن الريف في اعتقادنا هو أصل الاستقرار والزراعة ومن ثم الحضارة. وظهرت بنادر في مراكز الأقاليم حيث كان مقرّ إدارتها، وسوقها ومواسمها، وعباداتها المحلية أيضاً.

وأما الحضارة المدنية الحقّة - أي الحضارة التي تنبع من حياة المدينة بالأساس - فهي الحضارة الإسكندرية، وبالأحرى حضارة مصر منذ عهد الإسكندر الأكبر. وقد نشأت بالطبع مدن أخرى غير الإسكندرية منها توليماس في الصعيد^(٣).

(١) كما حدث في فترة العمارة تحت حكم إخناتون للأسف، فقد علا شأن الأفاقين والمنافقين، ورجعت البلاد القهقري كما يتضح من مراسلات العمارة:

Watterson, Amarna: Ancient Egypt, s Age of Revolution, Tempus Pbl., UK 1991, pp. 50, 60, 82.

(٢) راجع نماذج لهؤلاء المبدعين في: H. Brunner, Weisheit

وأيضاً: ج. هاري: إيمحتب. ترجمته هيئة الآثار. وفيه يظهر عبقرية إيمحتب في العمارة والطب والحكمة وأسبقيته علي اسكليوبوس وإيبوقراط وجالينوس...

(٣) راجع: د. فالبيبل: الناس والحياة في مصر القديمة، ترجمة: ماهر جويجاني، ط١، دار الفكر، القاهرة ١٩٨٩، أيضاً محرم كمال: تاريخ الفن المصري القديم، دار الهلال ١٩٣٧. وقد عولجت الحياة اليومية في جُلّ كتابات علماء الآثار. منها:

Ermann - Ranke, Aegyten und Aegyptisches Leben im Altertum, Mohr Vrlg., Tuebingen 1943.

وأما حضارة مصر في ذلك الطور فكانت مزيجًا من الحضارات المصرية والهيلينية واليهودية، وإن ظل الريف محتفظًا بتقاليد المصرية الخالصة المستمدة من الميراث الحضاري المصري.

ويزداد الطابع المتروبولي تأكيدًا بمرور الزمن، فقد حرص الحكام الرومان على تحويل «عواصم الولايات - تلك المدن التي كان يطلق عليها اسم «متروبوليس» إلى بلديات ذات حكم ذاتي» رغبة منهم في قهر مقاومة المصريين، إذ رابطت القوات العسكرية في الأرياف، التي خصص دخل قراها للإنفاق العسكري.... إلخ. لقد تمّ إذن فرض نظام مستمد من نمط «الدولة - المدنية» المعروف في الحضارة الهلينية^(١).

والواقع أن حضارتي اليونان واليهود اعتمدتا على التنقل إن لم نقل الترحال، ومن ثم الاقتباس من هنا وهناك، وإن ذهب بعض المؤرخين الغربيين مثل جورج جيمس إلى حد اتهام أرسطو ومفكري هيلاس (اليونان القديمة) بالسّطو على ميراث المصريين الثقافي بأوامر من الإسكندر^(٢) وما يبدو لنا مبالغة بعيدة ليس إلا محاولة لتفسير ظاهرة عجيبة حقًا، وذلك أن يذيع فجأة شأن الحضارة الهلينية مع ظهور إسكندر وفتوحاته المدوية^(٣).

فالأمر إذن لا يعدو - عند البعض - كونه سطوًا على الحضارات القديمة، ونهب تراثها الثقافي، ونسبته إلى تلك الفئة من شعوب البحار. ولذلك فتلك الحضارة (المدنية) لم تكن إلا نسخة شائثة - وإن تكن براقة لحضارة الريف. هكذا نرى.

وآية ذلك ما يقوله مؤرخنا - ولكن في سياق مختلف - عن تطوير عبادة سيرابيس في العصر البطلمي لتكون تأليفاً بين معتقدات مصرية وأخرى هلينية، بصرف النظر عن نصيبها

(١) أفاض توينبي عن عبودية الحرفيين في هيلاس القديمة وتأليه المدينة - الدولة - توينبي: تاريخ الحضارة الهلينية، ترجمة: رمزي جرجس، هيئة الكتاب ٢٠٠٣: ٢٠٩ وما يليها.

(٢) ج. جيمس: التراث المسروق، الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة، ترجمة. شوقي جلال، المجلس الأعلى

للثقافة، القاهرة ١٩٩٦، ص ٢٥ وما يليها. راجع عن إسكندر Bury, op. cit., 675

(٣) نعتقد أن الإعجاب بالبطولة جار على الموضوعية كثيرًا في كتابة تاريخ الحضارة الهلينية وأثرها في العالم. راجع

من النجاح^(١).

كذلك حديث مؤرخنا غربال عن أون وطيبة وأخيت أتون وسواها من المدن المصرية القديمة^(٢). وإن اعتبرها مدناً كهنوتية، فهنا موضع خلاف آخر. وذلك أن المعابد في تلك المدن المصرية كانت تضم مؤسسات المجتمع كافة، ففيها المشفى، وبيت الحياة الذي يضطلع بوظائف التربية والتعليم، وفيها المكتبات. كما تنوعت أوقاف المعابد وملحقاته من مشاغل ومصانع وضياح وغير ذلك من أصول منتجة. هكذا ظلت تلك المدن حواضر ذات إشعاع مدني بمعنى الكلمة قبل ظهور مدنية الإسكندرية^(٣). وهنا مفرقنا عما ذهب إليه مؤرخنا غربال أيضاً.

أما حضارة اليهود فتعبر يبدو غريباً في سياقه، ويكفي ما عبر عنه بريستد في «فجر الضمير»، إذ يرد إبداع العبرانيين - يعني أسفارهم المندسة - إلى تعاليم المصريين القدماء^(٤). وهذا ما سترد عنه مناقشة أكثر تفصيلاً. على أية حال كان لحضارة اليهود - في رأي مؤرخنا - أثر في تكوين مصر.

ويضيف مؤرخنا أن الرهينة كانت رد فعل إيجابياً، فقد عبّرت عن رفض المصريين للهيمنة الرومانية المتجلية في حياة المدينة الصاخبة، فاتجه الرهبان إلى الصحراء. ولم تكن ثورة الفلاحين كذلك إلا اعتراضاً على حياة المدينة الرومانية آنذاك.

ومع الإسلام أعيد الاعتبار لحياة المدينة ودورها في المجتمع المصري، وإن كانت في بعض الرؤى "تفتقر إلى مراسيم إنشاء الأنظمة المدنية، ولكن مع ذلك لا مراء في أن مدينة القاهرة

(١) تلك كانت محاولة نبيلة من بطليموس الأول سوتير (٣٢٣ - ٢٨٣ ق.م) فأصبح سيرايبس مزيجاً من أوزير - أبيس وآلهة أخرى يونانية ومصرية:

F. Aly, Apiskult im Laufe der Aegyptischen Geschichte, Kairo 1988.

(٢) راجع: محرم كمال: مرجع سابق: ص ٨، ٤٣ وما يليهما.

(٣) راجع تخطيط أخيت. أتون تل العمارنة في: محرم كمال: مرجع سابق: ص ١٥٦ وما يليهما.

Watterson, op. cit., p. 78 ff.

(٤) أشار غربال كذلك إلى نشيد أتون - قارن: بريستد: فجر الضمير، ترجمة: سليم حسن، هيئة الكتاب: ٢٩١ وما يليها، سليم حسن: الأدب المصري (م.س): ج ٢ وما يليها Watterson, op. cit., p. 61 ff.

الإسلامية قامت بنصيبها الأوفى في بناء مصر السياسي... بفضل هيئاتها المدنية ومعاهدها الدينية...^(١).

ويضيف إلى ذلك الحركات الشعبية وأثر الطوائف الصوفية، وتمسك الأهلين بالقصص الشعبي، الأمر الذي خلق صلات قوية بين الريف والمدينة^(٢). و"شهد عصرنا الاتجاه نحو إدماج المدينة والريف في فكرة المواطنة المشتركة، ونمو فكرة الدولة".

وربما لا يتسع المقام للحديث عن ظاهرتين مهمتين هما السوق والمولد، وما يعكسان من سلوكيات الحياة اليومية من جهة، وطقوس الاحتفالات الدينية من جهة أخرى. ويكفينا إشارة هيرودوت - لما زار مصر - إلى أن المصريين سبقوا اليونان. والغريب أن يحافظ المصريون على تلك الأنماط من السلوك الاجتماعي عبر عصورهم إلى اليوم^(٣).

ولم يكن قصارى أمل المصري العادي أن يشارك بالرقص واللهو في تلك الاحتفالات، بل كان له نصيب من أوقاف تلك المعابد، وحظ في رؤية تمثال (الإله)، ونيل الرغد والعون منه، والتماس مشورته في شئون حياته^(٤).

وذلك كله يدل في رأينا على اندماج المدينة والريف في المواطنة المشتركة منذ القدم.

خامساً - مصر والعهد القديم:

ظلت سيناء عبر تاريخ مصر معبراً للمهاجرين واللاجئين والرحالة، أولئك الذين قدموا من آسيا غالباً. وثمة في الوثائق المصرية ما يستنتج منه بترجيح غالب أن رحلة إبراهيم عليه السلام إلى مصر لم تسبق عهد الأسرة الثانية عشرة (حوالي ١٩٩١ - ١٧٧٨)، ولكن دون يقين جازم^(٥).

(١) غريبال: تكوين مصر (٢٠١١) : ص ٦٢-٦٣

(٢) عالجنا موضوع الأدب الشعبي في دراستنا السابقة: الأدب المصري: ج ٤: ٢٠١ وما يليها.

(٣) هيرودوت يتحدث (م. س) : ١٥٩ وما يليها.

(٤) وآمن المصري بالنعوس والشعور كدأبه حتى اليوم. راجع دراستنا: معبد الأقصر، القاهرة ١٩٨٩.

(٥) أمر الرب أبراهام بالعبور (تكوين: ١٢: ١-٣) والرب أعطى الأرض لإبراهيم ونسله جميعاً - وليس أولاد يعقوب

وحدهم - العلامة عادل غنيم: حائط البراق وليس حائط المبكى، دار الفكر العربي، القاهرة ٢٠٠٩، ص ٩-١١.

ولم تكن تلك الرحلة التجارية المدخل الوحيد، بل نعلم من العهد القديم أن يوسف قدم مصر أيضًا، وأنه صار وزيرًا لفرعون دون تحديد هويته: "فأسكن يوسف أباه وإخوته، وأعطاهم ملكًا في أرض مصر في أفضل الأرض، في أرض رعسيس كما أمر فرعون (تكوين: ٤٧: ١١-١٢). هكذا أكرم فرعون وفادة يوسف وأبيه يعقوب، وإخوة يوسف، حتى أقطعهم أفضل أرض في مدينة رمسيس في شرق الدلتا^(١).

ويغلب على الظن أن فرعون يوسف كان من الحكام الأجانب - الهكسوس - بناء على حسابات تاريخية تقريبية، واستبعادًا لفكرة أن يستوزر فرعون مصري شخصًا أجنبيًا، فضلًا عن الجوار الجغرافي المرجح بين الهكسوس واليهود^(٢).

هذا عن مجيء القوم مصر، وأما خروجهم فيربطه مؤرخنا - على نحو ما - بزوال عقيدة أتون في آخر الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٠ - ١٣٠٤ ق.م) وتحديدًا بعد زوال حكم إخناتون (١٣٧٠ - ١٣٤٩ ق.م)، ذلك الملك الموحد.

يقول مؤرخنا: «ولن تدهش إذا كان زوال سلطة عبدة أتون مرتبطًا بعض الارتباط باضطهاد بني إسرائيل في عهد الأسرة التاسعة عشرة - كما يرى المؤرخون عامة^(٣). عبارة تعتبر اضطهاد بني إسرائيل واقعة تاريخية، ولكن دون دليل أو برهان في أية وثيقة تاريخية فيما نعلم، ودون تحديد هوية فرعون.

(١) وهي أرض جاسان تك: ٤٥: ١٠، وفيها تقع مدينة رمسيس بر. رعسيس وهي تانيس الحالية: Nagels enzyk lopaedie Aegypten, Genf 1967, S. 666 ff.

أيضًا: سونيرون: معجم: ص ٩٣-٩٤.

(٢) هكسوس مدمج مقطعين: حكاو. خاسرت وتعني أمراء البلاد الأجنبية أو مشايخ البدو، في إشارة إلى قادة أخطا أقوام تسللوا إلى مصر آنذاك، فهم ليسوا شعبًا بعينه - راجع:

R.M. Engberg, The Hyksos Reconsidered; Studies in Ancient Oriental Civilization, 18, Chicago: 1939.

(٣) غربال: تكوين ٢٠١: ص ٥٣. وعن إخناتون دراسات كثيرة منها:

C.Aldred, Echnaton, Luebbe Vrlg. uebrs. J.Rehork, B.Gladbach; B. Watterson, Amarna: Ancient Egypt's Age of Revolution, Tempus Pbl., UK: 1999 .

وعلى أية حال فالربط جائز نظريًا بين الهكسوس وبني إسرائيل على نحو ما تقدّم، ولكن ذاك لا يبرر تأخر طرد بني إسرائيل على ذلك الحين أي ما بعد وفاة إخناتون (حوالي سنة ١٣٤٩ ق.م) إذ أن طرد الهكسوس قد تم (حوالي سنة ١٥٦٧ ق.م) على يد أحمس^(١)، وبين التاريخين نحو قرنين من الزمان. ويلاحظ غربال أن فترة العمارنة قد عبرت عن ثورة دينية قادها الملك إخناتون بنفسه، وهي بلا شك كانت ثورة شاملة في مجالات شتى منها الفكر واللغة والأدب، والعادات أيضًا^(٢). كما يشير إلى ما تضمنه نشيد أتون من مظاهر التوحيد الإلهي. ونقتبس هنا منه: «كل أسد يخرج من عربنه ليفترس، وكل الشعابين تنساب لتلدغ، والظلام يحيم، والعالم في صمت في حين أن الذي خلقهم في أفقه»^(٣)، والعبارة تعبر عن العناية الإلهية، ورحمة الله بمخلوقاته في سياق وحدة الوجود Pantheism^(٤).

والشبه يتّين بين تلك العبارة، وما ورد في المزمور الرابع بعد المائة: «الأشبال تزجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها» (المزمور ١٠٤: ٢١). من هنا ندافع عن وجهة النظر القائلة بأصالة الحضارة المصرية وسبق آدابها في ميادين شتى، ولذلك نخالف الرأي القائل إن «اليهود» كان لهم أثر في الحضارة المصرية^(٥). بل الواضح أن بني إسرائيل هم الذين أفادوا من الحضارة المصرية إبان إقامتهم التي دامت أكثر من أربعة قرون.

(١). وذلك في عهد ملكهم أبوفيس - راجع مقالنا: «الهكسوس بين الحضارة والبداءة» - مؤتمر الجمعية التاريخية، القاهرة ٢٠١٠.

(٢) في دراستنا: الديانة المصرية: ص ١٢٥ وما يليها اعتبرنا إخناتون أبًا للتصوّف والرهينة.

(٣) راجع نص نشيده في أتون: بريستد: فجر: ٣٠٢، ومقارنته بالمزمور الرابع بعد المائة،

Watterson, Ibid., p. 61 ff.

(٤) وتعني ألا موجود على الأصالة سوى الخالق، وإن ظهر لنا أن المخلوقات متعددة. راجع:

Hegel, Gesch. Der Phil., Reclam, Leipzig 1982, B. III, S. 217 ff.

(٥) كان بريستد متبحرًا في دراسات العهد القديم، ولما اتجه لدراسات الشرق القديم ومصر ردّ الفكر العبري في مجمله لتعاليم المصريين وحكمتهم. عمل مديرًا لمعهد شيكاجو للآثار الشرقية، وتوفي سنة ١٩٣٥. راجع عنه كوتريل: الموسوعة الأثرية.

وأما اعتراف مؤرخنا - هكذا صراحة كما تقدّم في العبارة المقتبسة - باضطهاد بني إسرائيل إبان الأسرة التاسعة عشرة، فأمر يدعو للدهشة^(١). ويفسر ذلك تفسيراً يبعث على الدهشة كذلك، إذ يقول إن الرعامسة شيدوا عمائر ضخمة، وقاموا بتسخير غير الأهلين فيها لعله يقصد بني إسرائيل تحديداً، بيد أنه يختص - على غير بينة - رمسيس الثاني تحديداً^(٢). ولكن التوراة نفسها لم تخصه، بل ذكرت رمسيس وحسب دون تحديد، والرعامسة كثر كما نعلم.

إن الاعتراف بالسخرة والاضطهاد عليه ردود موضوعية دون انحياز من المؤرخ لمصر القديمة. فالسخرة كعمل شاق بلا أجر لا دليل على ظهورها في ذلك الزمان^(٣)، وأما النص الذي قدّمناه عن مجيء يوسف، وهو نص توراني، فلا يدلّ على اضطهاد بل تكريم وإعزاز وتفضيل. وطبيعي أن يأتي ملك ما من بعد ذلك، فيحاول تقليل تلك الامتيازات التي كانت قد منحت لقوم يوسف. ذلك كل ما هنالك، وهو ثابت في كتابهم المقدس.

وبعد إبراهيم ويوسف - يذكر مؤرخنا كليم الله موسى - عليهم السلام جميعاً، وكيف تبنته امرأة فرعون^(٤)... ويعاود الحديث عن تعذيب بني إسرائيل، وكيف رحلوا رجليلاً عسكرياً محشوداً. والثابت أن المتون المصرية لا تشير إلى شيء من هذا إلا إشارة عابرة في لوحة مري. إن بتاح بن رمسيس الثاني، وأغلب الظن أن فرعون الخروج - المزعوم - لم يكن إلا حاكم إقليم مغموراً، وربما لم يتجاوز نفوذه إقليم شرق الدلتا

(١) لاحظنا كذلك إدراج اسم "إسرائيل" - مجرداً من السياق التاريخي - أو إقحام حدث الخروج ليقع وفق حسابات كتابية - في أزهي عصور مصر (تحتسب الثالث أو أمنتحتب الثاني... إلخ) مثلاً:

W. Budge, The Dwellers on The Nile, Dover, New York: 1977, p. XV, XVII.

(٢) وضعنا في دراستنا: «خروج بني إسرائيل» تفنيد كل زعم أن يكون فرعون الخروج أحد فراعنة مصر العظام، والأرجح أنه كان حاكماً مغموراً في فترة اضطراب وفوضى.

(٣) فتدنا دعاوى السخرة في: فلسفة التاريخ: ١: ٨٩ وما يليها.

(٤) في العهد القديم أن ابنته «رأت السقط بين الحلفاء»... (خر: ٢: ٥-٦)، وفي القرآن: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾ القصص: ٩. وعن نشأة موسى:

M. Grant, Das Heilige Land, uebrs. J. Rehork, B. Gladbach 1984, S. 65ff.

على أحسن تقدير^(١).

وأما الرجيل العسكري المحشود - في ضوء ما تقدم - فيصعب أن يدلّ على عناية إلهية بالقوم بقدر ما يدلّ على قلة إيمانهم بالله، وضعف يقينهم فيه، فضلاً على حرصهم على إخفاء ما سرقوه من أمتعة المصريين بدعوى الإغارة^(٢). وعموماً فقد كانت الدولة الحديثة عصر الدولة المصرية العالمية ذات الإنجازات العسكرية المشهودة.

سادساً: مصر والهللينية:

علاقة مصر بالهللينية تبدأ قبل غزو الإسكندر مصر سنة ٣٣٢ ق.م، وتأسيسه إمبراطورية ضخمة، فقد قدم «المغامرون الإغريق إلى مصر تجاراً وملاحين وجنوداً مرتزقة، وقد استخدمهم (بسماتيك ٦٦٣-٦٠٩ ق.م) وحلفاءه برّاً وبحراً في قتال الآشوريين والفرس»^(٣) أي قبل الاحتلال الفارسي لمصر سنة ٥٢٥ ق.م. وأنداك عاشت جالية إغريقية في نوقراطيس (كوم القعاف) قرب صالحجر، في القرن السابع ق.م. وجعل لهم فيها أمازيس سوقاً خاصة بهم، وهناك شادوا معابدهم^(٤). «وقد زار مصر مشاهير الإغريق كأفلاطون وسولون وهيرودوت، ولكن يجدر بنا ألا نغالي فيما أثمره هذا اللقاء من أثر ثقافي متبادل»^(٥).

ورغم الصمت المطبق عن الفترة الممتدة بين سنة ١٠٨٠ ق.م (نهاية الدولة المصرية الحديثة) وغزو الإسكندر مصر سنة ٣٣٢ ق.م؛ فقد حفظت المعارف المصرية

(١) فابز علي: خروج (م. س).

(٢) وفق رواية "سفر الخروج" ذاتها. المرجع السابق.

(٣) غريبال: تكوين (٢٠١١): ٦١ - ٦٢. قارن أحمد فخري. مصر الفرعونية، ط ٥، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨١:

ص ٤٢٠ وما يليها، أيضاً: Bury, op. cit., p. 108ff.

بل إن ثمة شواهد على أن أم الملك خضرع من الأسرة الرابعة - كانت من أصل هلليني.

(٤) تقع نوقراطيس بالقرب من سايس - مقر الحكم آنذاك. راجع: سونيرون: معجم: ٣٤٢، هيرودوت: ٤٢ (هامش).

لأحمد بدوي، زايد: مصر الخالدة: ٢: ٥١٧. وأما بطليميوس فاسم لعدة مدن ذات حكم ذاتي أيضاً أسسها

بطليموس الأول، منها واحدة في إقليم طيبة، وثانية كانت ميناء على البحر الأحمر. أيضاً: Bury, op. cit.

(٥) غريبال: تكوين (السابق): الموضوع نفسه. ولكننا نرى أن أثر مصر بمحضارتها آنذاك على الإغريق والفينيقيين

وشعوب البحار كان أكبر كثيراً مما نعتقد. وهذا ما دفعنا إلى تأليف دراسة عن "الفلسفة المصرية".

الموروثة في الأوزيرياكا (محفل أوزير الأعظم) والمينيفيثون (مكتبة طيبة) وأخواتها، وأما معبد دلفي الذي احترق سنة ٥٤٨ ق.م فقد أعيد بناؤه بمنحة من أمازيس (٥٦٨ - ٥٢٥ ق.م)، وهو الذي صرح لليونانيين بالوجود في مصر، والتلمذ على أيدي الكهنة، وارتداد معاهد العلم^(١)... وبالطبع كانت مصر في تلك القرون السبعة قد شاخت حضارتها، و"علا شأن شعوب فتية: هم الإغريق والفينيقيون والأثوريون والميديون واليهود والآراميون والرومان"^(٢).

ولعل ذلك التغير الطارئ يفسر لنا - رغم كل الإيجاز - ظهور الإسكندرية المفاجئ حاضرة لمصر والعالم القديم، وذيع صيت مكتبتها وعلمائها، ومتحفها أيضًا، بل وتنمحي ذكرى ما عداها! لا نعتقد أن ذلك كله تم مصادفة أو عن طريق أخطاء كزلات اللسان^(٣).

إنه إذن الظهور العسكري للإسكندر، وانطواء الحضارة المصرية على ذاتها، وغلبة العنصر الهللييني غلبة سياسية مكنته من السيطرة على مقاليد الحضارة المصرية وصبغها بصبغة هللينية. هنالك ينبغي إعادة النظر، والبحث فيما قدمته مصر لتلك الحضارات الناشئة آنذاك، إذ لا مغالاة في ذلك أبدًا، بل الحذر كل الحذر من بخس الدور الذي قامت به مصر في ذلك

(١) هكذا نصّح - في أغلب الظن - رؤيتنا لتلك الفترة، فترة الأمور إلى أصلها. وعقب وفاة أمازيس احتل الفرس مصر ٥٢٥ ق.م: فخري: مصر: ٤٢٨، هيرودوت:

A.T. Olmstead, History of The Persian Empire, Uni. Chicago Press., p. 86 ff.

وقد درج المفكرون على أن هيلاس هي مهد الفلسفة. راجع:

E.R. Sanduoss, Geschichte der Philosophie, dtv Verlag, Muenchen 1989, B.I., S. 345 ff.

(٢) غربال: تكوين (٢٠١١): ٦١، وقارن: تويني: الهلليينية: ١٩. ولعل مما يفسر اضمحلال حضارة مصر آنذاك هيمنة قلة (غير مبدعة) وانفصالها عن الجماهير، الذين تسرب إليهم اليأس والكسل.. ونحن نرجع هنا إلى تنظير برتراند راسل في: السلطة والفرد، ترجمة: لطيفة عاشور، هيئة الكتاب ١٩٩٤: ص ٣٦ وما يليها. راجع عن الهلليينية أيضًا: J.B. Bury, op.cit.

(٣) توالى على حكم مصر في تلك الفترة غزاة وعدة من آشور وفارس وميديا ومقدونيا.. ويجب النظر باعتبار إلى تكون فئات من المنتفعين، ولعل أسوأ ما فعلوا هو جهدهم في تشويه حضارة مصر والتقليل من شأنها. وللأسف أن تلك الفترة لم تزل بعد اهتمامًا كافيًا. راجع عن تلك الفترة: بريستد: تاريخ: ٣٤١ وما يليها، أيضًا: Hornung, Gesch., S. 115 ff.

السياق. وذلك أن أرباب الفكر والفلسفة (محبة الحكمة) قد زاروا مصر وأقاموا بها، وتعلموا حكمة المصريين^(١). ولا نعتقد أنه من المصادفة أيضًا حرص معاهد العلم على تلقين طلابها الفلسفة اليونانية على أنها معرفة هيلينية صرفة، وأن الشرق عامة - ومصر خاصة - لم تظهر بها أية فلسفة، مع ما تنطوي عليه تلك العبارة من تناقض^(٢).

سابعًا- مصر والمسيحية:

كما نشأت في مصر دعوة العهد القديم فقد وردتها دعوة العهد الجديد مهاجرة من الاضطهاد، والمسيحية بترسيخها مبدأ الخلود الأخروي والمحبة الإنسانية والرحمة بالباطسين والفقراء قد لاءمت عقيدة أوزير المصرية كما لم تلائمها أية عقيدة أخرى، وصدق قول هارتاسك: "إن المسيحية قد لاءمت في مصر بين خصائصها وبين خصائص الدين القديم [الأوزيرية] الأساسية لدى أوسع مما شهدناه في أي بلد آخر"^(٣).

وصار لمصر كنيسة مستقلة بعد مراحل من الاضطهاد الروماني سواء في الطور الوثني أو بعد اعتراف القياصرة بالمسيحية، وكان يوحنا مرقس أول كارز، وهو الشهيد الذي اضطلع بعبء الكفاح من أجل نشر العقيدة في مصر وعبر البحر المتوسط^(٤).

(١) مدار الأمر انحياز واضح للفكر الغربي. فحتى راسل يكتب عن "تاريخ الفلسفة الغربية". وقد ظل سائدًا رد الفلسفة إلى "هيلاس" في نشأتها وتطورها. ونذهب إلى عكس ذلك تمامًا، فنبرهن على أن الفلسفة نشأتها مصرية. راجع أيضًا: ج. جيمس: التراث المسروق: ص ٤٨.

(٢) تدخل مقولة ذاتعة عن "الاستبداد الشرقي" مبررًا لعدم ظهور الفلسفة في مصر، بزعم أنها تحتاج إلى مناخ ديمقراطي. وقد بينا سابقًا تهافت الدعويين بإيجاز. وتحليل الديانة المصرية على نحو مغاير لما هو معهود يكشف عن أبعادها التحررية.

(٣) غربال: تكوين (٢٠١١): ٧٣. والراجع أن نظم الرهبنة قد أفادت من الأنظمة الهرمسية الغنوصية والأفلوطينية. فايز علي: الديانة المصرية: مواضع شتى. أيضًا: Mueller, op. cit., S. 82 ff.

(٤) أعدم القديس مرقس في ٣٠ برمودة سنة ٦٨م، ويقال إن رأسه وسد الثرى في كاتدرائته بإسكندرية، وسرق جسده إلى البندقية في القرن ١٣م. وضع القديس الإلهي، وهو كارز مصر وكاروزها (المبشر)، وفي روما سنة ٦٧م أسهم في تأسيس كنيسة مع بولس... باقي بشارة: معالم تاريخ الكنيسة القبطية، مك. مارجرس، القاهرة، ص ٢٠، وما يليها. عن نشأة المسيحية في مصر: Mueller, op. cit., S. 75 ff.

وطوّرت مصر لغة تلائم الديانة الجديدة، وإن كتبت بحروف يونانية^(١). وسرعان ما استوعبت تلك اللغة إبداعات اهللينية الفكرية لاسيما الرواقية، وأضفت على مدرسة الإسكندرية مسحة غنوصية، فجمعت إلى الفلسفة التصوف واللاهوت، وشهر من علمائها كليمنتس وأوريجين^(٢). وترجمت البشائر الأربع إلى القبطية، وحفظت تراتيل الكنيسة وترانيمها المقدسة واللغة - كما ذهب الأدباء والمفكرون - حافظة لروح الأمة.

وبعد جولات من الصراع الفكري مع كنيسة روما حول طبيعة المسيح استقلت الكنيسة المصرية بعقيدتها، وذلك في مجمع خلقيدونية^(٣)، وصارت لها تقاليدها وتقويمها.

وأما الرهبنة فكانت استجابة للاضطهاد الذي عاناه المسيحيون عامة ومسيحيو مصر خاصة على أيدي القياصرة من نيرون إلى دقلديانوس، الذي يبدأ التقويم القبطي - تقويم الشهداء - ببداية حكمه^(٤)، وقامت الرهبنة على تعاليم السيد المسيح التي حَضَّ فيها على الزهد والتقشف هجرة إلى العالم العلوي. وعلى يد الأنبا باخوم (٢٩٠ - ٣٤٨ م) تأسس أول دير في العالم^(٥)، وإن سبقه آباء في الرهبنة غير الديرية مثل الأنبا أنطونيوس (٢٥١ - ٣٥٦ م) والأنبا

(١) عدا سبعة أحرف (ثاي، فاي، حوري...) أخذت عن الديموطيقية وظهرت كتابتها في القرن الثاني ق.م أي قبل المسيحية، وترجم إليها العهدان القديم والجديد. من لهجاتها المنفية والفيومية والأخيمية والبحيرية... شاكر باسيلوس: موسوعة اللغة القبطية، ١، مط. أنبارويس، ص ٦ وما يليها.

(٢) عن كليمنس وأوريجينيس راجع: Sandvoss, op. cit., B.2, SS 64 - 65.

والأنبا جريجوريوس أسقف البحث العلمي: الفلسفة المسيحية الشرقية، الكلية الإكليريكية، القاهرة، ص ٤٠..
(٣) انعقدت مجامع مسكونية للجدل حول طبيعة المسيح، والأنبا شنودة (٣٣٣ - ٤٥٢) رئيس المتوحدين عاصر أربعة منها، وهي: القسطنطينية (٣٨١ م)، إفسس (٤٣١ م)، إفسس الثاني (٤٤٩ م) وآخرها مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ م الذي شهد انشقاق الكنيسة القبطية عن كنيسة روما.. نقى شنودة اللغة القبطية، وأسس الديرين الأبيض والأحمر بسوهاج، ومصر الأديرة والكنيسة. راجع: بشارة: الكنيسة (م.س) : ص ٨٣ وما يليها. Mueller, op. cit., S 106f.

(٤) تبدأ الاضطهادات العشرة بعهد نيرون (٥٤ - ٦٨ م) وتنتهي بعهد دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥)، ويعام ٢٨٤ م يبدأ التقويم (القبطي) ش = تقويم الشهداء = م (التاريخ الميلادي) - ٢٨٤. Mueller, op. cit., ss. 78, 117 ff.
بشارة: السابق: ص ٣٠ وما يليها.

(٥) هو أبو الشركة، أسس أول دير في العالم في طابنسين قرب نجع حمادي سنة ٣٢٠ م.. بشارة: السابق: ٨١ وما يليها Mueller, op. cit., 105 ff.

بولا (٢٣٥ - ٣٢٥م)^(١).

ومن مصر انتشرت نظم الرهبنة، وانتقلت عبر البحار إلى العالم الأوروبي^(٢)، وقد شهد القرن الرابع ظهور المسيحية وانتشارها باعتراف القياصرة ودعمهم.

وأما الأنبا شنودة (٣٣٣ - ٤٥٢م) فكان رأس الرهبانية المتحدة، والمؤسس الفعلي للأدب القبطي الخالص، إذ نقى اللغة من المفردات اليونانية، وكذلك المؤسس الحقيقي للكنيسة القبطية، تلك التي وهبت مصر استقلالية معنوية عن القياصرة حتى أن العرب الفاتحين كما تقول رويار: «لم يروا في مصر إحدى ممتلكات بيزنطة، بل بدت لهم مملكة تكاد تكون مستقلة»، إذ أن بطارقة إسكندرية تطلّعوا إلى «أن يجعلوا من مصر دولة دينية مستقلة»^(٣) عن الحكم الروماني بطبيعة الحال. وفي استقلال الكنيسة قوة لمصر.

إن الميراث القبطي المصري ظل يجري على ألسنتنا وفي معاملاتنا. فالحكايات والأمثال الشعبية تضم أخيلة وبيانا وألفاظا مصرية أصيلة.

وأما التقويم القبطي (توت - بابه - هاتور..) فيحمل أسماء الأرباب المصرية، وهو الأنسب لمواسم الزراعة والري والحصاد^(٤). ورغم أن المسيحية والإسلام شكلا إلغاء للفكر الديني السابق، فقد كانتا في الوقت ذاته امتدادًا حضاريًا له بدرجة ما.

(١) تصوّر الأيقونة غرابًا يأتي برغيف كامل. بدلاً من نصف رغيف - للأنبا أنطونيوس لدى لقائه بالأنبا بولا..

السابق: ٧٤.. فكتور عوض الله: اللوحات المصورة بالمتحف القبطي، المطبعة الأميرية ١٩٦٥، ص ٣٢ وما يليها.

(٢) سيرة حياة أنطونيوس عثر عليها في (تريف) على حدود فرنسا وبلجيكا، واطلع عليها الأب أوغسطين ٣٥٤ - ٤٣٠ فقادته إلى الهداية. ومع الراهبين بندكت ويوهانس كاسيان انتشرت أنظمة الرهبنة من مصر إلى أوروبا، ومعها فنون الكتابة والمخطوطات. راجع: سيرة الأنبا أنطونيوس وتاريخ ديره العامرة - مجمع رهبان الدير عن أوغسطين الأول أوريليوس راجع: S. 69 - Atlas Phil. - div

(٣) غريبال: تكوين (٢٠١١): ٧٦. وظلت مصر محتفظة بكنيستها، التي يرأسها "بابا الإسكندرية وبطريك الكرازة المرقسية".

(٤) فايز علي: الأدب والنيل عبر العصور، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٩، أيضًا: ج ٣ من دراستنا:

الأدب المصري (م. س)، وفيها وضحنا ارتباط أدب مصر القبطية بالأدب المصري من قبل ومن بعد. ونحمل تلك الأشهر أسماء معبودات مصرية قديمة.

سابعاً- مصر والإسلام:

قدّم مؤرخنا بالحديث عن الغزو العربي وما تلاه منذ سنة ٦٤١م^(١).

ووضح - عن حق - أن انتشار لغة الفاتحين العرب كان أسرع من انتشار الديانة الجديدة وأنتم، إذ انفتحت مصر على عالم (إسلامي) شاسع، ذي ميراث حضاري حافل متنوع، وصارت مصر ملتقى لمستوطنين من بقاع الدنيا، منهم الأتراك والشراكسة والصقالبة... أولئك الذين أثروا تجارة السوق المصرية، وماجت بهم أروقة الأزهر ومعاهد العلم. وقد ظل الأزهر جامعة تهوى إليها أفئدة العلماء وطلاب العلم من أركان الدنيا جميعاً.

أما تجار أوروبا (المسيحية) فلم يكن لهم رسالة حضارية حتى نهاية القرن الثامن عشر (نحو ١٧٩٨م)، أي نهاية الفترة الأولى - وفق تقدير مؤرخنا، وبداية الفترة الثانية التي تمتد إلى زماننا الحاضر أي عهد غربال، والقسمة على هذا النحو - في تقديرنا - تعتمد على العلاقة بالغرب، إذ يشير تاريخ ١٧٩٨م إلى حملة بوناپرت. ولا نعتقد أنه مؤشر حقيقي لبداية العصر الحديث إلا إذا سلّمنا بأن التطور التاريخي في أوروبا هو المرجع والمنتهى. فلماذا يكون اللقاء مع الغرب أو مواجهته بداية تاريخ مصر الحديث؟^(٢)

وأستطرد من ملاحظة مؤرخنا، إذ يقول: «وأما عن مساهمة الأقباط في الجانب العقلي من الثقافة الإسلامية فأمر ليس من اليسير الكلام فيه»، ونعتقد - مع مؤرخنا - أن الفكر القبطي نقل إلى الحضارة الإسلامية تراث مصر القديمة والتراث الهللياني أيضاً^(٣).

(١) استخدم لفظ غزو - غزوة لوصف حروب الرسول - ﷺ - وصحابته، واتخذ عثمان لقب غازي، وحذا حذوه خلفاؤه من سلاطين الدولة العثمانية.

(٢) أثبت شخصية مصر إلا الظهور في العصور الإسلامية أيضاً. ونعتقد أن قسمة تلك العصور حسب الأشخاص (طولونية وإخشيديّة...) حجب تلك الخاصة. راجع عنها: Mueller, op. cit., S. 144 ff.

(٣) غربال: تكوين (٢٠١١): ٨١. ونرى أننا لم نبرأ عبر العصور من إلقاء تهمة الوثنية على المصريين ومن بعدهم اليونان والرومان.. مما صرف عن دراسة ميراث عظيم وبخسه وإصدار أحكام مسبقة ضده، دون الاحتكام إلى معايير تلك العصور.

وفي مجال الأدب والفن يتسع أمامنا مجال الحديث، من ذلك ما أسهم به ابن بطريق (ت ٣٢٨هـ / ٩٤٠م) ويحيى بن سعيد الأنطاكي من بعده، وكلاهما كتب في التاريخ وسير الآباء، وكذا أبناء العسال في العصر الأيوبي، ومنهم الصفي بن العسال وكتابه في الفقه الأرثوذكسي، وكذا ابن كبر (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م) وكان كاتب إنشاء في العصر المملوكي^(١).

وإذا تحدثنا عن فتح الأندلس فإننا نؤكد ما يقوله جورج جيمس - عن صواب - إن المصريين الأقباط شاركوا الفاتحين العرب والبربر فيه، فانتقلت إلى أوروبا عبر الأندلس معارف المصريين (القدماء) إضافة إلى التراث الهليني، وإن تعمّد البعض إغفال دور المصريين في ازدهار معاهد قرطبة وأشبيلية وغرناطة ومكتباتها^(٢).

كما نلاحظ أن تمسك المصريين بلغتهم القبطية كان سبباً - في افتراضنا - لتأخر دور مصر في الإبداع الشعري خاصة عن دمشق وبغداد مثلاً، وإن تميزت ثقافة مصر عادة بالاعتدال والوسطية. وبهذا الافتراض نفسّر ظهور البارودي ومدرسته متأخراً في القرن التاسع عشر في طور نهضة الشعر وتجديده. تأخر زمني إذن وافقه إبداع كثيف^(٣).

ونؤسس على رؤية غريبال الحسيفة أن دور مصر لم يكن مجرد ولاية ممتازة في عهود الخلافة أو الدولة المملوكية أو العثمانية، بل نقول إنه لولا مصر ودورها ما كان لأمر تلك الدول أن تستقيم. فالفرق شاسع بين قولنا مصر الأموية فالعباسية، ثم مصر الطولونية فالأخشيدية ثم الفاطمية... إلخ، وبين قولنا الدولة المصرية في طورها الأموي أو العباسي... إلى آخر تلك التسميات^(٤).

(١) محمد سيد كيلاني: الأدب القبطي قديماً وحديثاً، دار الفرجاني، القاهرة: ص ٥ وما يليها، أيضاً دراستنا: الأدب المصري: ج ٣: ص ٣ وما يليها.

(٢) جورج جيمس: التراث المسروق: ص ٤٨ وما يليها.

(٣) ولعل هذا القرض يفسر لنا قول العقاد عن أن للبارودي "ميزة واضحة.. وهي أنه وثب بالعبارة الشعرية وثبة واحدة.. بلا تدريج ولا تمهيد: العقاد: شعراء مصر: ١٢٦.

(٤) فالمسألة إذن ليست إقليمية أبداً، بل هي تحاش لفصل متعمّد بين مراحل التاريخ، يؤدي إلى فصل مكّنات الروح المصري مما يعود بالضرر على كافة الأطراف. ونشير إلى مؤلف محمد كامل حسين: في الأدب المصري: ص ١١٦ وما يليها، الذي بحث في تميز الأدب المصري بعد الفتح الإسلامي، رغم قلّة محصوله ميراثه، فما وجد منه من أبيات قليلة تكشف عن صبغة إقليمية مصرية. أما دراستنا: الأدب المصري - فكما أوضحنا - تبحر في جوهر ممتد عبر العصور وهو الروح المصري.

وإذا لم يكن من اليسير لغربال أن يتحدث آنذاك عن مساهمة الأقباط، فإلام أفضت محاولات محمد حسين هيكل ومحمد كامل حسين في الأدب، ومحاولات غيرهما؟ واليوم نتساءل: هل تغير الوضع كثيرًا؟ وفي أي اتجاه يا ترى؟.

تاسعًا- مصر والغرب:

ليس ثمة ما يدعو إلى تثبيت العلاقة بين الهويات الثقافية والسياسية، فالغرب والشرق مفهومان ينطويان على التغير بأكثر مما ينطويان على الثبات. وبناء على ذلك يرى مؤرخنا أنه ليس علينا أن نظل أسرى كراهية التسلط الغربي في مرحلة أو مراحل معينة - مثل مرحلة الحملة الفرنسية مثلاً - ففي السياسة كل شيء يتغير باستمرار، و"الغرب" له دلالات ثقافية غير تلك السياسية مثلاً. وينتقد - عن حق - أولئك الذين يكتبون كما لو أن الشعب المصري يتعين عليه أن يختار موقفًا حاسمًا يلتزمه دون رجعة" ويفرضون علينا ما يجب علينا اتباعه^(١).

ولعله ينتقد إذن التطرف في محاكاة الغرب أو اللهث وراء اللحاق به كما يرفض التجدد عند وضعية الماضي التليد أو التراث العظيم، وينتقد - أشد الانتقاد - مثلبة التردد، التي تقود إلى الفشل، كما حدث إبان ثورة الشعب في سنة ١٩١٩، التي عاصرها شابًا طموحًا^(٢)، فكتب يقول: «كنا نخشى أن تمتد إلى شعبنا الدعوات الأوروبية الجديدة القائمة في روسيا وإيطاليا وألمانيا، فترددنا في تعبئة مواردنا الحية والمعنوية. وترتب على ذلك أن حذونا حذو كرومر، أي أننا حاولنا الحصول على شيء من كل شيء بقدر معلوم»^(٣).

بلى، انتقد غربال ضعف إيمان القادة بالشعب، وأنانية "الصفوة"، واختلاق المعاذير لتبرير

(١) غربال: السابق: ٨٥. وعن تلك الفترة راجع: Vatikiotis, op. cit., p. 239 ff.

(٢) غربال: المرجع نفسه: ٩٢. راجع أيضًا ما أورده محمد حسين هيكل (ت ١٩٥٦م) في: الشرق الجديد، ط ٢، دار المعارف بمصر ١٩٩٠. أيضًا: مؤتمر الجمعية التاريخية عن ثورة ١٩١٩، في ذكراها التسعين: القاهرة ٢٠٠٩.

(٣) غربال: المرجع نفسه، وتلك من العبارات الكابحة للطموح والمبادرة على عكس ما نادى به غربال.

التقصير المؤدي إلى الفشل، وأننا لم نتعلم من أخطاء آبائنا إبان ثورة سنة ١٨٨٢م، ولعله كان يعني أن على الصفوة أن تتسم بالتضحية والنزاهة حتى تستحق أن تقود الجماهير، وهو ما يفهم من قوله: "إن الجماهير وحدها بلا قيادة لا تستطيع أن تصنع شيئاً على الإطلاق... إنها في حاجة إلى رمز... هو الزعيم" ^(١).

وذلك القول فهم منه مؤرخنا حسام عبد الظاهر أن مؤرخنا ربما كان يؤمن بالبطولة الفردية أكثر من إيمانه بالبطولة الجماعية. ولا شك أن البطولة سمة جيدة في الحالين، ولكن ادّعاءها مرض عضال. ويختم غريبال مقاله بعبارة تؤكد أن البطولة - مهما يكن تعريفها - ينبغي أن تصبّ في صالح الجماهير، فيقول: "لا يجب اعتبار الدولة شيئاً أفضل من كونها اتفاقاً على المشاركة في المنافع، بل هي مشاركة في العلوم كافة.. والفنون كافة.. والفضائل كافة، وفي الكمال كله" ^(٢).

قدّم غريبال إذن قراءة نقدية للواقع المصري المعيش منذ أكثر من نصف قرن، ملقياً نظره إلى جدلية التطور في تاريخ مصر، كاشفاً عن قضايا بقيت خلافية إلى الآن. فإلى أي مدى تكون استجابة مؤرخي العصر ومفكره؟.

(١) حسام عبد الظاهر: تراث غريبال (م. س): ٢٤٧، والاستشهاد من حوار لغريبال مع مجلة الإذاعة سنة ١٩٥٨م. فهل كان ظهور عبد الناصر آنذاك تصديقاً لقول مؤرخنا ومعتقد، أم أن مؤرخنا كان بعيد التفاؤل؟.

(٢) غريبال: المرجع السابق: ٩٣. والقول للمفكر جاك برك. يقارن ذلك بما ذهب إليه جون لوك (ت ١٧٠٤) عن حال المساواة بالفطرة بين الناس، أولئك الذين يقيمون سلطة التشريع باختيارهم لتكون هي مرجعية حريتهم:

dtv. Atl. Phil., S. 121; s.a. Sandvoss, Phil., 2, p. 186; Hegel, Geschichte, III, S. 203 ff.

التاريخ المصري وفق هلموت بروئر: الأدب المصري بالألمانية. والتواريخ تقريبية

حوالي ٣٠٠٠ ق.م	بداية التاريخ واختراع الكتابة
حوالي ٣٠٠٠ - ٢٧٠٠ ق.م	العصر العتيق: الأسرتان الأولى والثانية • مقابر أبيدوس وسقارة - متون المقابر، دراما الخلق من الأسرة ٢٥
حوالي ٢٧٠٠ - ٢٢٠٠ ق.م	الدولة القديمة عصر بناء الأهرام الأسرات من ٣ - ٦ • تعاليم إيمحتب - جدف حور - بتاح حتب - كاجمئي، قصص خوفو وسنفرو من الدولة الوسطى، متون الأهرام
٣٢٠٠ - ٢٠٤٠ ق.م	العصر الانتقالي الأول: الأسرات من ٧ - ١٠ • شكاوى الفلاح الفصيح - حوار إنسان مع نفسه - بردية اليائس
٢٠٤٠ - ١٦٦٠ ق.م	الدولة الوسطى الأسرات من ١١ - ١٣ • عصر الأدب الكلاسيكي: تعاليم مري كارع - خيتي - نصائح أمنمحات - نبوءة نفرتي - بردية وستكار قصص خوفو وسنفرو - قصة سنوحي - قصة الملاح الغريق - الأناشيد الدينية والدنيوية
١٦٦٠ - ١٥٢٧ ق.م	العصر الانتقالي الثاني عصر الهكسوس: الأسرات من ١٤ - ١٧ • رسالة أبو فيس على سفن رع - لوحات كامس بالكرنك
١٥٢٧ - ١٠٧٠ ق.م	الدولة الحديثة: الأسرات من ١٨ - ٢٠ • قصص: الأخوين إعماء الحق - الأمير المسحور - ونأمون - أسطورة إيزيس وأوزير - حوليات تحتس الثالث - قصة القائد تحوتي - نشيد آتون - مدائح رمسيس الثاني - الأغاني الغزلية (تشنتر بيتي) - تعاليم آني - أمنمثوي - كتب الآخرة
١٠٧٠ - ٧١٥ ق.م	العصر الانتقالي الثالث: الأسرات من ٣١ - ٣٤
٧١٥ - ٣٣٢ ق.م	العصر المتأخر: الأسرات من ٣٥ - ٣٠ • تعاليم عنخ ششنقي - أسطورة عين الشمس - أساطير سيتون خعمواست - بيتوباستيس - متون العالم الآخر.
٣٣٢ - ٣٠ ق.م	العصر اليوناني: (الإسكندر والبطالة)
٣٠ ق.م - ٣٩٥ م	العصر الروماني (القيصرية)

من قضايا
التاريخ الإسلامي
في كتابات محمد شفيق غربال

د. حسام أحمد عبد الظاهر

باحث في التراث والتاريخ الإسلامي
بدار الكتب والوثائق القومية

يُعدُّ محمد شفيق غربال (١٣١١-١٣٨١ هـ/١٨٩٤-١٩٦١ م) واحدًا من المؤرخين الكبار الذين تركوا أثرًا كبيرًا في حركة الكتابة التاريخية في العصر الحديث؛ وقد أهله الدور الذي قام به إلى وصفه بأنه مؤسس مدرسة التاريخ المصري الحديث، وأنه واضع أسس تمصير التاريخ المصري. ويُصنف شفيق غربال غالبًا على أنه مؤرخ في التاريخ الحديث، وأنه لم يترك سوى كتب قليلة أهمها: محمد علي الكبير، وتاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ١٨٨٢-١٩٣٦ م، وتكوين مصر.

إن الذي بسطته بإيجاز شديد^(١) لا يخفى على الكثيرين، غير أن إسهامات محمد شفيق غربال في التاريخ الإسلامي وقضاياه أمر مجهول يتم الكشف عنه في هذه الدراسة.

وقد دفعني إلى إعداد هذه الورقة الإيمان الحقيقي بأن الحدود والفواصل التي يجعلها معظم المنتسبين للتخصص التاريخي بين حقول هذا التخصص ما هي إلا حدود مصطنعة وفواصل متوهمة. وأن التاريخ كل واحد لا يتجزأ؛ وهو ما يتمثل في تجربة شفيق غربال كما سنرى.

وتهدف هذه الدراسة إلى كشف الجانب مجهول من الإسهام التاريخي لشفيق غربال، وهو ذلك الإسهام المرتبط بمحقل التاريخ الإسلامي؛ حيث إن له الكثير من الإسهامات في هذا الحقل، وهي إسهامات لم تؤخذ في الاعتبار بدعوى - غير صحيحة بالمرّة - أن شفيق غربال كان مؤرخًا للتاريخ الحديث، وهذا الكشف الجديد سيجعلنا نعيد التفكير في النظر إلى الإنتاج الفكري لهذا المؤرخ الكبير من جديد. وبطبيعة الحال لا توجد أية دراسة سابقة تناولت هذا الموضوع وإن كان بعض مؤرخي التاريخ الحديث قد أشاروا إلى موسوعية محمد

(١) هناك الكثير من الكتابات حول شفيق غربال، ومنها: عبد الرحمن زكي: محمد شفيق غربال ١٨٩٤-١٩٦٦ م. مجلة جمعية الآثار القبطية. المجلد ١٦-١٩٦٦-١٩٦٢ م. القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٦٢ م، ص ٣-٤؛ أحمد عبد الرحيم مصطفى: شفيق غربال مؤرخًا. المجلة التاريخية المصرية. مج ١١، ١٩٦٣ م، ص ٢٥٥-٢٧٨؛ خير الدين الزركلي: الأعلام. بيروت، دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢ م. ج ٦ ص ١٥٩؛ نقولا يوسف: أعلام من الإسكندرية. الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٦٩ م، ص ٢٩٥-٢٩٩؛ عبد المنعم الجميبي: اتجاهات الكتابة التاريخية في تاريخ مصر الحديث والمعاصر «القرنين التاسع عشر والعشرين». القاهرة، عين للدراسات والبحوث، ١٩٩٤ م، ص ١٥٩-١٧٠؛ أحمد زكريا الشلق: من الحوليات إلى التاريخ العلمي - نهضة الكتابة التاريخية في مصر. سلسلة مصر النهضة ٨٤. القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١١ م، ص ١٧٤-١٨٠.

شفيق غربال واهتمامه بفروع التاريخ المختلفة، مثل: محمد رفعت^(١)، ومحمد أنيس^(٢)... وغيرهما.

ويرجع تفسير عدم وجود أية دراسات سابقة حول هذا الموضوع - في ظني إلى سببين: أولهما - ما هو شائع عن أن تخصص شفيق غربال هو التاريخ الحديث؛ ولهذا فمن المستبعد أو غير المتوقع أن تكون له إسهامات مهمة أو محددة في كتابة التاريخ الإسلامي. والسبب الثاني يرجع إلى تعذر الاطلاع على معظم كتابات شفيق غربال في التاريخ الإسلامي لتناثرها في الدوريات وبعض الكتب، مع عدم وجود ببليوجرافية تهدي إليها؛ حتى إنني لم أجد - في حدود علمي - أية دراسة أو بحث في التاريخ الإسلامي اعتمد على هذه الكتابات أو كانت من مراجعه.

قسّمتُ ورقتي إلى أربعة محاور أساسية تشتمل على مجموعات من قضايا التاريخ الإسلامي - كما رصدتها - عند شفيق غربال، وهي: قضايا المصطلح، وقضايا كتابة التاريخ الإسلامي، وقضايا التاريخ الإسلامي العام، وقضايا التاريخ الإسلامي الخاص بمصر. ثم في النهاية تأتي النتائج التي يمكن الخروج بها من هذه الورقة.

أولاً - قضايا المصطلح :

اهتم شفيق غربال بقضايا المصطلح اهتماماً كبيراً، ومن المعلوم أن قضية المصطلح من أهم القضايا التي تعين المؤرخ على فهمه للنصوص التاريخية وحكمه عليها، وقد انتبه عباس محمود العقاد لهذا الموضوع في اهتمامات مؤرخنا ذاكراً أن دراسة غربال للكلمات «أشبه شيء بالبحث عن تاريخها أو مناسباتها التاريخية»^(٣).

(١) محمد رفعت: كلمته في تأبين محمد شفيق غربال بمعهد الدراسات العربية العالية، ديسمبر ١٩٦١م. المجلة التاريخية المصرية. مج ١٩، ١٩٧٢م، ص ٨.

(٢) محمد أنيس: شفيق غربال ومدرسة التاريخ المصري الحديث. مجلة المجلة. السنة الخامسة، العدد ٥٨، نوفمبر ١٩٦١م، ص ١٥ هامش (١).

(٣) العقاد: شفيق غربال في ذمة الله. جريدة الأخبار. ٢٥ أكتوبر ١٩٦١م؛ يوميات. القاهرة، ط ٢، دار المعارف، ١٩٨٥م، ج ٤، ص ٦١٨.

ومن معالم هذا الاهتمام قيام شفيق غربال بتكليف عبد الرحمن زكي مدير المتحف الحربي - آنذاك - بتأليف كتاب يهتم بالمصطلحات العربية والعربية المتعلقة بالسلاح، وهو الكتاب الذي أصدرته الجمعية التاريخية سنة ١٩٥١م. وقد أكد شفيق غربال في مقدمته لهذا الكتاب على أهمية المصطلح فقال: «كل من يشتغل بالبحث التاريخي يدرك مقدار حاجته لأدوات قريبة المنال، سهلة الاستعمال، تسعفه عند اللزوم لفهم اصطلاح يعترضه أثناء قراءة نص...»^(١).

وقد زاد اهتمام شفيق غربال بالقضية الاصطلاحية خاصة بعد اختياره عضواً بجمع اللغة العربية (١٩٥٦ - ١٩٦١م)؛ حيث ترأس لجنة المجمع للمصطلحات التاريخية والجغرافية، ويذكر شفيق غربال بخصوص مصطلحات التاريخ الإسلامي أن هذه اللجنة توصلت إلى أن المؤرخين يستمدون المصطلحات التي يستخدمونها من العلوم والفنون الأخرى؛ وبمعنى آخر أن علم التاريخ عند المسلمين ليس له مصطلحات خاصة به؛ وعلى هذا تم الاسترشاد بتجربة الخوارزمي (ت ٩٩٧/٥٣٨٧م) في كتابه «مفاتيح العلوم» والذي تمثلت طريقته - في حصر المصطلحات - على استعراض الكتب التاريخية والجغرافية واستخراج ما سماه «الألفاظ التي يكثر ورودها في تاريخ الروم أو فارس أو في المغازي ... إلخ»^(٢).

وبناءً على ذلك قامت لجنة المصطلحات التاريخية بضبط الألفاظ الاصطلاحية الواردة فيه وشرحها وتقديمها في ثوب معاصر. وقام بهذا العمل - تحت إشراف شفيق غربال - كل من يحيى الخشاب فيما يخص المصطلحات ذات الأصل الفارسي، والسيد الباز العربي فيما يخص المصطلحات العربية.

وإن كان هناك من تعليق على هذا الجهد فهو الأسف بأنه جهد لم يتم استكمال به بدراسة المصادر الأخرى، وهو الأمر الذي إن تم سيمهد الطريق للوصول في النهاية إلى معجم المصطلحات التاريخية الخاصة بالتاريخ الإسلامي على أساس سليم، وهو الأمر الذي يفتقر إليه حقل التاريخ الإسلامي.

(١) من تقديم محمد شفيق غربال لكتاب السلاح في الإسلام، لعبد الرحمن زكي. القاهرة، دار المعارف، ١٩٥١م.

(٢) من تقديم محمد شفيق غربال لدراسة ضبط وتحقيق الألفاظ الاصطلاحية التاريخية الواردة في كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي، يحيى الخشاب، والسيد الباز العربي. المجلة التاريخية المصرية. المجلد السابع، ١٩٥٨م، ص ١٦١ و ٢١٣.

وبجانب ذلك قدم غربال إسهامًا في دراسة المصطلحات السياسية في بحثه الذي نشره سنة ١٩٦٠م تحت عنوان «كيف دخلت بعض المصطلحات السياسية في اللغة العربية؟»^(١). والذي عرض علينا فيه صورًا من تطور المصطلح السياسي، منوهاً بضرورة الاهتمام بالمصطلحات التاريخية والعناية بها لأنها لم تنل ما تستحقه من اهتمام وعناية. ومن النماذج الدالة في دراسة شفيق غربال هذه تطرقه لمصطلح (ثورة) الذي يكثر وروده في المصادر العربية القديمة، ذاكراً أن دلالة هذا المصطلح التي نعرفه بها الآن لم تُعرف في المصادر العربية؛ حيث إنها لم تستخدم إلا منذ زمن قريب جداً. بل إنه في زمن الحملة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر لم يكن معنى ثورة معروفاً بالمعنى الذي نفهمه الآن، والثورة (Revolution) تم التعبير عنها في أول قاموس فرنسي عربي - وهو قاموس إليوس بقطرب (فتنة) و (قومة)^(٢). وهذا الأمر يفيدنا في التعامل مع الأخبار المصدرية في مصادر التاريخ الإسلامي التي يرد بها ذكر كلمة ثورة، وهي عبارة عن حركات احتجاجية وانتفاضات لا ترقى لمفهوم الثورة المعروفة في أيامنا، وإذا لم نأخذ هذا الأمر في الاعتبار لن نفهم الحدث التاريخي فهماً سليماً في سياقه الطبيعي.

وكما يُبين شفيق غربال أهمية مُراعاة الأبعاد الزمنية في المصطلحات واختلاف دلالة المصطلح من زمن لآخر، يبين كذلك ضرورة الأخذ في الاعتبار الأبعاد المكانية والتي تُحْمِل المصطلح معاني في مكان لا توجد في مكان آخر به المصطلح نفسه. ومن المصطلحات التي لفتت انتباه غربال في هذا الصدد مصطلح (الإقطاع) والذي وجه سهام نقده - في إحدى مقالاته - لبعض الكتاب في عصره بسبب عدم فهمهم لدلالات هذا المصطلح الشرقية والغربية وخلطهم بين المدلولين؛ حيث إن مدلول كلمة إقطاع في المجتمع الإسلامي غير مدلولها في المجتمع الأوروبي^(٣).

ومن الجدير بالذكر أن شفيق غربال وضع برنامجاً وخطة عمل لإنجاز معجم للمصطلحات

(١) مؤتمر مجمع اللغة العربية. الدورة ٤٦، ج ٩ للمؤتمر، مجموعة البحوث والمحاضرات، ١٩٥٩-١٩٦٠م، ص ص

١٩٥-٢٠٢.

(٢) محمد شفيق غربال: كيف دخلت بعض المصطلحات السياسية في اللغة العربية، ص ١٩٨.

(٣) محمد شفيق غربال: العرب في التاريخ. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٨٥٣، السبت ٢١ يوليو ١٩٥١م، ص ٦.

السياسية في الفكر العربي والإسلامي. وقد قسّم هذه الخطة إلى قسمين: أولهما خاص بأنواع هذه المصطلحات، والتي رأى أنها تنقسم إلى خمسة أنواع هي: «نوع يتعلق بفكرة الدولة، وثان يتعلق بفكرة الحكومة، وثالث يتعلق بالقانون والعدل، ورابع يتعلق بالفلسفة، وخامس يتعلق بالحياة الاجتماعية وآداب السلوك والسير، وما إلى ذلك»^(١). والقسم الثاني يختص بمراحل هذا البحث. ويؤكد شفيق غربال على ضرورة الرجوع في إعداد هذا المعجم إلى نصوص المعاهدات والاتفاقات وغيرها من وثائق^(٢).

وحقيقة الأمر لم يلق هذا الأمر الاهتمام والعناية التي دعا إليها شفيق غربال؛ فلم نجد بين أيدينا فيما أعلم حتى الآن معجمًا للمصطلحات السياسية التي استخدمها المؤرخون في الحضارة الإسلامية، وهي فكرة لازالت قائمة وتستحق الاهتمام الكبير من قبل مؤرخي الحضارة الإسلامية

ومما يصلح شاهدًا أيضًا على اهتمامات شفيق غربال الاصطلاحية توقفه أمام مصطلح «عصر الجاهلية» شارحًا له ومصوبًا لبعض الآراء تجاهه؛ فيذكر أن كلمة (الجاهلية) لا تعني هنا «عكس المعرفة» بل إنها - بالأحرى - تعني «مخالفة القانون، والتمرد» أو «الجهل بوجود ما هو أفضل»، ويؤيد غربال البعض في تفسيرهم للكلمة على أنها تشير إلى العادات البربرية أو البدوية قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إلا أنه يؤكد على المعنى الديني لها من حيث كونها تعني نبذ التوحيد الصرف الذي جاء به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى عبادة الأصنام^(٣).

وبالرغم من عدم ميل الباحث إلى استخدام صيغة (العصر الجاهلي) للتعبير عن الفترة السابقة لعصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وأرى أن التعبير المناسب عنها هو «تاريخ العرب قبل الإسلام» بالنسبة لتاريخ الجزيرة العربية لأنه تعبير حيادي لا يحمل دلالات مسبقة قد

(١) محمد شفيق غربال: كيف دخلت بعض المصطلحات...، ص ١٩٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٩٧.

(٣) محمد شفيق غربال: الآراء والحركات في التاريخ الإسلامي، [ضمن كتاب: الإسلام الصراط المستقيم، إشراف:

كنيث. و. مورغان. ترجمة: محمود عبد الله يعقوب، مراجعة: نور الدين الواعظ. القاهرة، مؤسسة فرنكلين، بغداد

- القاهرة - بيروت - نيويورك، ١٩٦١م، ج ١ ص ٦٨.

يتضمنها وصف «الجاهلي»، إلا أن تفسير شفيق غربال للمصطلح يحمل بعض الوجهة التي تبرر للبعض استخدامه.

ومن أبرز المصطلحات التي يمكن الوقوف عليها في إسهامات شفيق غربال الاصطلاحية مصطلح (التاريخ الإسلامي). هذا المصطلح الذي لا بد للمتخصص في هذا الحقل أن يعرف تاريخه وجذوره وأبعاده، ولم أجد من توقف أمامه شارحاً تلك الأمور. ولقد حاولت فيما سبق من زمن أن أفتش عن ذلك باحثاً في كتب البيولوجرافيات كفهريست النديم (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) وكشف الظنون لحاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ/١٦٥٧م) فلم أجد عند مؤرخي الإسلام من استخدم هذا المصطلح في التعبير عن الإطار التاريخي الممتد من عصر الرسول صلى الله عليه وسلم إلا في حالات نادرة لعل أوضحها الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م) في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي عندما جعل لكتابه عنوان «تاريخ الإسلام» والذي كان الدائرة الأغلب في تراجمه خاصة بالعلماء والمفسرين والفقهاء والمحدثين والمرتبطين بالدين الإسلامي.

وفي تناوله لهذا المصطلح يقوم شفيق غربال بنقد ما اشتهر ولا زال مشهوراً حتى الآن من تقييد استعمال كلمة (إسلامي) نقلاً عن العلماء الأوروبيين في دراساتهم التاريخية في إطلاق وصف نصراني أو مسيحي إلا على الأزمنة السابقة للعصور الحديثة والمعاصرة. ويوضح غربال طبيعة هذا الخطأ بقوله إن الاستعمال الأجنبي له ما يبرره عندهم، وهو الذي جاء نتيجة للفصل بين ما سموه السياسة وما سموه الدين. ويتساءل شفيق غربال: أما عندنا، فما وجه تبريره؟ وما مقياس الإسلامية؟ أهو وقوع الشيء في عصر سابق للمؤثرات الأوروبية؟

ويوضح شفيق غربال ذلك بقوله إن الحضارة الإسلامية كانت مزيجاً من عناصر متباينة شرقية وغربية؛ وعلى هذا فلا يوجد سبب معقول لاستبعاد استخدام مصطلح إسلامي في الفترة التاريخية الحديثة التي شهدت تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية بينما لا تجردها من هذا الوصف في طور تأثيرها بالفلسفة اليونانية القديمة في العصر العباسي مثلاً. مشيراً إلى أن الحضارة الإسلامية تأثرت بنظم الساسانيين أو الروم، وهذا لم يمنعها من إسلاميتها، وكذلك تأثرت في مرحلة تالية

بالمؤثرات الفرنسية أو الإنجليزية، وهذا أيضًا بالتبعية لا يجعلنا ننزع عنها إسلاميتها^(١).

ويجب الانتباه إلى حقيقة واضحة في سياقها التاريخي وهو أن شفيق غربال في كتاباته - حتى تلك التي نُشرت بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م باتجاهاتها العربية - يرى أن إطلاق وصف «إسلامي» أعم وأصدق من وصف «عربي»^(٢) على هذا المجال من التاريخ.

والذي يخرج به شفيق غربال من نتيجة وراء مناقشته المنطقية أنه «لا نستطيع بحال أن نعتبر الحضارة الإسلامية أمرًا طواه الزمان... أو أن التطور الإسلامي قد وقف عند حد معين، بل على العكس نعتبره مستمرًا متصل الأدوار»^(٣).

وهذا التفسير - الذي أراه صحيحًا - يجعل الباحث يفتش عن رؤية شفيق غربال في قضية أخرى وهي قضية التحقيب التاريخي والموقع الزمني للتاريخ الإسلامي عنده.

والحقيقة أننا نجد تطورًا ما لدى شفيق غربال في قضية التحقيب أو الإطار الزمني للتاريخ الإسلامي؛ حيث ذكر سنة ١٩٣٨م أن «العالم الإسلامي قد تطور بموجب الفتح العثماني تطورًا جديدًا، كما أنه ليس من شك في أن ذلك الفتح يبدأ عهدًا جديدًا في تاريخ أمم أوروبا الشرقية، ويحق للمؤرخ أن يجعل منه أساس التاريخ الحديث للشرق العربي وللشرق الأوروبي - وأما ما ذهب إليه بعض الباحثين من الغض من شأن هذا الحادث فأمر لا يقوم على نظر قويم؛ فالقول مثلاً بأن المصريين وغيرهم قد خضعوا لحكام من الترك قبل خضوعهم للترك العثمانيين، وأن كل ما جرى في القرن العاشر هو استبدال ترك بترك يغفل فروقًا جوهرية بين النوعين من حكم الترك، ولا يستطيع أي مستقص لأحوال المصريين أو العراقيين إلا أن يدرك مقدار اختلاف طبيعة الحكم السلجوقي في بغداد والخلافة العباسية قائمة، والحكم المملوكي في القاهرة،

(١) محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير. لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، (أعلام الإسلام ٨). القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٤م، ص ٣.

(٢) محمد شفيق غربال: من زاوية القاهرة، القاهرة، الدار القومية، ١٩٦٢م، ص ١٨. ويلاحظ أن شفيق غربال - بالرغم من ذلك - يستخدم مصطلح (التاريخ العربي) في الكتاب نفسه في سياقات خاصة. انظر: من زاوية القاهرة، ص ص ٩-١٠.

(٣) محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير، ص ٤.

وتقاليد الفاطميين والأيوبيين مستمرة، عن حكم السلاطين العثمانيين للمصريين وللعراقيين على يد نوابهم من الباشوات، تؤيد هؤلاء أو تعرقلهم جماعات من أجلاف الجند وأخلاق الناس. وأين هؤلاء الباشوات من سلاطين بغداد وسلاطين القاهرة؟ وأين إدارتهم العابثة من تلك الدواوين العربية اللسان الجامعة لكل ذي بيان ولكل صاحب فضل؟^(١)

ومعنى ذلك أن شفيق غربال بذلك يحدد حقل التاريخ الإسلامي بنهاية العصر المملوكي، إلا أننا إذا تتبعنا كتابات شفيق غربال زمنياً سنجد أنه يغير هذا الرأي؛ فهذا الذي ذكره غربال سنة ١٩٣٨م سرعان ما قام بتغيير رأيه فيه في أكثر من موطن من كتاباته المختلفة ففي سنة ١٩٤٦م وفي مقالته التي عنوانها «أهم الأحداث في تاريخ مصر الحديث» يذكر أن العصر الحديث في مصر يبدأ عند نهاية القرن الثامن عشر^(٢). إلا أنه في سنة ١٩٤٩م يراوح بين الرأيين ويذكر أن مصر في ظل الحكم العثماني عاشت على ما خلفه له تراثها، فلم تزد عليه، وأن هذا العصر الذي يمكن تسميته بعصر الأمراء المماليك هو «عصر الانتقال للعصر الحديث»^(٣) ويذكر في السنة التالية - ١٩٥٠م - أنه قد امتدت بعد نهاية القرن الثامن عشر عوامل التغيير في المجتمع الإسلامي سواء في مصر أيام محمد علي أو في الدولة العثمانية أيام سليم الثالث ومحمود الثاني أو في إيران أيام فتحي علي شاه^(٤).

ورؤية شفيق غربال الجديدة والمكتملة والتي ظل مؤمناً بها حتى رحيله أن تاريخ مصر الإسلامية على سبيل المثال يتم تقسيمه إلى فترتين مختلفتين كل الاختلاف في الطول: فالأولى تستغرق من منتصف القرن السابع حتى نهاية القرن الثامن عشر، بينما تشمل الثانية السنوات

(١) تقديم محمد شفيق غربال لكتاب: الشرق الإسلامي في العصر الحديث، الحسين مؤنس. القاهرة، مطبعة حجازي، ط ٢، ١٩٣٨م. ص ص (د - هـ).

(٢) محمد شفيق غربال: أهم الأحداث في تاريخ مصر الحديث وأثرها في مركز مصر الحاضر. [ضمن محاضرات الموسم الثقافي الأول للجامعة الشعبية (التي ألفت بدار الجمعية الجغرافية الملكية، مارس - مايو ١٩٤٦م)]. القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٤٧م، ص ٨.

(٣) محمد شفيق غربال: في متحف الحضارة المصرية. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٣١، السبت ١٨ مارس ١٩٤٩م، ص ٦.

(٤) محمد شفيق غربال: كتب جديدة. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٨٠٨، السبت ٩ سبتمبر ١٩٥٠م، ص ٦.

التالية حتى عصره في منتصف القرن العشرين، مؤسساً هذه الرؤية بقوله: «شهدت الفترة الأولى تَكْوَنَ ثقافة إسلامية بلغت قدرًا كبيرًا من الاستقرار والتماسك سواء في أيام ازدهارها أو في عصر انحطاطها، وسواء نظرنا إليها من وجهة بنائها الداخلي أو من وجهة علاقاتها الخارجية. أما الفترة الثانية فقد شهدت إخضاع تلك الثقافة لدوافع وحركات من الشد والجذب، كانت ذات تأثير بليغ في كيانها»^(١).

ويمكن القول إن نظرة شفيق غربال إلى الحدود الزمنية لحقل تخصص التاريخ الإسلامي استمرت حتى رحيله، وذلك لأننا نجد أنها كذلك في كتاب «منهاج مفصل» والصادر سنة ١٩٦١م أي في السنة نفسها التي رحل فيها؛ يؤكد فيه بصورة جلية على تبعية العصر العثماني حتى نهاية القرن الثامن عشر للفترة السابقة عليه - أي الإطار الزمني الشائع للتاريخ الإسلامي - أكثر من تبعيته للفترة اللاحقة عليه، ويبين أن التغيير الطفيف الذي أصاب الأقطار العربية والإسلامية نتيجة للتبعية العثمانية لم يمس شيئاً أساسياً من مقدمات المجتمع حيث «بقيت عناصره كما كانت : فلاحوه وبدوه وصناعه وتجاره وعلماءه وأجناده وأصحاب المناصب. وما بين تلك العناصر من العلاقات بقي كما كان. ونظم حيازة الأرض ونظم الجباية هي هي، والواقع الذي يحدث كل يوم هو هو، والمثل الأعلى هو هو»^(٢).

ويختلف شفيق غربال في هذه الرؤية عن مؤرخي التاريخ الحديث الذين لا يزالون حتى الآن يدرجون العصر العثماني ضمن دراساتهم، كما أن مؤرخي التاريخ الإسلامي والوسيط يستبعدونه من دائرة اهتماماتهم البحثية ويقصرون ويحددون مدى زمنياً لدراساتهم بنهاية العصر المملوكي في بدايات القرن السادس عشر الميلادي مقتدين في ذلك باتجاه بعض المستشرقين في وضع حدود فاصلة تعسفية بين الفترات التاريخية، بالرغم من وجهة جميع الاعتبارات التي ذكرها شفيق غربال ومصادقيتها.

(١) محمد شفيق غربال: تكوين مصر. نقله إلى العربية بمعاونة محمد رفعت. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية،

١٩٥٧م، ص ٧٧-٧٨.

(٢) محمد شفيق غربال: منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ما هي عليه اليوم.

القاهرة، جامعة الدول العربية، ١٩٦١م، ص ١٣٠.

ثانيًا- قضايا الكتابة التاريخية :

ينوه شفيق غربال بقضية مكانة التاريخ في الحياة العقلية العربية، والدور الذي قام به علم التاريخ تجاه العلوم اللغوية والأدبية والدينية، وتجاه أفراد المجتمع في معاملاتهم، وكذلك تجاه الحكومات التي لم تستغن عن التجارب التاريخية في سياساتها. وأن التاريخ العربي الإسلامي كان واحدًا من أهم أدوات نشر الثقافة العربية الإسلامية بين مختلف شعوب دار الإسلام؛ وبالرغم من ذكره لهذه الحقيقة، إلا أنه يرى أن طلب التاريخ عند المسلمين كان غالبًا لمجرد لذة الطلب والقراءة مستشهدًا بروايات عن الجاحظ (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) والمسعودي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م). كما يستخلص حقيقة عدم قيام المسلمين بفصل التاريخ عن المواد الثرية، والتي ترتب عليها عدم وجود دراسة نظامية للتاريخ قبل العصر الحديث، كما أن النقاد لم يتعرضوا لأساليبه.

ويؤكد غربال على ضخامة الإنتاج التاريخي عند المسلمين، إلا أنه يوضح أن هذه الضخامة تهللنا مظهرًا لا حقيقة وذلك لثلاثة أسباب هي:

- ١- كثرة الأسانيد، ويدلل على ذلك بقوله: «إذا حذفنا الأسانيد من تاريخ دمشق لابن عساکر أمكننا أن نهبط بالمجلد الواحد من ذلك التاريخ عشرات الأوراق إلى خمس ورقات».
- ٢- أن المؤرخين اعتادوا أن يوصلوا ما أعدوه بمادة منقولة من كتب السابقين نقلًا حرفيًا وبذا تكبر مصنفاتهم.

- ٣- هناك من المؤلفات التاريخية ما يصعب اعتباره كتبًا بالمعنى المألوف، وذلك مثل كتاب من جمع بين أختين، وكتاب من تزوج ابنة امرأته، وكتاب من وقف على قبر فمثل بشعر، أو كتاب للحاملين لاسم عبد المؤمن أو عوض.... إلخ^(١).

وتناول شفيق غربال القضية الأسلوبية في كتابة التاريخ عند المسلمين في العصور الوسطى على اعتبار أنها تُعد جزءًا من تراث المدنية العربية. ويرصد في ذلك الشأن ذبوع أسلوب الخبر عند مؤرخي الإسلام الأوائل، وهو الأسلوب الذي يجمع بين النظم والنثر ويحرص على إثارة انتباه السامع أو القارئ؛ ولهذا نجد أن كثيرًا من كتابات هؤلاء المؤرخين تعتمد على الذوق الفني أكثر

(١) محمد شفيق غربال: أساليب كتابة التاريخ عند العرب. مجلة مجمع اللغة العربية. ج ١٤ سنة ١٩٦٢ ص ٢٦٢٥.

من اعتمادها على الأمانة التاريخية، ضارباً بذلك نموذجاً من كتاب «الأخبار الطوال» لأبي حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢ هـ/ ٨٩٥ م) يتضمن كلاماً تم بين معاوية وعمرو بن العاص والذي من المؤكد دار في جلسات سرية^(١)، لم يقل لنا المؤرخ الذي عاش في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي كيف بلغه هذا الكلام، بالرغم من أنه ربما كان له أصل من الواقع ولكن لا سبيل إلى نفي ما أدخلته عليه وفيه صناعة المؤرخين. كما يتطرق للطبري (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م) ذاكراً أنه - كما قال في مقدمة كتابه في التاريخ - أنه أدى كل ما ورد في كتابه على نحو ما أدى إليه دون استخراج بعقل، ولا استنباط بفكر^(٢).

ولا ينفي شفيق غربال عن المؤرخين المسلمين محاولة تنفيذ بعض الأفكار العظيمة في الكتابة التاريخية؛ ضارباً على ذلك مثلاً بالفكرة التي قام على أساسها كتاب «تجارب الأمم» لمسكويه (ت ٤٢١ هـ/ ١٠٣٠ م) المعروف؛ غير أن غربال يرى أن فكرة الكتاب أعظم من تنفيذه، كما أنه يضع مسكويه في سياقه الزمني ويقول إنه وفق توفيقاً كبيراً حينما أخذ يقترب من عصره، فاستفاد استفادة حقيقية من تجاربه شارحاً أسباب الحوادث ونتائجها.

وكما درس شفيق غربال مؤرخين يتسع نطاق التاريخ لديهم ليحيط بالشعوب عموماً وبشعوب دار الإسلام خصوصاً، درس المقرئزي (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م) والجبرتي (ت ١٢٣٧ هـ/ ١٨٢٢ م) والذي يُصنِّق نطاق التاريخ لديهما فيؤرخان لما يخص وطنهما مصر.

وبالرغم من أنه لا يخفى على شفيق غربال إسهامات كبار المؤرخين المسلمين كابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦ م) وغيره في محاولاتهم التفسيرية^(٣)، إلا أنه يصف التأليف التاريخي في معظمه بأنه أضعف ما خلفته الحياة العقلية العربية، مع إدراكه لمعرفة المؤرخين العرب لبعض معالم مناهج النقد التاريخي والمستمدة من مناهج دراسة الحديث النبوي وأسباب هذا الضعف في

(١) انظر: أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال. تحقيق: عبد المنعم عامر، ومراجعة: جمال الدين الشيال. القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٥٩ م، ص ١٦٩ و ١٧٧.

(٢) انظر: الطبري: تاريخ الرسل والملوك. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، دار المعارف، ط ٢، ١٩٦٧ م، ج ١ ص ٨٧.

(٣) محمد شفيق غربال: التجمع والتفرق في الشرق العربي. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧١٩، السبت ٢٥ ديسمبر ١٩٤٨ م، ص ٦.

رأيه ترجع إلى:

- ١- ضعف الخيال التاريخي أو التصور.
- ٢- انعدام أي إحساس يذكر بالكفاح بين قوتي الخير والشر في التاريخ أو بالفروق بين الأمم.
- ٣- عدم التحليل الدقيق للشخصيات التاريخية.
- ٤- ندرة أن يبيدي واحد منهم ما يدل على رغبة قوية في الاستطلاع والتفهم والتعرف على البعيد عنه زمانًا ومكانًا من الوقائع والحقائق^(١).

وبالإضافة إلى ذلك ينقد شفيق غربال المؤرخين المسلمين في عدم قيامهم بالتركيب، ويذكر أنه أقل ما عني به علماءنا الأقدمون. والتركيب كما يذكره هو العرض المعقول المعلن، وإن كان موجزًا أو قليل التفصيل - لنمو التاريخ الإسلامي طبقًا لاجتهاد المؤلف ونفاذ تصوره ووضوح فكرته. ويُرجع غربال أسباب قلة الاهتمام بذلك إلى انشغال علمائنا الأقدمين بالجمع والرواية من جهة وانغماسهم جسدًا وروحًا في محيط الحوادث من جهة أخرى^(٢).

وعلى الرغم من النقد الذي يوجهه غربال للكتابة التاريخية عند المسلمين إلا أنه لا يهمل التأكيد على أن علم التاريخ في الحضارة الإسلامية يتسم بصفتي العظمة والإنسانية، وأنه يخلو من الكثير من الشوائب الموجودة في كثير من كتب التاريخ عند الأمم الأخرى^(٣).

ومما يرتبط بقضايا الكتابة التاريخية قضية الإلهام عند المؤرخين المسلمين، والتي تناولها شفيق غربال - متأثرًا بأفكار أستاذه أرنولد توينبي - في مقالة بالغة العذوبة^(٤) محدّدًا في البداية أي مؤرخين يقصد فيقول إنهم «أولئك الذين تأثروا بمؤثرات بلغت في بعض الأحيان حد العنف، وعبروا عن شجونهم أو انفعالاتهم أو إحساساتهم بالتأليف التاريخي». أما الإلهام

(١) محمد شفيق غربال: أعظم كتب التاريخ في هذا الزمان. مجلة الراديو المصري. العدد ٦٧٨. السبت ١٣ مارس ١٩٤٨م، ص ٩.

(٢) محمد شفيق غربال: العرب في التاريخ، ص ٦.

(٣) محمد شفيق غربال: أساليب كتابة التاريخ عند العرب، ص ٢٦.

(٤) محمد شفيق غربال: مصادر الإلهام عند بعض المؤرخين. مجلة الهلال. السنة ٦٢ - الجزء ١١، نوفمبر ١٩٥٤م، ص

الذي يقصده فيعني به «وصف لما ينتاب المؤرخ من جراء الأزمة التي تدفع به نحو ذلك التعبير بالتأليف التاريخي ويوحى إليه أحياناً بموضوع التأليف وبأسلوبه». ويطبق هذا الأمر على بعض المؤرخين ومنهم ابن خلدون الذي لمس في حياته الخاصة جميع ما تعرض له الأندلس والمغرب من مبادي الدول ومراتبها وتزاحمها وتعاقبها... فهو في الجملة - بالنسبة إلى المؤلف - «فرج من بعد ضيق وخلاص من بعد شدة... فأما الضيق والشدة فمرجعهما خراب الأندلس وخراب المغرب وتزاحم الدول وتعاقبها، وقد عانى من جراء ذلك ما عانى».

ومن القضايا الشائكة في الكتابة التاريخية عند المسلمين قضية التأثير المذهبي أو كتابة التاريخ بين السُّنَّة والشيعة؛ حيث يشكو كل من المؤرخين السُّنَّيين والشيعة من معالجة مؤرخي كل فريق منهم لأحداث التاريخ الإسلامي ويقول: «لا أزعم أنه من الممكن تأليف تاريخ يرضى به الفريقان تماماً، إذ أن لكل منهما نظرة تقوم على مقدمات مسلمة لا يقبلها الفريق الآخر»؛ ولهذا يضع شفيق غربال إطاراً يمكن من خلاله علاج هذه المشكلة يتمثل في إنشاء تاريخ يحترمه كل منهما يقوم على:

١- عرض وجهتي النظر.

٢- الخلو من الاستهجان والذم والامتهان.

٣- نوع من التقريب القائم على الاحترام المتبادل والتفاهم وإيثار المصلحة الأعم على المصلحة الأخص^(١).

ومن قضايا كتابة التاريخ التي لاقت اهتماماً لدى شفيق غربال قضية المصادر التاريخية التي لم تلق عناية تستحقها في النشر. وهذا ما يبينه دعوته لتحقيق كامل لكتاب «تجارب الأمم» لمسكويه^(٢)، وأيضاً إشارته إلى الإخراج الحقيق - وفقاً لتعبيره^(٣) - لخطط المقرئزي؛ وكأنه كان

(١) محمد شفيق غربال: أحكام المؤرخين على الرجال. مجلة الهلال. السنة ٦٣ - الجزء ٤٤، إبريل ١٩٥٥م، ص ٤٤.

(٢) محمد شفيق غربال: أساليب كتابة التاريخ عند العرب، ص ٣٣. ولم تتحقق دعوة شفيق غربال إلا بعد أربعين عاماً، وذلك في الطبعة التي حققها أبو القاسم إمامي وصدرت في طهران سنة ٢٠٠١م.

(٣) محمد شفيق غربال: أساليب كتابة التاريخ عند العرب، ص ٣٣. ومن الجدير بالذكر أن أمنية شفيق غربال - نحو كتاب خطط المقرئزي - لم تر النور إلا خلال السنوات ٢٠٠٢-٢٠٠٤م حين تصدى لتحقيقه أمين فؤاد سيد ونشرته له مؤسسة الفرقان في لندن.

واعيًا بطريق غير مباشر إلى ضرورة إعادة تحقيق هذا الكتاب الجليل تحقيقًا يليق به.

ويهتم شفيق غربال باثنين من أنواع مصادر التاريخ الإسلامي العديدة التي رجع إليها على غاية كبيرة من الأهمية وهما الوثائق والآثار.

بالنسبة للوثائق يعتبر غربال أحد مؤسسي مدرسة التاريخ بالاعتماد على الوثائق في مصر^(١)، وهو ما يظهر واضحًا في كتاباته المختلفة في التاريخ الحديث، وقد انسحب ذلك أيضًا على اهتماماته بالتاريخ الإسلامي؛ فيذكر أن الوثائق ينبغي أن تكون قريبة للدارس^(٢). ويأتي إدراكه لأهمية الوثائق في التاريخ الإسلامي لسببين: أولهما سبب خاص يتمثل في تأخر عصر التدوين نسبيًا، وثانيهما سبب عام وهو أن الكتب ترسل أحكامًا عامة قد تصدق وقد لا تصدق على جميع الأحوال والأمصار؛ ولهذا ينبغي مقارنتها بالوثائق التي تتناول ما حدث فعلاً^(٣). ومن الجدير بالذكر أن شفيق غربال وإن لم يساهم في حركة نشر الوثائق العربية إلا أن له جهود ملموسة في الاهتمام بها ونشرها، وهو ما نراه بارزًا في إدراكه لأهمية الوثائق البردية العربية في تصحيح أحكام الكتب التاريخية^(٤) وهو الأمر الذي دفعه إلى تكليف أدولف جروهمان وهو واحد من أبرز علماء هذه الوثائق القلائل إلى تأليف كتاب عن هذه الوثائق لتشره له الجمعية التاريخية. وبالفعل قام جروهمان بالاستجابة لهذا التكليف ووضع كتابه: *From the world of Arabic Papyri* والذي نشرته الجمعية التاريخية سنة ١٩٥٢م، وهذا الكتاب يحوي مقدمة مطولة عن البرديات العربية، كما يضم نشرًا للعديد من الوثائق البردية من مجموعات بردية مختلفة.

كما أن شفيق غربال في دراسته للتاريخ الاقتصادي العربي ينوه بحقيقة أن العمل في الوثائق العربية لا زال في مبدئه^(٥)، وفي دراسة له أخرى عن تاريخ الأزهر يعلق على الدراسات التي

(١) سامي خشبة: مفكرون من مصر. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م، ص ١٩٥.

(٢) من تقديم شفيق غربال لكتاب: السلاح في الإسلام، لعبد الرحمن زكي.

(٣) محمد شفيق غربال: العرب في التاريخ، ص ٧.

(٤) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٥) تقديم محمد شفيق غربال لكتاب: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، لأرشيبالد لويس. ترجمة:

أحمد عيسى. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٠م، ص ٣٥ و ٣٨.

قامت حوله بقوله «لا أعرف أحدًا رجع إلى الوثائق الأصلية، بل لا أعرف أحدًا ابتدأ بحصر تلك الوثائق فنحن إذن في البداية وأمامنا كل شيء»^(١). وبالرغم من تكرار هذه الدعوة إلا أن الاهتمام الذي تلقاه الوثائق لا زال محدودًا جدًّا، كما أن نشر الوثائق مصاب بالشلل.

وبجانب ذلك اهتم شفيق غربال بنصوص الوثائق العربية التي ضاعت أصولها، كمجموعة الوثائق الفاطمية الذي أوصى مجلس إدارة الجمعية التاريخية برئاسة شفيق غربال في جلسته المنعقدة يوم الخميس ٢٢ نوفمبر ١٩٥٦م بنشرها مع توصية بأن يقوم بتحقيقها جمال الدين الشيال وإعدادها للنشر، وبالفعل صدرت هذه المجموعة في عام ١٩٥٨م^(٢).

هذا عن الوثائق، أما بالنسبة للآثار فإن شفيق غربال يرى أنها إن أحسن استعمالها تقدم للمؤرخ خاصة في الموضوعات الاقتصادية أدق المعلومات وأغزرها وأصحها^(٣). ويأتي اهتمامه الكبير بالآثار واضحًا في إنشاء متحف الحضارة المصرية والذي كان غربال أنشط أعضاء اللجنة المكلفة بإنشائه وأكثرهم إنتاجًا، وظل في جهد متواصل لعدة سنوات حتى ظهر هذا المتحف إلى النور سنة ١٩٤٩م. وضم هذا المتحف قسمًا خاصًا بتاريخ مصر الإسلامية.

وهناك نوع من التاريخ أسماه غربال «التاريخ الأثري»^(٤) منوهاً بأن هذا النوع من التاريخ ليس بالشيء الجديد، بل هو من أهم ما عني به المصريون في مختلف عصور تاريخهم، وقد طلبوه مرتبًا بالخطط^(٥). ويؤكد شفيق غربال على أهمية أسلوب الخطط في الكتابة التاريخية فيذكر أنه يجمع بين مزايا المرجع، يرجع إليه الباحث لتحقيق جزئي أو تفصيلي، ومزايا الدراسة المستفيضة لموضوع أو لمطلب، وهو أيضًا أسلوب يتميز بصفة الجمع بين العلم القديم الموروث، وبين ما طرأ عليه من

(١) محمد شفيق غربال: صحيفة من تاريخ الأزهر. مجلة الأزهر. المجلد ٢٣- الجزء ٩، رمضان ١٣٧١هـ- مايو ١٩٥٢م، ص ٥٩.

(٢) عبد المنعم الجميبي: الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - دراسة تاريخية لمؤسسة علمية ١٩٤٥-١٩٨٥م، ص ١٠٩.

(٣) تقديم محمد شفيق غربال لكتاب: القوى البحرية والتجارية، ص ٣٧.

(٤) محمد شفيق غربال: رسالة المؤرخ. مجلة الهلال. السنة ٦٥- الجزء ٤، أبريل ١٩٥٧م، ص ١٣.

(٥) محمد شفيق غربال: وجوب العودة للتأليف التاريخي على أساس الخطط. [ضمن التاريخ والآثار- الحلقة الدراسية الأولى ١٩٤٩م من فبراير سنة ١٩٦١م]. القاهرة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٩٦٢م.

تجديد أدى إليه تقدم البحوث^(١). ومما يندرج ضمن التاريخ الآثاري الفنون والصناعات، ويمكن للقارئ لكتابات غريال أن يخرج بنتيجة مفادها إيمانه الكامل بأنها من خير المظاهر التي تتجلى فيها الشخصية العربية والإسلامية^(٢)؛ ولهذا فهو يدعو المؤرخين إلى الاهتمام بها كمصدر لا غنى عنه في بحوثهم، بل إنه نفسه يقوم بتقديم برنامج وخطة عمل لمشروع جديد عن الخطط المصرية^(٣)، وهو مشروع لم يدخل حيز التنفيذ حتى الآن، ولا زال صالحاً.

وآخر قضية يمكن تناولها ضمن هذه المجموعة هي قضية الاستشراق وكتابة التاريخ الإسلامي. وبطبيعة الحال لا يمكن النظر إلى حركة الاستشراق على أنها اتجاه واحد بل إنها تتضمن بداخلها العديد من الاتجاهات، إلا أن هناك سمات عامة لكتابات الكثير من المستشرقين في مؤلفاتهم في موضوعات التاريخ الإسلامي، وهذه السمات يحصرها شفيق غريال^(٤) فيما يأتي:

- ١- حسن استخدام الأصول العربية.
- ٢- التمكن من مناهج النقد والتحليل.
- ٣- عرض التاريخ الإسلامي كفصل أساسي من فصول تاريخ الإنسانية يؤثر فيها وتؤثر فيه، وبه من الفضائل أو الرذائل كأبي جماعات إنسانية.
- ٤- دراسة ماضي الأمم التي تكونت منها الأمة الإسلامية، وهذا يؤدي إلى قدرة المستشرقين على تحليل موقفها من الإسلام وما لها بعده وأثرها في الحضارة الإسلامية.
- ٥- دراسة ديانات التوحيد ومعتقدات الجماعات، وبهذا يقدر المستشرقون العوامل الدينية وأثرها في المجتمعات الإسلامية، كما يستطيعون عرض الفرق والحركات الانفصالية دون الوقوف منها موقف البغضاء والكراهية.
- ٦- معرفة أثر العوامل الاقتصادية والاجتماعية في الأمم فلا يستأثر التاريخ السياسي

(١) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) محمد شفيق غريال: من زاوية القاهرة، ص ١٧.

(٣) محمد شفيق غريال: وجوب العودة للتأليف التاريخي على أساس الخطط، ص ١٤٩-١٥٣.

(٤) محمد شفيق غريال: العرب في التاريخ، ص ٦.

أو الحربي والطبقات الحاكمة بكتابتهم للتاريخ بل ينال العامل والفلاح وطبقات العمال والفلاحين دورهم الذي يستحقونه في التاريخ.

٧- محاولة التركيب بعد التحقيق، أي العرض المعقول المعلن للتاريخ الإسلامي طبقاً لاجتهاد المؤلف ونفاذ تصوره ووضوح فكرته.

ويجب التفرقة في رؤية شفيق غربال تجاه المستشرقين بين الفكر أو الفلسفة التي تحكم تعاملهم مع المادة التاريخية وبين توظيف الكثير منهم لهذا الفكر لخدمة بعض الأغراض غير العلمية؛ وهو ما يظهر في مناقشات غربال وردوده وتعقيباته على كثير من الآراء الاستشراقية التي لا تدل على فهم صحيح لحقائق التاريخ الإسلامي، ومن ذلك:

١- ربطه بين بعض صور حركة الاستشراق وبين حركة الشعوبية المعروفة في التاريخ الإسلامي قائلًا بأن خصوم العرب [والمسلمين] قديمًا وحديثًا يصرون عن بغضاء وحقد هادفين إلى الخط من قدر العرب ودورهم التاريخي في الماضي والحاضر، مستشهدًا بالعديد من الاستشهادات الدالة على ذلك سواء من حركة الشعوبية أو حركة الاستشراق^(١).

٢- تأكيده على عدم تغييب عامل الزمن ودوره في اختلاف حركة الاستشراق ويرى غربال أن الاستشراق قبل انتقال فكرة التنظيم العالمي إلى حيز المباحث السياسية العلمية - أي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر - جاء مواكبًا لحركة الاستعمار الأوروبي لبلدان العالم الإسلامي، ذلك من أجل تحقيق مصالح أوروبية مختلفة يأتي من بينهما: تقديم حقائق عن الإسلام والمسلمين لتيسير مهمة الحاكم الأوروبي، وخلق ميادين جديدة لانتشار الأفكار الأوروبية خاصة ما يتصل منها بالمذاهب الاجتماعية... إلى غير ذلك. ويؤكد غربال على أن هذه المصالح الأوروبية تؤسس على فكرة أن رسالة الإسلام قد قضيت وأنه لا رجاء للمسلمين إلا بأخذ فكرة الحركة عن المجتمع الأوروبي والتخلي عن فكرة المحافظة والسكون^(٢).

٣- تعليقه على رأي برنارد لويس عن العقلية العربية وأنها عقلية ذرية تنظر إلى الأشياء على

(١) محمد شفيق غربال: من زاوية القاهرة، ص ٢٨ - ٢٩.

(٢) محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير، ص ٧٢.

اعتبار أنها كليات متفككة لا رابطة بينها ولا يتركب منها كل واحد، يقول: إن هذا الرأي يعيبه أمران: أولهما إطلاقه لهذا الحد. وثانيهما أنه نظرة مُحدّث من رجال القرن العشرين متأثرة بنظرة العالم وتفكيره في هذا القرن، ويحكم غربال على هذه الرؤية الظالمة للعقلية العربية بأنها لا تستحق منا أن نعترف لها بالسلامة من كل شك أو أن نسلم لها بكل الصحة^(١).

٤- حديثه عن الرأي الشائع القائل بأن العرب ما هم إلا نقلة للعلوم لمن أثبتوا فيما بعد أنهم أولى بها منهم فيذكر أن في ذلك كل الفضل لثلاثة أسباب:

أ- أن نقل العلم يفيد تحصيله ثم دره ثم نشره.

ب- أن العلم يتطور بانتقاله من مرحلة لأخرى.

ج- تعدد المنابع التي أخذ عنها العرب من هندية وفارسية وقبطية وآرامية ومصرية ويونانية وأن ما فعله العرب من خلق مركب واحد من هذه العناصر المتباينة يُظهر الأصالة الحقيقية لهم^(٢).

٥- مناقشته الرأي القائل بأن معظم أصول العلماء الكبار غير عربية وأنهم من الأعاجم، ورد على ذلك بأن هذا الأمر يُعد فخراً للعرب لأنهم نجحوا في إلحاق أهالي هذه الشعوب بهم في سبيل تكوين مجتمع واحد، ونجحوا في ذلك، والدليل عليه إلحاقهم مبتكرين خالقين مبدعين، والابتكار والخلق والإبداع ليس أبداً من صفات الأذلاء^(٣).

ويتوقف شفيق غربال بالدرس بالتحليل أمام مدرسة الاستشراق الفرنسية خاصة ما يرتبط منها بدراسة تاريخ الشام في العصر الإسلامي، وهي المدرسة التي تعتبر الشام امتداداً طبيعياً لانتشار الشعوب الأوروبية من يونانيين ورومانيين، ولكن ليس من الطبيعي عندها أن تكون الشام عربية أو تابعة لدول إسلامية كالطولونيين والإخشيديين أو أن يكون من سكانها مسلمون. ويؤكد شفيق غربال هذه الرؤية عن طريق فحص أعمال اثنين من كبار مستشرقى

(١) محمد شفيق غربال: العرب في التاريخ، ص ٧.

(٢) محمد شفيق غربال: من زاوية القاهرة، ص ٣٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٠-٢١.

هذه المدرسة، وهما: سوفاجيه Sauvaget ولامانس Lammens.

وإذا أخذنا لامانس كدراسة حالة معبرة عن فكر شفيق غربال تجاه أعماله سنجد شفيق غربال يخرج بعدة نتائج بناءً على نقده للامانس، والذي نلخصه في أربع نقاط هي:

١- إن تخصص لامانس في الكتابة عن العصر الأموي ليس بهدف تحري الإنصاف لهذه الدولة وإنما بهدف إفساد التاريخ العربي عن طريقتين: أولاً مجرد الرغبة في معارضة جمهرة المؤرخين المسلمين في تنديدهم ببني أمية. وثانيتهما محاولة إثبات أن فضل الأمويين يرجع إلى أن سياستهم امتداد لسياسة تجار قرنش قبل الإسلام أي أنها سياسة كانت قليلة التأثير بالاعتبارات الدينية.

٢- التناقض الكبير الذي يقع فيه لامانس؛ فمثلاً في موطن يسلم بحركة استيطان العرب قبل الإسلام في بلاد الشام، وما كانت لهم فيه من دول وإمارات، ثم في موطن آخر يذهب إلى أنه لا يوجد في الشام مسيحيون من أصل عربي.

٣- اتباع لامانس لطريقة توهيمية في عرضه عن طريق لي عنق النصوص لخدمة الأفكار المسبقة التي لديه، ويضرب غربال مثلاً على ذلك باستشهاد لامانس بأحد نصوص المقدسي (ت نحو ٣٨٠هـ/٩٩٠م) في كتابه «أحسن التقاسيم» الخاصة بازدهار تجارة بلاد الشام في العصر الإسلامي، حيث نرى لامانس يستنتج منها أعظم موارد الشام التي لم تقلح اضطهادات المسلمين وحكمهم المزري لها عن إفقارها. فبدلاً من أن يقنعه هذا النص بازدهار الشام في العصر الإسلامي يجعله يؤكد من خلاله على فكرته المسبقة عن الاضطهاد الإسلامي والحكم المزري للمسلمين.

٤- افتقار آراء لامانس إلى الأسس السليمة التي يبني عليها نتائجه وعدم دقته في كثير من المعلومات التي يذكرها كقوله بوفاة سليمان بن عبد الملك في حصار القسطنطينية وهو خطأ^(١)، أو ترويجه لأفكاره الخاصة وإسقاطها على التاريخ الإسلامي؛ كقوله عن حرمان غير العرب من الحقوق السياسية، أو فكرته عن تطلع أهل الشام إلى ظهور السفيفاني نصير

(١) الصواب هو أن سليمان بن عبد الملك توفي سنة ٧٩٩/٧١٧م في دابق من أرض قنسرين بين حلب ومعرّة النعمان بالشام. انظر: الطبري: المصدر السابق، ج ٦ ص ٥٤٦.

«الحرية الشامية» حيث إنه كلام لا يستند إلى شيء ولا يوجد مصدر واحد يتحدث عن الحرية الشامية، أو ذكره وجود مملكة لاتينية متماسكة، مع أن ذلك يُعد وهمًا في ظل ما هو معروف في تاريخ الصليبيين من الشد والجذب بين الأمراء الإقطاعيين على مختلف مراتبهم، وبينهم وبين الكنيسة، وبين الجاليات التجارية الإيطالية، أو بين الصليبيين الذين ولدوا في الشام والصليبيين الوافدين حديثًا^(١).

ثالثًا- قضايا التاريخ الإسلامي العام :

لشفيق غريال إسهامات في الكثير من موضوعات التاريخ الإسلامي بدءًا بتاريخ العرب قبل الإسلام، ثم عصر الرسول ﷺ، والعصور التالية له من راشدين وأمويين وعباسيين، كما كتب في تاريخ الغرب الإسلامي بجناحيه المغربي والأندلسي، وكذلك لم يغب عن كتاباته الحديث في تاريخ أفريقيا الإسلامية، وتاريخ الشرق الإسلامي والوجود الإسلامي في الهند والصين... إلى غير ذلك. يضاف إلى ذلك أن له إسهامات في الكتابة في الجوانب الحضارية في التاريخ الإسلامي سواء كانت نظمًا أو ما يرتبط منها بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والديني... إلخ.

والإطار الذي يحب شفيق غريال أن يتحرك فيه عند دراسة الحضارة الإسلامية هو الذي أفصح عنه في إحدى مقالاته والذي يمكن إيجازه في خمس نقاط هي:

- مصادر الحضارة الإسلامية وفروعها.
- تتبع الحضارة الإسلامية في انتشارها والتغيرات التي طرأت عليها.
- كيف تطورت الحضارة الإسلامية؟.
- العناصر البشرية التي كانت وراء التطور والدوافع التي كانت تسيرها.
- العقبات التي كانت تقف أمام تطور الحضارة الإسلامية^(٢).

وليس من هدف الدراسة تتبع مختلف موضوعات شفيق غريال في تاريخ الإسلام وحضارته.

(١) انظر نقد شفيق غريال الكامل لآراء لامانس في: دائرة المعارف الإسلامية. ج ١٣، ص ص ١٠٥-١٠٩.

(٢) محمد شفيق غريال: الحضارة العربية بإسبانيا. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٢٨، السبت ٢٧ يناير ١٩٥١م، ص ٧.

ويكفي القول - اختصاراً - إن طريقة غربال في كتابة هذه الموضوعات محملة بالتحليلات والآراء والمقارنات والاستنتاجات وعدم الوقوف فقط على الأحداث والتفصيلات التاريخية التي تملأ المصادر.

ومن الممكن تناول بعض القضايا الخاصة بالتاريخ الإسلامي العام عند شفيق غربال، وأولها قضية تطور الخريطة الزمنية للعالم الإسلامي، والتي تطرق إليها غربال في دراسته لسياسة التوسع الإسلامي خارج شبه الجزيرة العربية. ويقسم غربال دراسته للمجتمع الإسلامي خلال القرون الخمسة الأولى للهجرة إلى مرحلتين: أولاهما مرحلة التأسيس وتضم القرنين الأول والثاني. وثانيتهما مرحلة التطوير وتضم القرون الثلاثة الأخرى^(١).

ويعتبر شفيق غربال من المؤيدين للرأي القائل بأن حركية انتشار الإسلام جاءت عن طريق سلسلة من القفزات السريعة، وأن هذه الحركية يمكن رصدها زمنياً عبر أربع درجات تتمثل في:

١- الفترة من ١٠ - ١٣٣ هـ: توسع رقعة الحكم الإسلامي من أواسط آسيا شرقاً حتى مراكش وإسبانيا في أقصى الغرب.

٢- قرابة قرنين ونصف ظل العالم الإسلامي كما هو؛ امتد بعدها حتى شمل غربي أفريقيا وآسيا الصغرى وآسيا الوسطى وشمال الهند، وكان ذلك بين عامي (٤٠٠ - ٥٠٠ هـ / حوالي ١٠٠٠ - ١١٠٠ م).

٣- وبعد قرنين آخرين كانت هناك موجة أخرى من التوسع اندفعت صوب شبه جزيرة البلقان ومنحدرات روسيا وسيبيريا وبقية أرجاء الهند وإلى أندونيسيا.

٤- أضحت خريطة العالم منذ مطلع القرن التاسع الهجري كما هي عليه باستثناء زوال الإسلام من شبه جزيرة إيبيريا وصقلية وتغلغله في بعض المناطق - على نطاق ضيق - لاسيما في أفريقيا^(٢).

وبناء على هذا التدرج الزمني يخرج شفيق غربال في دراسته برأي - يستحق المناقشة - من أن الإسلام في المدة الواقعة بين عامي ١٣٣ - ٤٠٠ هـ / ٧٥٠ - ١٠٠٠ م بلغ تمام نضوجه، وعلى ذلك، فإن

(١) محمد شفيق غربال: الآراء والحركات في التاريخ الإسلامي، ص ٦٤-٩٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٦٣ - ٦٤.

المناطق التي دخلت في الإسلام بعد تلك المدة لا يمكن أن تزعم أنها ساهمت مساهمة أصيلة في تطور الثقافة الإسلامية.

ولشفيق غربال نظرات سديدة في واحدة من أخطر القضايا في تاريخ الإسلام وهي العوامل التاريخية التي أدت إلى شطر العالم الإسلامي إلى شرق أقصى يقع شرق العراق وإلى وسط يمتد من العراق إلى مصر وإلى مغرب يقع غربي مصر. ويذكر أن الشطر في حد ذاته قديم وهو إلى حد ما طبيعي متأثر بحقائق التاريخ والجغرافيا، إلا أنه قد حدثت عوامل تاريخية طارئة فصلت هذه الأقسام بعضها عن بعض، وألهمت كل قسم بكوارثه ونكباته .. فانطوى على نفسه، وحمد على ما هو عليه. ويرصد هذه الأحداث التي أدت إلى نتائجها القريبة والبعيدة إلى انقسام العالم الإسلامي، وتتمثل في:

١- اشتداد الضغط الصليبي على الأقطار الوسطى والمغربية من العالم الإسلامي في حوض البحر المتوسط.

٢- اكتساحات التتار في الشرق التي أدت في نتائجها البعيدة إلى انفصالة عن سائر أقاليم العالم الإسلامي، وبدأت أوضاعه تتضح في فارس والإمارات الفارسية، وأفغانستان، والهند الإسلامية.

٣- إجلاء المسلمين عن الأندلس ومهاجمة المغرب.

٤- حركة التطويق البحرية الأوروبية لبلدان العالم الإسلامي^(١).

وفي شرحه المستفيض لنظريته هذه لا يهمل غربال المحاولات التي قامت من أجل إعادة بناء الوحدة الإسلامية: وأولها: محاولة الجبهة الإسلامية مواجهة الصليبيين. وثانيها: محاولة الدولة العثمانية إعادة بناء الوحدة الإسلامية، والتي لم تكن باليسيرة، وفشلها في ذلك يرجع إلى ثلاثة أسباب هي:

١- أن هذه المهمة كانت أكبر وأشق مما تصورت؛ ولهذا لم يتم منها إلا إخضاع العرب أو أكثرهم

(١) محمد شفيق غربال: منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية ...، ص ١٢٣.

٢- استحكام العداء بين العثمانيين والإيرانيين وتحكم الفرقة بين السنيين والشيعة.

٣- فشل العثمانيين في طرد البرتغاليين ومن تبعهم - من هولنديين وإنجليز وفرنسيين بعد ذلك - من البحار العربية، وكانوا قد وصلوا إليها في أواخر القرن الخامس عشر^(١).
ويدرّس شفيق غربال قضية القبلية والبداءة في التاريخ الإسلامي. ويذكر أنه بالرغم من أن الإسلام أنكر نظرياً فكرة المجتمع الوثني القبلية، إلا أن نظام القبلية بقوته الداخلية وأسلوبه في معاملة الغرباء ظل أمراً مفيداً بحيث لم يكن بالإمكان الاستغناء عنه أو نبذه. وهكذا تم تشكيل القوات المحاربة على أساس قبلي، كما تم تخطيط الأحياء في المدن المحصنة وتوزيعها على أسس قبلية كذلك. وسكان الأقاليم الذين دخلوا في الإسلام لم يكونوا مجرد أعضاء في المجتمع، بل اندمجوا في القبائل وانتسبوا إليها أتباعاً (موالي) كما كانوا يدعونهم، ولم يعاملوا على قدم المساواة مع العرب، إخوانهم في العقيدة.

وظلت مشكلة الموالي - سكان الأقاليم الذين دخلوا في الإسلام وانتسبوا إلى القبائل العربية - مشكلة تحير المجتمع الإسلامي إلى أن جاء الخلفاء العباسيون وتقوض الكيان القبلي^(٢). غير أن شفيق غربال يرى أن بذور القبلية والبداءة ظلت كامنة إلى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي الذي شهد بعثاً جديداً للبداءة مع انقسام المسلمين إلى ثلاث خلافت عباسية وأموية وفاطمية، وأن هذا البعث شهد التاريخ الإسلامي ممثلاً في ثلاث قوى كبرى هي العرب والبربر والأتراك^(٣). فالبداءة هي العامل المشترك بين هذه القوى الثلاث.

وبجانب هذه القضية يتطرق غربال إلى قضية ترتبط ببعض جوانبها بالحضارة الإسلامية وهي قضية المؤثرات الحضارية للبحر المتوسط. حيث ينقد غربال الرؤية التي تصدر عن معظم الكتّاب الأوروبيين والتي لا يعترفون فيها للبحر المتوسط إلا بالحضارة الأوروبية المنحدرة من الأصل اليوناني، وينظرون لأمم البحر التي رفضت الاندماج فيها نظرتهم للدخلاء الجامدين أو

(١) محمد شفيق غربال: الجامعة الإسلامية واتحاد العرب. مجلة الهلال. السنة ٦٣ - الجزء ١، يناير ١٩٥٥م، ص ص

(٢) محمد شفيق غربال: الآراء والحركات في التاريخ الإسلامي، ص ٧٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ٩٤.

المتعصبين. ويرى غربال أن هذه الفكرة سياسية قبل أن تكون علمية، وهي من ناحية العلم كما هي من ناحية السياسة لا تصلح لأي عمل قويم^(١). وأن الدول التي قامت حول البحر المتوسط تنوعت ثقافتها وتعددت أشكالها وأوضاعها، أثرت فيها ظروف البحر الثابتة وقربت فيما بينها في بعض عناصرها ولكن لم تستطع أن تحول ثقافتها إلى ثقافة واحدة أو حضارة واحدة.

ويُبرهن على ذلك عن طريق استعراضه للحوادث التاريخية الكبرى التي تبين أن البحر كان ملتقى حضارات وليس حضارة موهومة اسمها حضارة البحر المتوسط. ويذكر أنه تم للرومان إخضاع أمم البحر لحكومة واحدة، وبالرغم من ذلك لم تقم حضارة واحدة وكان نجاح الرومان أتم خارج حوض البحر لا داخله فيما وراء جبال الألب في فرنسا وفي الغرب الأوروبي، ولكن الأمم اليونانية والشرقية لم تنهدم شخصيتها بل احتفظت بمقوماتها وانبعثت منها المسيحية، ثم حدثت الإغارات الجرمانية والعربية الإسلامية والصليبية فتمزقت وحدة البحر السياسية، وتم وضع أساس الأوضاع الراهنة حضارة أوروبية على سواحل البحر الشمالية وحضارة عربية إسلامية على سواحل الشرقية والجنوبية. ولم تخل واحدة منها من مؤثرات البحر فاختلفت إسبانيا وفرنسا وإيطاليا عن إنجلترا وألمانيا، واختلف المغرب الإسلامي عن إيران والهند ولكن بقيت إسبانيا وفرنسا وإيطاليا قطعة من أوروبا، ويبقى المغرب الإسلامي قطعة من دار الإسلام^(٢).

القضية الخامسة هي قضية البطولة في التاريخ الإسلامي. وكان شفيق غربال مؤمناً بأهمية البطولة ودور الفرد في صناعة التاريخ. والبطولة عنده يمكن أن تكون عمل فرد، ويمكن أن تكون عمل مجموعة، ويمكن أن تتجلى في عمل يحدث بارزاً قائماً بنفسه، ويمكن أن تتجلى في عصر بأكمله أو في حياة طائفة من الشعب، ويمكن أن تكون عملاً حربياً كما يمكن أن تكون نشاطاً مدنياً^(٣).

ويدخل في إطار إيمان شفيق غربال بالبطولة تصديه للكتابة عن حياة أعمال عدد من

(١) محمد شفيق غربال: حضارات البحر الأبيض المتوسط. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٨٤٥، السبت ٢٦ مايو

١٩٥١م، ص ٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧.

(٣) محمد شفيق غربال: من زاوية القاهرة، ص ٨١.

رواد الفكر الإسلامي كالحسن البصري (ت ١١٠هـ/٧٢٨م)، وأبي العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ/١٠٥٧م)، والغزالي (ت ٥٠٥هـ/١١١١)، وابن تيمية (ت ٧٢٨هـ/١٣٢٨م). هذا بالإضافة إلى كتابته كذلك عن بعض الشخصيات السياسية المحورية في التاريخ الإسلامي كصلاح الدين الأيوبي، وأحياناً يتبع غربال طريقة المقارنات التاريخية بين الشخصيات باختلاف عصورهم وبيئاتهم، وباختلاف أزمنتهم وأمكنتهم، كمقارنته بين صلاح الدين الأيوبي (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م) ومحمد علي الكبير (ت ١٢٦٥هـ/١٨٤٩م)^(١)، راصداً لعناصر الشبه والاختلاف بين كل منهما. ويعمل شفيق غربال في دراسته للشخصيات أو تعرضه لها على استخدام المادة التاريخية من أجل الوصول لشخصية صاحب الترجمة، وهو ما عبر عنه بقوله: «منهج ربط شخصية المترجم له بحركة هامة فيعني المتحدث بصفة خاصة ببيان أثر الرجل في الحركة المقترنة به»^(٢).

ونجد صدى واضحاً لإيمان شفيق غربال بالبطولة ودور الفرد في التاريخ في اهتمامه بالتراجم كأحدى فنون التأليف التاريخي في الحضارة الإسلامية، ويظهر هذا الاهتمام في عدة صور: أولها - كتابته عن كتب التراجم عند المسلمين باعتبارها أحد العناصر الأساسية للنقد العلمي، ورصده لأنواعها سواء كتب طبقات، أو كتب تراجم عامة، أو خاصة برجال قرن من القرون أو قطر من الأقطار أو حاضرة من الحواضر... إلخ^(٣).

ثانيها - نقده لحركة التأليف في التراجم عند المسلمين وأنها قلت فيها الترجمة التحليلية التصويرية لرجل واحد^(٤).

ثالثها - تأكيده على وجوب الاستفادة من الحدود والضوابط التي وضعها علماء المسلمين القدامى فيما يخص أحكام المؤرخين على الرجال، والتي خلاصتها أن لا مبرر للخوض في الرجال إلا لأغراض التحقيق العلمي طبقاً لأصول العلم وأوضاعه أو مصلحة ظاهرة

(١) محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير، ص ٧٢-٧٣.

(٢) محمد شفيق غربال: الشخصيات البارزة في تاريخ مصر الحديث. مجلة الإذاعة المصرية. العدد ٧٠١، السبت ٢١

أغسطس ١٩٤٨م، ص ٦.

(٣) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

للجماعة أو الأمة^(١).

رابعها - ما أعلنه شفيق غربال في شهر أغسطس سنة ١٩٤٨م عن اهتمام الجمعية الملكية للدراسات التاريخية [الجمعية المصرية الآن] وتصديها لإعداد «معجم شامل لرجال مصر منذ أقدم العصور حتى الآن، وهو عمل ضخم، لا يعادله معاجم الألمانية والإنجليزية والفرنسية والأمريكية التي نعرفها، وذلك على الأقل بحكم طول التاريخ المصري»^(٢).

وهو يُظهر إيمانه بالبطولة وأثرها في الأحداث التاريخية في مقولته الشهيرة «مصر هبة المصريين» والتي يؤكد من خلالها أن تكوين مصر خلال جميع العصور كان من صنع جماعة المصريين^(٣)، أي أن هناك نمطاً آخر من البطولة يمكن تسميته بالبطولة الجماعية.

وقام شفيق غربال بتطبيق نظريته في البطولة الجماعية على إحدى المعارك الكبرى في التاريخ الإسلامي وهي موقعة عين جالوت (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، ويرى أن البطولة في هذه المعركة مرت بثلاثة أدوار: في الدور الأول كانت بطولة جمع الكلمة والتغلب على النزوع إلى التفرق. والدور الثاني بطولة القرار العظيم في الخروج لمواجهة البرابرة الزاحفين دون انتظارهم في أرض الوطن. والدور الثالث كان البطولة التي بدت في القتال^(٤). ومع تعداد غربال للصورة السابقة من البطولة الجماعية إلا أن إيمانه بالبطولة الفردية يفوق اعتقاده بالبطولة الجماعية، ويقول في هذا الصدد: «إن الجماهير وحدها وبلا قيادة لا تستطيع أن تصنع شيئاً على الإطلاق... إن الجماهير دائماً في حاجة إلى من يكتشفها.. إنها في حاجة إلى رمز تنتقده وتشجعه وتقده وتنقل حرارتها إليه.. ثم تسير وراءه.. هذا الرمز هو الفرد.. هو الزعيم»^(٥).

(١) محمد شفيق غربال: أحكام المؤرخين على الرجال. مجلة الهلال. السنة ٦٣- الجزء ٤، أبريل ١٩٥٥م، ص ٤١.

(٢) محمد شفيق غربال: الشخصيات البارزة، ص ٦.

(٣) محمد شفيق غربال: تكوين مصر، ص ٢.

(٤) محمد شفيق غربال: من زاوية القاهرة، ص ٨٢.

(٥) من حوار أجراه: عبد التواب عبد الحي مع المؤرخ شفيق غربال، وذلك في مقالته: «مع المؤرخ شفيق غربال».

والمنشورة بمجلة الإذاعة. العدد ١١٩٢، السبت ١٨ يناير ١٩٥٨م، ص ٢٧.

رابعاً- قضايا التاريخ الإسلامي الخاص بمصر:

أولى هذه القضايا قضية الصيغة التي يجب استخدامها في التعبير هل تاريخ مصر أم تاريخ المصريين؟ ويتساءل شفيق غربال عن نسبة تاريخنا تكون للوطن فنقول تاريخ مصر أم للقوم من المصريين ونقول تاريخ المصريين، أنقصد بذلك أصحاب هذا الوطن أو الوادي في حقبة معينة، أم نطلقه على أبناء الوادي في جميع الحقب؟ وهل إن أطلقناه على جميع الحقب الزمنية سيكون في ذلك إهمال الصلات الحقيقية التي كانت لنا في ماضينا وفي حاضرنا بمجتمعات وحضارات عالمية؟ وإن لم نطلق الوصف مصري على جميع العصور أفلا يكون في ذلك قدر مهم من إهمال العلاقات الحقيقية القائمة بين أطوار التاريخ في هذا الوادي؟، وي طرح غربال هذه التساؤلات المهمة داعياً المؤرخين إلى مناقشتها من غير استسهال التعميم والتقرير في هذه الشؤون الخطيرة^(١).

القضية الثانية هنا هي قضية الأصول العرقية للمصريين. وهي مسألة تشكل رؤية ما لدى البعض إلى الآن^(٢) بالرغم من عدم تماشيها مع الواقع التاريخي. ولقد تناول شفيق غربال منذ أكثر من خمسين عاماً هذا الأمر؛ خاصة أنه لا بد للمؤرخ أن يتصدى للمشكلات في واقعه ولا ينفصل عنها. وتدور دراسته لهذه القضية على عدة أفكار أهمها:

١- نقد الرأي الذي يظنه البعض ممن يعينهم البحث عن ذراري قدماء المصريين أنهم يعثرون عليهم في ريف مصر أو في طائفة الأقباط، وينقد ذلك بالقول إن الريف المصري لم يكن بعيداً عن التأثيرات الخارجية كما يفترض أصحاب هذا الرأي حيث كان هو البقعة التي استوطن فيها مرتزقة المحاربين من الإغريق، وكذلك رجال القبائل من العرب وبدو الصحراء، أما من يعتقد أنه سيجد بغيته في طائفة الأقباط فاحتمال وجودهم فيهم مثل احتمال وجودهم في غيرهم^(٣)، وذلك لأن السلالات المصرية تأثرت عبر تاريخها بمن وفد عليهم واختلط بهم.

(١) تقديم محمد شفيق غربال لكتاب: تاريخ الحضارة المصرية (العصر الفرعوني)، لمجموعة من الكتاب، المجلد

الأول، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢م. ص ١.

(٢) انظر على سبيل المثال: جريدة المصري اليوم، الأربعاء ١٥ سبتمبر ٢٠١٠م.

(٣) محمد شفيق غربال: تكوين مصر، ص ٤.

- ٢- أن الإسلام انتشر في مصر عن طريق اعتناق سكان البلاد المسيحيين الإسلام^(١).
- ٣- اختلاط المسلمين الوافدين بالمسلمين من أهل البلاد، كما اختلط المسيحيون الذين جاءوا من الشام بالأقباط وغيرهم^(٢).
- ٤- «ارتباط مصر بدار الإسلام فتح أبوابها - وبخاصة أبواب مدنها - للمستوطنين من البلدان الإسلامية الأخرى، وبخاصة من بلاد المغرب ومن فلسطين وسوريا وقيام دول من المماليك، واعتماد تلك الدول على جيوش مؤلفة من أبناء الرق أدى إلى قدوم جموع من الجواري والعبيد من مختلف العناصر والأجناس من أتراك وشراكسة وصقالبة ومن إليهم، أضف إليهم مستوطنين من شتى السلالات الأفريقية»^(٣).
- وثالث القضايا بالنسبة للتاريخ المصري الإسلامي تتمثل في قضية السمات الحضارية لمصر. وهي قضية يطرحها غربال على هيئة أفكار دون تقديم تفصيلات خاصة بها، ومن أهمها:
 - ١- حدوث نوع من التكافؤ بين الاستمرار وبين التغير في التاريخ المصري بعد دخول مصر في الإسلام، ولم تشهد رجحان كفة مبدأ التغير في التاريخ المصري إلا عند استهلال القرن التاسع عشر وبداية الاتصال بالغرب^(٤).
 - ٢- تطور مصر الإسلامية جرى على نسق خاص بها، مع سرعة تأثره بمبادئ الإسلام الأساسية وبالحركات الإسلامية عامة.
 - ٣- تركز الحياة العامة في الحواضر وبخاصة في الحاضرة الكبرى^(٥). وبالرغم من أن مصر كان بها مراكز حضرية لها مكانتها إلا أن الحضارة المصرية ظلت حضارة مجتمع ريفي خلال آلاف

(١) المرجع نفسه، ص ٧٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ٧٨-٧٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٠.

(٥) محمد شفيق غربال: في متحف الحضارة المصرية، ص ٧.

السنين من تاريخها^(١).

٤- الخصوصية الحضارية المصرية في العصر الإسلامي وهي تلك الخصوصية التي ظهرت بعض معالمها في اتجاهات معينة للفقهاء الإسلامي، ومساهمة الأدب الشعبي المصري القديم في الأدب الشعبي العربي^(٢).

٥- اتصفت الثقافة الإسلامية في مصر بالوسطية والأصالة، وتميزت ببقائها فترات طويلة وعدم تلقيها ضربات قاصمة أو نكبات كتلك التي تعرضت لها المغرب على أيدي القبائل البدوية، أو الأندلس من إبادة وفناء، أو الشام والعراق وما حل بهما من تدمير وخراب على أيدي المغول^(٣).

٦- كان للمسيحيين المصريين سواء من احتفظ بمسيحيته أو تحول إلى الإسلام دور بارز في إجراء الملاءمة بين العناصر الثقافية الوافدة وبين المجتمع المصري^(٤) ويرى غربال أنه ليس من اليسير الكلام عن مساهمة الأقباط في الجانب العقلي من الثقافة الإسلامية، والأسلم - في رأيه - أن يدمج العنصر المسيحي المصري الخاص في مجموع ما ساهم به الفكر الهيليني والفكر السرياني المسيحي في بناء صرح الثقافة الإسلامية عامة^(٥).

نتائج البحث :

وأخيراً يمكن الخروج من هذه الورقة بالكثير من النتائج، لعل من أهمها:

أولاً - أدت موسوعية شفيق غربال إلى تخطيطه للحدود الوهمية بين الفروع التاريخية؛ فلم يقع في أسر القيود التقليدية التي لا زال الكثيرون يضعونها أمام أنفسهم وأمام تلاميذهم. واتجاه شفيق

(١) محمد شفيق غربال: تكوين مصر، ص ٤٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨٣-٨٤.

(٤) المرجع نفسه، ص ٨١.

(٥) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

غربال في الاهتمام بالموضوعات التاريخية والحضارية للإسلام يتماشى مع ذلك الاتجاه الواضح الذي نجده عند بعض معاصريه؛ ذلك الاتجاه الذي يرى عدم وجود حواجز بين التخصصات التاريخية، وهو ما نجده - على سبيل المثال - في المقابل عند بعض مؤرخي التاريخ الإسلامي الذين لهم إسهامات في التاريخ الحديث، مثل: جمال الدين الشيال، وحسين مؤنس وغيرهما.

ثانياً - نرى أن اهتمام غربال بدراسة التاريخ الإسلامي يرجع إلى بواعث ذاتية وأخرى علمية، البواعث الذاتية تتمثل في قراءاته المبكرة في هذا التخصص^(١)، وتدرسه للتاريخ الإسلامي لعدة سنوات في مدرسة المعلمين العليا^(٢). أما البواعث العلمية فقد حتمها إدراكه بعدم فهم المجتمعات الإسلامية الحديثة إلا بفهم أصولها السابقة على الأزمنة الحديثة، والربط بين ماضي العالم الإسلامي وحاضره، حيث يتبين من البحث إيمان غربال بوصل الحاضر الذي يعيشه بالماضي؛ ففي كثير من الأحيان يكون الحاضر لدى غربال هو الباعث له على دراسة موضوعات تاريخية محددة في التاريخ الإسلامي.

ثالثاً - يظهر من الدراسة سعة اطلاع شفيق غربال وتقصيه للمصادر التاريخية الخاصة بحقل التاريخ الإسلامي من كتب تاريخ عام أو خاص وتراجم وسير ومغازٍ وخطط ورحلات ومعاجم، هذا فضلاً عن كتب الأدب والشعر والفقه والحسبة، بل إنه يقدم أحكاماً نقدية على أساليبها ومناهجها، ودعا إلى الاهتمام بنشر ما لم ينشر منها وتحقيقه تحقيقاً علمياً سليماً. كما أنه أبرز أهمية بعض المصادر الخاصة في كتابة التاريخ الإسلامي كالوثائق والآثار وكتب الفتاوى.

رابعاً - تتصف لغة شفيق غربال في كتاباته في التاريخ الإسلامي بالوضوح والإقناع، والبراعة في العرض التاريخي القائم على صناعة بناء متماسك في أسلوب مشوق وجذاب. ومن أبرز معالم

(١) قرأ غربال كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) بكامل أجزائه وهو لا يزال طالباً في المدرسة الثانوية. انظر: أحمد عزت عبد الكريم: كلمته في تأبين محمد شفيق غربال بمعهد الدراسات العربية العالية، ديسمبر ١٩٦١م. المجلة التاريخية المصرية. مج ١٩، ١٩٧٢م، ص ١١٠.

(٢) عبد المنعم الجميلي: اتجاهات الكتابة التاريخية في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، ص ١٦٠.

هذا الأسلوب الإيجاز والتلخيص والتركيز الشديد الذي يدل عليه أن وراء السطور وأحياناً وراء الكلمات معلومات مخزنة تؤكد صرامة الطريقة التي اتبعها شفيق غربال في إيجاز ما يريد أن يقول، والدقة المتناهية في اختيار الألفاظ التي تعينه على هذا الإيجاز.

خامساً - لم ينتم شفيق غربال لمدرسة معينة في تفسير أحداث التاريخ الإسلامي، وكانت له رؤية متوازنة في دراسة هذا التاريخ تقوم على الإفادة من سمات الكتابة التاريخية عند المسلمين خاصة ما يرتبط منها في إصدار الأحكام على الرجال، وفي الوقت نفسه يدعو إلى الإفادة والتعلم على المدارس التاريخية الأوروبية قديمها وحديثها.

سادساً : اتبع شفيق غربال أسلوب المقارنات التاريخية بين عصر وآخر كالعصرين الروماني والعربي، وبين شخصية تاريخية وأخرى كصلاح الدين الأيوبي ومحمد علي، وبين الحضارة الإسلامية وغيرها من حضارات.

سابعاً : ظهر من دراسة التاريخ الإسلامي عند شفيق غربال إيمانه بأهمية دور الفرد أو النخبة أو الصفوة في قيادة المجتمع الإسلامي، وتقديره لحقيقة الدور البارز لأعلام المسلمين في مجريات حوادث التاريخ الإسلامي، وإن كان لم ينف تماماً دور الجماهير، ولكنه يؤكد في الوقت نفسه على حاجتها إلى الفرد أو الزعيم.

ثامناً : طرح شفيق غربال العديد من المشروعات العلمية التاريخية التي لا زالت صالحة للتطبيق حتى يومنا هذا، وندعو الجمعية التاريخية إلى الاستفادة منها والعمل على إنجازها خاصة وأن بعض هذه المشروعات كانت ضمن خطة العمل التي وضعها شفيق غربال لما يمكن للجمعية أن تنجزه. مثل : مشروعه في إعداد خطط جديدة، ومثل : خطته حول معجم المصريين عبر العصور، وهما مشروعان كبيران لا يقوم بهما إلا المؤسسات.

تاسعاً : يُستشف من بعض إسهامات شفيق غربال ضرورة وجود تخصص بجانب التخصصات التاريخية الأخرى يُعنى بالنقد التاريخي كعلم له أصوله ومدارسه؛ أي أن يكون هناك في أقسام التاريخ ما يشبه ما يوجد في أقسام اللغة العربية حول النقد الأدبي.

عاشراً : تحتاج كل قضية من قضايا التاريخ الإسلامي الست عشرة التي تناولها شفيق غربال في كتاباته المختلفة إلى دراسة بل دراسات خاصة بها. والذي يكفيننا أن نذكره هو أن شفيق غربال في دراسته لهذه القضايا أظهر مقدرة كبيرة في النقد والتحليل العميق للروايات والحوادث التفصيلية عبر أماكن وأزمان مختلفة واستقرائها، والتركيب من خلالها لاستخلاص الاستنتاجات المهمة؛ وهو في ذلك يقف على الأرضية نفسها التي يقف عليها كبار مؤرخي التاريخ الإسلامي؛ فهو ليس بهائر أو مطلع في حقل هذا التخصص بل إنه يُعد مؤرخاً حقيقياً يفوق الكثير جداً من الأكاديميين المتخصصين في التاريخ الإسلامي الذين لا هم لهم سوى الجري وراء السرد والتفاصيل يجمعون المادة التاريخية من روايات وشواهد ويؤلفون فيما بينها.

ع. محمد



رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٠١٣ / ٢١٣٤٩ م